الأحلام النموذجية دلالاتها التنبئية

تأليف

نجيب يوسف بدوي

الكتاب: الأحلام النموذجية دلالاتها التنبئية

الكاتب: نجيب يوسف بدوي

الطبعة: ٢٠٢١

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

بدوي، نجيب يوسف

الأحلام النموذجية دلالاتها التنبئية / نجيب يوسف بدوي

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٢٤ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٠ – ١٨٣ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٠٦٧ / ٢٠٢١

الأحلام النموذجية دلالاتها التنبئية





مقدمة المؤلف

لا نكاد نعرف ظاهرة من ظواهر النفس لقيت من اهتمام الناس في كل زمان ومكان ما لقيته الأحلام. فقد شغلت الأحلام الأذهان من قديم الزمان، وأثارت حيرة الناس ودهشتهم في كل مكان. والأحلام قديمة قدم الإنسان نفسه، كما أن الاهتمام بتفسيرها قديم قدم التاريخ نفسه. وليس لتفسير الأحلام بداية يمكن للتاريخ أن يسجلها. وقد تكون أقدم التفسيرات المكتوبة هي التي سجلت في الكتب المقدسة وفي التاريخ المصري القديم.

ولقد كان اهتمام القدماء بتأويل الأحلام ينصرف إلى التماس ما فيها من المعاني المخبوءة والنبوءات التي تكشف حجب المستقبل. وكانت لهم أحلام يستبشرون بها ويتفاءلون، وأخرى يتشاءمون منها ويتطيرون. والاعتقاد في القيمة التنبؤية للأحلام اعتقاد قديم ظل سائداً بين الناس عصوراً طويلة، وما يزال هذا الاعتقاد أهم ما يستوقف نظر الناس في أحلامهم ويثير اهتمامهم بها. ويؤكد كثير من الناس أن أحلامهم صادقة، وأن ما يرونه في الحلم لابد من أن يتحقق.

في هذا الكتاب طائفة من الأحلام النموذجية، وهي الأحلام الواسعة الانتشار التي يحلم بها عدد كبير من الناس بطريقة متشابهة، والأحلام التي وقع اختيارنا عليها ليست أحلاماً فردية وإنما هي أحلام نموذجية مشهورة ذات تفسيرات شعبية قديمة تضفي عليها دلالة تنبؤ

بالمستقبل. وتعتبر هذه الأحلام ودلالاتها التنبؤية جزءاً من التراث الميثولوجي الذي توارثناه على مر الأجيال.

وقد زاد عدد الأحلام التي وقع اختيارنا عليها عن عشرين مثالاً. ثلاثة من هذه الأحلام سبق لنا نشرها منذ سنة ١٩٤٩ في "مجلة علم النفس" التي كان يشرف على إصدارها الأستاذ الدكتور يوسف مراد. واستمر اهتمامنا بالأحلام النموذجية مدى عشرة أعوام ازدادت خلالها الأمثلة تدريجاً، كما تبلورت الطريقة التي اصطنعناها في تأويلها وتحددت معالمها. ثم قمنا بتطبيق هذه الطريقة في دراسة "الكابوس" وهو من كتب مجموعة الثقافة السيكولوجية التي تصدرها مكتبة مصر بإشراف الدكتور عبد المنعم المليجي. وبعد أن راجعنا الأحلام الثلاثة التي سبق نشرها مراجعة شاملة، آثرنا أن نجمل الأحلام النموذجية كلها في كتاب واحد يجمع أشتاتها ويقرؤه الجميع.

وتقوم دراسة الأحلام النموذجية ذات الدلالات التنبئة على المقارنة بين التفسيرات الشعبية القديمة لهذه الأحلام وتفسيرات المحدثين من رجال التحليل النفسي. ويمثل التفسيرات الشعبية القديمة تفسير محمد بن سيرين وهو إمام التعبير عند العرب. وعاش في نهاية القرن الأول الهجري ومات سنة ٧٢٨م– ١٠٨هـ. والدلالات التنبئية القديمة للأحلام مأخوذة من كتابه "منتخب الكلام في تفسير الأحلام" دار الطباعة الخديوية ببولاق سنة ١٢٨٤هـ. وحينما اشتريت هذا الكتاب منذ أكثر من عشر سنوات بقروش معدودة من إحدى دور الكتب القديمة الواقعة بجوار ضريح السيد

البدوي بطنطا، لم أكن أعرف قيمته... وكلما وضعت تفسيراته جنباً إلى جنب مع تفسيرات المحدثين من المشتغلين بتفسير الأحلام، هالني ما تنطوي عليه تفسيراته من فراسة وبصيرة نافذة. فالدلالات التي يقول بها والتي تشير إلى المستقبل قد تكون هي ذاتها الدلالات اللاشعورية التي يقول بها رجال التحليل النفسي. وكلما طال استخدامي لهذا الكتاب، زاد إعجابي به وتقديري لقيمته. والحق أنه لولا كتاب ابن سيرين لما كان تأليف هذا الكتاب ممكناً.

وكانت نقطة البدء في تفسير الأحلام النموذجية، فحص التفسيرات الشعبية القديمة لها، عسى أن يكون لها مغزى. فكانت بعض هذه التفسيرات تبدو جوفاء عقيمة، ويبدو بعضها الآخر نافذاً ملهماً، وهو ما استرشد بمدلولات الرموز في الأديان والأساطير والطقوس والحكم والأمثال والفولكلور القديم. مثل هذه التفسيرات تستوقف النظر وتستأهل العناية ولا يمكن استبعادها بدعوى أنها خرافات أو لمجرد أنها تشير إلى المستقبل. بل إننا وجدنا أن التفسيرات الشعبية القديمة للأحلام التي وقع اختيارنا عليها ترقى إلى مستوى التفسيرات الحديثة وقد تفوقها قوة وأصالة وعمقاً.

وقد تناولنا كل حلم على حدة وعالجناه بالطرق المختلفة لتفسير الأحلام، وناقشنا تفسيراته المختلفة القديمة والحديثة. ونعتقد أن القارئ الذي يعني بدراسة هذه الأحلام النموذجية، سليم إلماماً صحيحاً بالطرق والمذاهب المختلفة في تفسير الأحلام، إذ يرى هذه الطرق مطبقة المرة

تلو الأخرى على كل حلم، بحيث تلقى عليه أضواء من زوايا مختلفة، الأمر الذي يتيح له أن يتعرف على مناهج أقطاب التحليل النفسي في تفسير الأحلام، ويلمس الفروق بينهم في زاوية النظر. وبعد أن جمعنا أمثلة الأحلام النموذجية وقمنا بتحليلها ومقارنتها بعضها ببعض، ثم صنفناها، أمكن أن نستخلص منها في النهاية نتائج هامة. كما تبينا أنه يمكن إخضاعها لطريقة واحدة في التأويل هي "طريقة التحليل الوظيفي" ويجد القارئ ملخصاً لأهم هذه النتائج، كما يجد تخطيطاً لأصول هذه الطريقة في الفصل الأخير من هذا الكتاب.

المؤلف

القاهرة في أول مارس ١٩٦٠

تمهيد
في تفسير الأحلام

من الناس من يقول إنه لا يحلم. والواقع أن كل الناس تحلم، وتحلم كل ليلة. ولكننا ننسى أحلامنا لأننا لا نهتم بها ولا نلتفت إليها، ولأن ذاكرتنا مظهر لاهتمامنا. وما إن يوجه الشخص اهتمامه إلى أحلامه حتى يشعر بها ويتذكرها.

ومن الناس من ينكر على الأحلام أية دلالة، ويعتقد أنه ليس من الممكن أن يكون لهذه المواكب المتلاحقة من الصور والخيالات –التي تتحدى كل منطق أو واقع، والتي تهمي في خيال النائم دون رابطة أو نظام– أية دلالة أو مغزى. وهؤلاء لا تصورون كيف يمكن أن يكون للأحلام أي معنى أو أنها مما يقبل التفسير. ولذلك فهم لا يشغلون بالهم بها وسرعان ما ينسونها. وإلى هؤلاء المنكرين –بصفة خاصة– نسوق هذا الكتاب.

ومن الناس من يؤمنون بأحلامهم ويؤكدون أنها صادقة، وأن ما يرونه في الحلم لابد أن يتحقق. وهؤلاء لا يعنيهم من أمر أحلامهم إلا قيمتها في التنبؤ بالمستقبل. وإذا سألوا عن تفسيرها، فإنما يسالون عما يصح لهم أن يتوقعوه وينتظروه، لأنهم يتطلعون إلى معرفة ما يخبئه لهم القدر في المستقبل، ويكشف لهم حجبه عن طريق أحلامهم. وهكذا كان شأن القدماء، الذي أضفوا على الأحلام قيمة تنبؤية ونسبوا إليها دلالات ميمونة أو مشئومة يتوقعون حدوثها في المستقبل. والأحلام النموذجية

التي وقع عليها اختيارنا في هذا الكتاب كلها ذات دلالات تنبئية– وهي ما سنوجه عنايتنا إلى دراسته بصفة خاصة.

وتعتبر الأحلام الطريق الرئيسي المؤدي إلى اللاشعور. ويحتوي اللاشعور على النزعات والرغبات المكبوتة التي تكدح في سبيل الإشباع. وهذه النزعات وإن كانت مكبوتة إلا أنها لم تخمد ولم تفقد القدرة على التأثير والظهور وإنما تبقى حية تتحين الفرصة للإفصاح عن نفسها في الأحلام. ولذلك يلقى تفسير الأحلام فيضاً من الضوء على أغوار النفس وخباياها، ويكشف عن أدق أسرار النفس وأعمق خلجاتها.

ولتفسير الحلم لابد من التمييز بين مضمونه الصريح، ومضمونه الكامن. والمضمون الصريح أو الظاهر للحلم هو الحلم كما يراه الحالم وكما يرويه. وهو عبارة عن صور بصرية. أما المضمون الكامن له فهو ما ينطوي عليه الحلم من دلالة ومغزى، وهو عبارة عن الأفكار الدفينة والرغبات اللاشعورية والنزعات المكبوتة والدوافع الحقيقية التي أفصحت عن نفسها بصور رمزية في الحلم. والمثال التالي يوضح ذلك:

"فتاة في دور المراهقة حلمت بابن الجيران يقطر لها قطرة في عينها"

هذا هو المضمون الصريح للحلم كما ترويه صاحبته.

أما المضمون الكامن له فهو مضمون جنسي يتضح لأول وهلة لكل من كانت له دراية بتفسير الأحلام. فالرغبة الجنسية للحالمة أفصحت عن نفسها في هذا الحلم بصورة رمزية متخفية أو مقنعة.

وتتحول الأفكار الكامنة في الحياة العقلية للنائم إلى صور المضمون الظاهر للحلم بواسطة الحيل اللاشعورية أو "الميكانيزمات" ومن أهم هذه الحيل التكثيف– الإبدال– التصوير المسرحي– الإسقاط– التعويض– القلب... وسنتناول شرح كل حيلة من هذه الحيل في موضعها من الحلم الذي تظهر فيه في الأمثلة الواردة في هذا الكتاب.

وفي المثال السابق كانت الحيلة اللاشعورية هي "الإبدال" **Displacement** إبدال العناصر الجنسية الحرجة برموز بريئة في المضمون الصريح. والإبدال في هذا المثال هو "إبدال من أسفل إلى أعلى" فالإحساسات والنوايا التي موضوعا النصف الأسفل من الجسم أبدلت في أعضاء أخرى ليس منها حرج فالقطارة رمز جنسي مذكر. والعين رمز جنسي مؤنث. فكأن الحلم كله عبارة عن إبدال العملية الجنسية من أسفل إلى أعلى.

والوظيفة التي نفترض وجودها في العقل والتي تقوم بهذه الحيل هي "الرقيب" ويوجد في طبقة ما قبل الشعور. وإلى هذه الوظيفة ينسب تخفي الحلم وتقنعه مما يجعل يدو غريباً أو بريئاً. والرقيب هو القوة الكابتة في العقل التي تغفل أثناء النوم، فتسمح للنزعات المكبوتة والرغبات اللاشعورية بمتنفس تصرف منه بعض قواها المحتبسة، بشرط ألا تظهر بمظهرها الحقيقي بل في صورة مقنعة يجيزها الرقيب.

ولتفسير الحلم تستخدم طريقتان هما: التداعي الحر، وتأويل مدلول رموز الحلم. والتداعي الحر هو ما يرد من الخواطر والأفكار في ذهن

الحالم على صور وأجزاء الحلم. فيطلب المفسر من الحلم أن يذكر ما تستدعيه كل فقرة من فقرات الحلم إلى ذاكرته من الارتباطات أو الملابسات، وأن يذكر كل ما يرد على ذهنه من الأفكار مهما كانت غريبة أو تافهة دون أن يعمد إلى الاختيار أو الاستبعاد، بل يترك نفسه على سجيتها دون نقد أو توجيه، ويطلق كلامه إطلاقاً تلقائياً لا خفاء فيه ولا استحياء.

وإذا كان التداعي الحر يقوم به الحالم، فإن تأويل مدلول الرموز يقوم به المفسر، ولا يصح أن نتوقع من الحالم أن يدرك مغزى الرموز التي تظهر في أحلامه. فالرموز تستعصي على التداعي الحر ولا يجدي سؤال الحالم عما يتداعي في ذهنه من الخواطر والأفكار حول هذه الرموز. ولذلك فإن تأويل الرموز من عمل المفسر، ويقوم به معتمداً على خبرته وتجربته ومعرفته بمعانيها التي تتكرر في أحلام كثير من الناس، والتي تتكرر نظائرها في العقائد والأساطير والطقوس والأعراض العصابية والقصص الخرافية والشعر والغزل الصوفي والفولكلور والأمثال العامية... في هذه المجالات كلها نظائر لرموز الأحلام ولا غنى للمفسر عن الاسترشاد بمدلولات الرموز في هذه المجالات في تأويل رموز الأحلام.

وقد تكون رموز الحلم من الوضوح بحيث يمكن للمفسر إدراك مغزاه بمجر سماعه، كما أدركنا على الفور مغزى الحلم الجنسي الذي ذكرناه، وكما يتضح كذلك بسهولة مغزى الحلمين التاليين.

حلم المرابي

لي صديق خفيف الظل في كلامه وفي أحلامه. حرفته.. مراب،

يقرض معارفه المضمونين بالربا الفاحش. والسعر هو ١٠% ميزته الهامة أنه رهن الإشارة عندما تطلب منه سلفة. أما إذا طلبته لتردها إليه.. فإنه يزوغ. وهو شخصية طريفة تستحق بجدارة أو تكون موضوع رواية، لأن قصته تضارع قصة شيلوك في رواية تاجر البندقية لشكسبير. ومن عادته أن يخصم الأرباح مقدماً. والربح مركب. فحينما يبلغ الدين مثلاً ٤٠٠ جنيه، فهو يستحق أرباحاً قدرها ٤٠ جنيهاً في السنة. وفي حالة العجز عن سداد الأصل والأرباح فإن الأرباح وحدها تستحق ٤ جنيهات. جاءني ذات يوم. وقال إنت بتفهم في الأحلام. قلت: نعم. قال: إذن فسر لي هذا الحلم:

"حلمت أني اشتريت سمكة كبيرة، ومعها بنتها، سمكة صغيرة" فما تفسيره؟ قلت: أنت تعرف أن السمك في الحلم رزق. قال: نعم. قلت: فهذا الحلم "رزق مركب". فضحك على الفور. فالسمكة الكبيرة هي الأرباح. والسمكة الصغيرة التي "ولدتها" هي أرباح الأرباح! ولم أدفع له يومها سوى قيمة السمكة الصغيرة!

حلم المدرس

"حلمت أني أرعى الغنم. وجلست في مروى جافة، فوجدت تحت قدمي نقوداً من فضة. وكلما تناولت منها قطعة عثرت على كثير غيرها."

ورعى الغنم تمثيل رمزي لرسالة المعلم. فالمعلم راع مسئول عن رعيته ورعى الأغنام حرفة الرسل والأنبياء. وكاد المعلم أن يكون رسولاً. غير أن هذا الزميل يشعر بقلة الأجر الذي لا يتناسب مع سمو رسالته.

ومن هنا جاء التعويض، فوجد الفضة عند موطئ قدميه.

هذه الأحلام البسيطة الواضحة لا يمكن أن يتطرق الشك إلى صحة مغزاها وليس من المحتمل أن يكون لها تفسيرات أخرى. وهي كفيلة في حد ذاتها بإقناع كل منكر يشك في إمكان تفسير الأحلام. ويبدو في الحلمين الأخيرين بوضوح أثر المهنة في الحلم، بحيث أنني لو كنت قد أغفلت ذكر مهنة صاحب الحلم، لكان من السهل على القارئ أن يستنتجها.

ولا تكون الأحلام دائماً بمثل الوضوح الذي ظهرت به هذه الأمثلة، فأحياناً يكون المضمون الظاهر للحلم غريباً أو غامضاً. وقد يتنافى مع المنطق أو يحتوي على متناقضات. وقد يلم بأشتات من الحوادث بعضها تافه وبعضها الآخر مهم، منها ما حدث في نفس اليوم الذي وقع الحلم في مسائه، ومنها ما مضى عليه مدة طويلة ويكون الحالم قد نسيه ولم يعد يفكر فيه قط. وقد يكون الحلم مصحوباً بحالة وجدانية معينة يحس بها النائم عند الاستيقاظ، فيستيقظ من حلمه منشرحاً أو منقبضاً.

ولا تكون الأحلام دائماً بمثل الإيجاز الذي ظهرت به هذه الأمثلة. فهناك أحلام طويلة تشتمل على كثير من الحوادث والتفاصيل، ويحتاج تأويلها إلى صفحات. ومن الغريب أن مثل هذه الأحلام الطويلة التي يلوح لنا أنها لازمتنا طول الليل، لا تستغرق في الواقع سوى دقائق معدودة. فلا تزيد المدة التي يستغرقها الحلم عادة عن دقيقتين أو ثلاث دقائق. ومن الأمثلة المألوفة على قصر المدة التي يستغرقها الحلم، ما

يحدث أحياناً حين يدق بائع اللبن الجرس في الصباح، فتحلم ربة البيت بأنها قامت ومشت إلى الباب وفتحته وأخذت اللبن... وتستمر في نومها. ثم يدق الجرس مرة ثانية، فتستيقظ لتتبين أنها لم تبرح فراشها، ولكنها حلمت حلماً كاملاً في الفترة الوجيزة بين دق بائع اللبن للجرس مرتين متتاليتين. فهذا الحلم:

١- يحرس النوم، ويحقق رغبتها أو مهمتها بطريقة وهمية.

٢- وهو حلم مؤات يتفق مع موضوع المنبه الحسي ويكمله. وهذا المنبه هو سماع الجرس في المرة الأولى، وإدراك الحالمة أنه لابد أن يكون بائع اللبن الذي يحرمها دائماً من غفوة الصباح.

٣- وتكوّن الحلم بسرعة وظهر جاهزاً، فلم يستغرق سوى ثوان معدودة بين دق البائع للجرس مرتين متتاليتين.

ويمكن تشبيه سرعة حدوث الحلم بشريط سينمائي أو شريط إذاعي يدور بسرعة فائقة. إن الحواس أو العقل الواعي لا يستطيع متابعة مثل هذا الشريط السريع، ولكن الحلم رغم سرعته لا يفقد وضوحه، ويبدو وكأن موضوعه كان مسجلاً جاهزاً، ومهما كان حافلاً بالتفاصيل، وبدا لنا عند الاستيقاظ أنه لازمنا طول الليل، فإنه لا يستغرق سوى دقائق معدودة.

والأحلام النموذجية الواردة في هذا الكتاب كلها أحلام قصيرة واضحة. وهي أحلام مشهورة واسعة الانتشار يحلم بها عدد كبير من الناس بطريقة متشابهة. والمعول عليه في تفسير هذه الأحلام هو تأويل

مدلولات رموزها. ولا يستخدم التداعي الحر إلا في تفسير الأحلام التي تشتمل على تفاصيل هامة تخص صاحب الحلم. ورموز الأحلام النموذجية رموز واضحة ومعبرة ولها دلالات قديمة في التفسيرات الشعبية التي لا تزال شائعة بيننا حتى الآن. وهذه التفسيرات تضفي عليها دلالة تنبؤ بالمستقبل. ويمثل هذه التفسيرات أصدق تمثيل كتاب ابن سيرين. وقد أفرد فرويد في كتابه "تفسير الأحلام" فصلاً خاصاً بالأحلام النموذجية تناول فيه أحلام: العري والطيران والسقوط والامتحان... ووفاة الأهل في الأحلام. ويقول فرويد إن الأحلام النموذجية تحمل دائماً نفس المعنى مهما تكن شخصية الحالم. وإن دلالة الرموز في الأحلام النموذجية ثابتة. وقد وجدت إلى جانب الرموز العامة ذات الدلالات الثابتة رموزاً أخرى تتنوع دلالاتها بتنوع البيئات والثقافات، ورموزاً فردية خاصة تختلف دلالاتها من فرد إلى آخر.

وقد ترجم كتاب فرويد في تفسير الأحلام أخيراً إلى العربية[1]، فلو أن القارئ عنى بالموازنة بين تفسير فرويد للأحلام النموذجية، وتفسيرنا لها في هذا الكتاب، لكانت دراسة ممتعة يتضح له منها الأمور الآتية:

أولاً: لما كان كتاب فرويد في تفسير الأحلام قد نشر في عام ١٩٠٠ فمن الطبيعي أن تتزايد التفسيرات للأحلام النموذجية وتتنوع في مدى أكثر من نصف قرن، أسهم خلالها تلاميذ فرويد من رجال التحليل النفسي، أو من أنصار المدارس المشتقة منه في تفسير هذه الأحلام.

---

(١) ترجمة الأستاذ مصطفى صفوان، ونشرته دار المعارف.

ومن هؤلاء يونج، وأدلر، وشتيكل، وصامويل لوي، وإميل جوثيل وهادفيلد... وقد ضمنت كل حلم كافة التفسيرات التي قيلت فيه قديمها وحديثها، حتى يمكن الموازنة بين التفسيرات الحديثة من ناحية، والموازنة بينها وبين التفسيرات الشعبية القديمة ممثلة في تفسير ابن سيرين من ناحية أخرى.

ثانياً: يؤول فرويد الأحلام النموذجية تأويلاً جنسياً. ويؤول وفاة الأهل في الأحلام على أساس العقد المكبوتة والتمنيات اللاشعورية الشريرة حيال الأهل والأقارب. ويطلق على هذا النوع من التفسير القائم على الجنس والعقد "التفسير المادي".

أما في هذا الكتاب، فنصطنع طريقة التحليل الوظيفي التي تعني بمقارنة رموز الأحلام بالرموز في المجالات الاجتماعية والثقافية مجالات الأنثروبولوجيا والميثولوجيا والفولكلور[٢] ونتخذ نقطة البدء في تفسير الحلم، فحص التفسيرات الشعبية القديمة له ممثلة في تفسير ابن سيرين إذ أن كثيراً من هذه التفسيرات ينطوي على فراسة. ولا يمكن استبعاده بدعوى أنه خرافة.

والأمثلة التالية توضح الفرق بين التفسير المادي، والتفسير الوظيفي لرموز الأحلام.

---

(٢) الأنثروبولوجيا هو علم الإنسان. وتدرس الأنثروبولوجيا الاجتماعية حضارات الجماعات البدائية المعاصرة بصفة خاصة. والميثولوجيا هو علم الأساطير. والفولكلور هو التراث الثقافي الشعبي القديم.

التفسير المادي للثعبان في الحلم هو أنه من أهم الرموز الدالة على عضو التذكير. وليس هذا التفسير الجنسي بالتفسير الوحيد. فللثعبان دلالات أخرى منها: أنه قد يدل على المعرفة والحكمة، كما في قصة آدم وحواء. فقد أكلا من شجرة المعرفة، وهي معرفة جنسية. وتسبب الثعبان في الفتنة فأغوى حواء بالمعصية والخطيئة. وقد يدل الثعبان على الشفاء. فالثعبان الذي رفعه موسى في البرية ليبرأ كل ما ينظر إليه هو رمز للشفاء، ولذا اتخذ شعاراً يرسم على واجهات الصيدليات. وفي تفسير أرطميدورس اليوناني الذي عاش في القرن الثاني للميلاد: "إذا تعقب الثعبان رجلاً في أحلامه فعليه أن يحترس من كيد النساء" وقد يدل الثعبان على العدو، كما في تفسير ابن سيرين الذي يقول: "وأما الحيات فإنها أعداء وذلك لأن إبليس اللعين توسل بها إلى آدم عليه السلام" ص ١٦٠. فالتفسير المادي للثعبان تفسير جنسي. أما التفسير الوظيفي له فهو إنه قد يرمز للمعرفة أو للشفاء أو لكيد النساء أو للعدو.

والتفسير المادي للديك هو أنه رمز جنسي مذكر. أما التفسير الوظيفي له فهو أنه رمز للخيانة، لقول السيد المسيح عليه السلام لبطرس الرسول: "ستنكرني ثلاث مرات عند صياح الديك".

والتفسير المادي للعصا تفسير جنسي هو أنها رمز للقضيب. أما التفسير الوظيفي لها فيسترشد بدلالتها في التوراة في سفر الأمثال (الأصحاح ٢٢، ٢٥) حيث ترمز العصا لصحة الإيمان والتدين.

والتفسير المادي للعين هو أنها رمز جنسي مؤنث. وقد تكون رمزاً

جنسياً مذكراً فيرمز فقء العين في الحلم للأخطاء. أما التفسير الوظيفي للعين فيسترشد بتفسير ابن سيرين الذي يقول: "أما العين فدين الرجل وبصيرته التي يبصر بها الهدى والضلالة." ص ٦٢.

ولا حاجة بنا إلى تعديد ذكر أمثلة للتأويل المادي (أي الجنسي) والتأويل الوظيفي للرموز في هذا التمهيد، فالكتاب حافل بالأمثلة ويدور كله حول فكرة محورية هي الموازنة بين الرموز المادية والرموز الوظيفية؛ وبين التفسيرات الحديثة والتفسيرات الشعبية القديمة للأحلام النموذجية، بحيث يشكل تحليل هذه الأحلام في مجموعها منهجاً محدداً واضح المعالم.

ونستخدم في تفسير الأحلام النموذجية طريقة التحليل الوظيفي التي تسترشد بدلالات الرموز في التفسيرات الشعبية القديمة وفي الأديان وفي التراث الثقافي والميثولوجي. والتفسير الوظيفي –بهذا المعنى– يختلف عن التفسير الوظيفي كما يستخدمه شتيكل الذي يرى أن الحلم يكشف عن طبيعة الصراع العقلي للعصابي أي (للمريض النفسي) ويتبين أن لكل مرض نفسي أحلام ذات طابع خاص تنم عليه. كما يكشف الحلم الأول بصفة خاصة، والأحلام التالية أثناء العلاج النفسي عن موقف العصابي من مرضه النفسي، وموقفه من المحلل ومن عملية التحليل ومن الطبيعي أن تترك هذه العملية المهمة، عملية العلاج بالتحليل النفسي أثراً مهماً في أحلام العصابي. وجميع الأحلام التي قام شتيكل بتحليلها في كتابه "تفسير الأحلام" لحالات عصابية. ولسنا هنا بإزاء أحلام مرض نفسيين، ولا بصدد

أحلام التحليل أو العلاج النفسي، وإنما نتناول أحلام أشخاص عاديين بل نتناول أحلاماً مشهورة يحلم بها كثير من الناس بطريقة متشابهة. فمعنى التفسير الوظيفي عند شتيكل هو دلالة الحلم على العصاب. أما معنى التفسير الوظيفي كما نستخدمه في هذا الكتاب فهو دلالة الحلم في التفسيرات القديمة، والعلاقة بين رموزه ودلالاتها في الأديان والأساطير والطقوس.... "الوظيفة" عند شتيكل، هي العلاقة بالعصاب. أما "الوظيفة" عندنا فهي العلاقة بالتراث الميثولوجي.

وعلى ذلك فسيجد القارئ اتجاهات ثلاث تبرز بوضوح من بين تفسيرات الأحلام النموذجية الواردة في هذا الكتاب، أولها، التفسير المادي أو الجنسي، كما يستخدمه فرويد وأنصار التحليل النفسي– أو كما يعرفون بين مشاهير مفسري الأحلام، بأنصار "مدرسة فينا" وثانيها: التفسير الوظيفي الذي يعني بدلالة الحلم على العصاب أو المرض النفسي، كما يستخدمه شتيكل وأنصار "مدرسة زيورخ" وثالثها: التفسير الوظيفي الذي يسترشد بمدلولات الرموز في المجالات الثقافية القديمة مجالات الأنثروبولوجيا والميثولوجيا والفولكلور، كما نستخدمه في هذا الكتاب، وكما استخدمناه من قبل في كتاب "الكابوس" وبين هذه الاتجاهات الثلاث تداخل: فأصحاب التحليل النفسي، مع عنايتهم بالتأويلات الجنسية للأحلام بصفة خاصة، يدركون ولا شك أن للأحلام علاقة بالعصاب. وأصحاب مدرسة زيورخ، مع عنايتهم بإيجاد العلاقة بين الأحلام والعصاب، لا يغفلون عن الدلالات الجنسية للأحلام. ويسترشد

أنصار كلا المدرستين مدرسة فينا ومدرسة زيورخ بمدلولات الرموز في المجالات الثقافية- الغربية- القديمة... ولكنهم لم يعرفوا ابن سيرين!؟ وتفسيره تراث شرقي ليس له في الغرب نظير.

والمثال التالي -وهو لدلالة الغرفة في الحلم- يوضح هذه الاتجاهات الثلاث: التفسير المادي للغرفة في الحلم، تفسير جنسي، فهي رمز جنسي مؤثر أو رمز للرحم. التفسير الوظيفي لشتيكل يعتبر الغرفة رمزاً للعقل، في أحلام العصابيين، فتظهر الغرفة في أحلامهم معتمة أو سيئة الترتيب.

التفسير الوظيفي كما نستخدمه في هذا الكتاب يسترشد بمدلولات هذا الرمز القديمة في تفسير ابن سيرين الذي يقول: "تدل الغرفة على أمن الخائف لقوله تعالى، وهم في الغرفات آمنون، وتدل على الجنة، لقوله تعالى، أولئك يجزون الغرفة بما صبروا" ص ١٩٢.

الفصل الأول

حلم العري

قد يرى النائم أنه يسير في الشارع عارياً كما ولدته أمه. ويغمره شعور بالخجل والقلق والضيق أثناء الحلم، وهو يحاول أن يستتر ويتوارى عن عيون الناس. ويتخذ هذا الحلم صوراً مختلفة، فقد يكون العري تاماً أو جزئياً يسير الحالم فيه بملابسه الداخلية، وقد يبدو على الحالم عدم المبالاة والاكتراث، أو يستولي عليه الشعور بالخجل والحياء. وقد ينجح الحالم في أن يستر نفسه، وقد لا يستطيع الحراك، ولا يتمكن من أن يغير من أمره. وقد لا يبدو على الناس أنهم يلاحظون عريه. فيمر بينهم واجفاً واجلاً، وهم عنه لاهون.

إن راوي هذا الحلم غالباً ما يقال له: "لا بد وأنك كنت نائماً مكشوفاً" ومن الغريب أن ظاهر هذا القول الذي شاع على الألسن لا يخلو من الصحة بالنسبة لحلم العري. فقد أصبحت ملابس النوم عند النساء من الرقة والشفافية بحيث لا يستغرب أن تثير هذا اللون من الأحلام أو تمهد لها. وقد يثير هذا الحلم منبه داخلي كاضطراب القلب أو اختلال الدورة الدموية. حقاً إن المنبهات الخارجية والمنبهات الداخلية قد تمهد لمثل هذا الحلم، ولكنها لا تكفي وحدها للتعبير عن مضمونه ولا تشرح مغزاه وموضوعه.

بدأ فرويد الفصل الخاص بالأحلام النموذجية في كتابه "تفسير

الأحلام" بأحلام العري. وهو يفسر هذه الأحلام بقوله إنها تخفي رغبة طفلة مكبوتة في عرض الجسم عارياً. لذلك يعتبر أحلام العري من أحلام العرض "**exhibition dreams**" ويرى أن الرغبة في التحرر من الملابس كالرغبة في العودة إلى الفردوس، حينما كان الإنسان لا يعرف الخجل. ويجد فرويد نظائر لهذا الحلم في القصص الخرافية مثل قصة: سندريلا وقصة "ملابس الإمبراطور الجديدة" للكاتب الدانمركي هانز كاريستيان أندرسون. وتتلخص في أن اثنين من الأفاقين احتالا على الإمبراطور ونسجا له رداء غالياً. وهذا الرداء خفي لا يراه إلا الأتقياء الصالحين.. وخرج الإمبراطور يختال في هذا الرداء الخفي.. وأظهر المنافقون إعجابهم بالرداء وتغاضوا عن عريه.. ومثل هذا الإمبراطور كمثل العاري في الحلم، لا يلحظ الناس عريه. وإذا كان الناس في الحلم لا يبالون بعري الحالم، فإن الحالم يعاني من عريه الخجل والحياء. وهذا الخجل والحياء وليد الصراع بين الرغبة المكبوتة والقوى الكابتة في العقل. فإذا كان العري في الحلم تعبيراً عن الرغبة في عرض الجسم عارياً، فإن الخجل والقلق الذي يعانيه الحالم يعتبر من عمل القوى الكابتة في العقل، أي من عمل الضمير.

وهناك تفسير آخر لحلم العري هو أنه يعبر عن الشعور بالذنب أو الشعور بالقصور، فكون الحالم عارياً يكشف عن سوءاته وقصوره، بجعله محل انتقاد الناس، ويجعله يخجل من نفسه. ومن أمثلة ذلك الحلم التالي وهو لطالب جامعي في الرابعة والعشرين من عمره، يقول:

"حلمت أني أسير في طريقي إلى الجامعة، وفجأة تبينت أني عار، وغمرني شعور بالخجل والحرج، وفكرت في الاختباء، ثم ناولتني سيدة من معارفي معطفها."

يعاني هذا الشاب من مازروشية طفلية تجعله يتوق إلى أن تذله امرأ. والمازوشية هي التطلع إلى معاناة القسوة من المحبوب وارتضاء الإذلال على يديه. فحرى بهذا الشاب أن يخجل، فلو عرف الناس عنه هذا الداء لاحتقروه، وكانت السيدة التي ناولت الشاب في الحلم معطفها تلعب دوراً هاماً في خيالاته.

ونعتقد أن مغزى حلم العري يختلف من حالم إلى حالم. فرؤية الشخص نفسه في الحلم عارياً، يختلف مدلولها عن رؤية غيره عارياً. لذلك ينبغي تفسير كل حلم تفسيراً قائماً بذاته بحسب موضوع الحلم وظروف الحالم. ومن أمثلة رؤية شخص آخر في الحلم عارياً، الحلم التالي وهو لشاب مختال يتملكه حب الظهور، ويرجع ذلك –كما كشف حلمه– عن تثبيت حبه لأخته، يقول:

"رأيت راهبة شرعت تخلع ملابسها حتى وقفت عارية تماماً أمام عيني".

ويجمع هذا الحلم بين التحريم والإغراء، والراهبة في الحلم ترمز لأخت الحالم. فأخته من المحارم مثلها كمثل الراهبة.

وهناك تفسير ثالث لحلم العري. فمن المعروف أن الأحلام الأولى التي يأتي بها المريض النفسي للمعالج في بدء العلاج بالتحليل النفسي،

تكشف عن موقف الحالم من المحلل ومن عملية التحليل. والحلم التالي وهو لفتاة في سن السادسة عشرة من عمرها يبين ذلك بوضوح. وهي تروي الحلم للطبيب المحلل فتقول:

"وصلت إلى عيادتك في أول جلسة من جلسات التحليل، فطلبت مني أن أخلع ملابسي. فخلعت بعضها. ولكنك طلبت مني أن أخلع غيرها. فترددت، ثم خلعت ملابسي كلها حتى صرت عارية. وكنت تجلس في مقعد ليس في مواجهتي."

هذا الحلم أتت به الحالمة في الجلسة الثانية أثناء التحليل. وكان الطبيب قد ذكر لها في الجلسة الأولى أن الصراحة التامة شرط ضروري في العلاج النفسي، وأنها لا بد أن تصارحه بكل شيء. وهي في أول هذا الحلم تبوح للمعالج النفسي بجزء من الحقيقة. ولكنه يصر على معرفة الحقيقة كلها –عارية– وينم ترددها في خلع ملابسها عن مقاومة في الإفضاء إليه بسريرة نفسها. ثم يشير خلها لكافة ملابسها إلى أن ستصارح طبيبها بكل شيء دون حياء أو خجل. فهذا الحلم يصور "تصويراً مسرحياً" أهم ناحية في عملية التحليل النفسي وهي "التحويل **transference**" القائم على الثقة والتجاوب بين المريض والمحلل.

وعملية "التصوير المسرحي" **Dramatization** عبارة عن حيلة لا شعورية سنصادفها كثيراً في الأحلام النموذجية الذاتية. وهذه العملية تمثل بها الأفكار المجردة الكامنة في صور وحوادث في المضمون الصريح للحلم. وأقرب شيء يوضح هذه الحيلة هو الباليه فالرقصات

والحركات تعبر عن معاني، وقد تروي قصة نتتبعها ونفهمها ونتذوقها دون أن نسمع عنها كلمة تقال. وتأويلنا لرقصات الباليه، يقابل تفسير الأوضاع التي يرى الحالم فيها نفسه، سواء أكان عرياناً أو حافياً أو طائراً أو ساقطاً من شاهق أو صاعداً أو مرتحلاً...

وتأويل الحلم السالف الذكر بأنه تعبير عن خجل الحالمة من الإفضاء إلى المحلل بسريرة نفسها، وإشفاقها من الافتضاح- هذا التأويل الذي يمثل أحدث ما وصل إليه التحليل النفسي، لم يكن غريباً ولا خافياً على ابن سيرين، فهو يعبر العري في الحلم بأنه افتضاح وهتك للسر. فيقول: "من رأى كأنه عريان في محفل فإنه يفتضح." ص ٢٧٤ وهو هنا يشير إلى المستقبل. ولكن الدلالة التنبئوية هي ذاتها الدلالة اللاشعورية.

الفصل الثاني

حلم الحفاء

هل سبق لك أن حلمت بأنك تذهب إلى مقر عملك حافياً؟! هذا هو الحلم الذي أقبل عليّ به ذات يوم زميل من زملائنا المدرسين طالباً مني تفسيره. وكان هذا الحلم ينزع إلى التكرار. وفي كل مرة يحلم بأنه يذهب إلى مدرسته ويدخل الفصل وهو حافي القدمين، الأمر الذي كان يسبب له كثيراً من الضيق والانزعاج.

وحلم الحفاء ذائع الانتشار. وقد يكون من بين القراء من رآه وعانى منه القلق والضيق. ويتميز هذا الحلم بظاهرة غريبة وهي أنه على الرغم من شعور الحالم بالقلق والحرج من جراء حفائه، فإن الأشخاص الآخرين في الحلم الذين يشاهدونه لا يبدو عليهم الاكتراث، وكأنهم لا يلحظون حفاءه.

وحلم الحفاء وإن كان ذائع الانتشار، إلا أنه يلوح أن هناك طبقة معينة لا تحلم بمثل هذا الحلم، وهم طبقة الحفاة في حياتهم الواقعية! فالفلاح مثلاً الذي اعتاد السير حافياً، والزنوج العراة تقريباً... من غير الممكن أن ينتاب أحدهم مثل هذا الحلم. ومعنى هذا أنه، حتى في الأحلام، ينبغي أن ننظر إلى الشخصية في علاقتها بالبيئة الاجتماعية.

ومن الأمثلة الطريفة لحلم الحفاء الحلم التالي، ترويه صاحبته وهي

سيدة في نحو الثلاثين من عمرها: "رأيت فيما يرى النائم أني في حفل حافل يضم علية القوم من الأجانب رجالاً ونساء. وكلهم في ملابس السهرة الفاخرة. والحفل في قاعة فسيحة باهرة الضوء يحيط بها أعمدة من رخام. وجدت نفسي في هذا الحفل وكأني ضيفة الشرف. وكنت أرتدي ثوباً طويلاً للسهرة أبيض اللون. وكنت محط الأنظار، وموضع حفاوة وإعجاب. وتصدرت القاعة. وأقبل عليّ جميع من في الحفل يرحبون بي ويحيونني وكنت أرد عليهم تحياتهم بلغاتهم. وكلما تقدم إليّ أحدهم محيياً، أقف وأحييه، أو أصافحه وأنا جالسة. إلا أني في كلتا الحالتين وطوال الحلم كنت أحرص على أن يغطي طرف ثوبي قدمي لأنهما كانتا عاريتين، وبدون حذاء. وعلى الرغم من أنه لم يبد على من حولي أنهم يلحظون ذلك، إلا أنني كنت من حفاء قدمي في شدة الضيق والحيرة والخجل. وحرصت طوال الحلم على ألا يكتشف الحاضرون ذاك، فجمدت في مكاني. وبينما كان المدعوون يرقصون على أنغام الفالس، لزمت مكاني ولم أبرحه. وأخفيت قدمي بين المقعد وذيل ثوبي الطويل... واستيقظت وأنا أعجب ماذا دهاني حتى أذهب إلى هذا الحفل الرائع حافية القدمين!؟"

ويقبل حلم الحفاء التأويل على مذاهب شتى. فقد يمهد لهذا الحلم منبه حسي، كأن ينكشف الغطاء على القدمين أثناء النوم. غير أن المنبه الخارجي إذا نجح في إثارة الحلم، فهو لا يفسر مضمونه كله، وما يصحبه من صور وأفكار وحوادث. فالحلم ظاهرة نفسية، وينبغي تفسيره

تفسيراً خاصاً به. ويكشف تحليله عن معان تفوق في دلالتها المعنى الذي ينطوي عليه مجرد النظر إلى طبيعة المنبه الحسي.

وإذا ما اصطنعنا طريقة كل من فرويد، وأدلر، ويونج في تفسير هذا الحلم، جاء هذا المثال الخاص نموذجاً موضحاً للطريقة التي يتبعها ويدعو إليها كل علم من هؤلاء الأعلام في تفسير الأحلام.

* * *

يرى فرويد أن الحلم يكشف عن تحقيق رغبة. وفي هذا الحلم يبدو تحقيق أكثر من رغبة: ففيه تحقيق للرغبة في الاختلاف إلىالحفلات الساهرة، والرغبة في التخاطب بلغات أجنبية، والرغبة في ارتداء فساتين السهرة. ولم يسبق للحالمة –كما علمت منها بالتداعي الحر– أن ذهبت إلى مثل هذا الحفل. وصورته في الحلم مأخوذة عما شاهدته في السينما. كما أنها لا تعرف لغات أجنبية. غير أن هذه الرغبات تبدو كتفاصيل ثانوية في الحلم. فالعنصر الحرج الذي يحتاج إلى تأويل هو الحفاء.

ذكرنا في الفصل السابق أن العري في الحلم قد لا يكون كاملاً. فقد يظهر الحالم بملابسه الداخلية.. وتبدو الحالمة في قميص النوم.. الأمر الذي يدعونا إلى اعتبار الحفاء جزءاً من العري؛ وبذلك يمكن تطبيق تفسير فرويد لحلم العري على حلم الحفاء. وقد عرفنا أن فرويد يرجع أصول حلم العري إلى ذكريات الطفولة الأولى، والرغبة في عرض الجسم أو أجزاء منه عارية. فمن الجائز أن يكون حلم الحفاء كحلم العري، كلاهما يكشف عن رغبة طفلية مكبوتة في التخفف من الملابس

والتحرر من قيود التقاليد، والعودة إلى بساطة الطفولة وسذاجتها.

غير أن هذا التفسير لا يأخذ في الاعتبار التناقض البين بين فستان السهرة وحفاء القدمين. أي أنه لا يتناول الشخصية بأكملها. ولا يتناول الشخصية في علاقتها بالبيئة الاجتماعية. وحيث إن الملابس ظاهرة اجتماعية، فالحفاء إشارة إلى عدم اللياقة أو إلى ناحية نقص. كما أننا نجد صعوبة في قبول فكرة كون الحفاء في الحلم ينم عن رغبة فيه. فالحفاء أمر مكروه في اليقظة. ويصحبه قلق وجزع في الحلم.

* * *

وإذا اصطنعنا طريقة أدلر، بدا حلم الحفاء معبراً بطريقة مجسمة عن "عقدة النقص". فالمدرس الذي يدخل الفصل في الحلم حافياً، والموظف الذي يذهب إلى مقر عمله في الحلم حافياً، والسيدة التي تذهب إلى حفلة ساهرة كبرى وأقدامها حافية؛ تصور أحلامهم هذه "تصويراً مسرحياً" شعورهم بالقصور.

وينادي أدلر بضرورة عدم الفصل بين حياة الحلم وحياة اليقظة. وبأن الشخصية كلها تنعكس في الأحلام. ويرى أن الغاية من الحلم تأييد أسلوب الحياة.

ولكي نوضح كيف ينم الحلم الذي أوردناه بالتفصيل في مستهل هذا الفصل عن طابع الشخصية كلها، وكيف يتفق مع النمط الذي تسير عليه الحياة النفسية للحالمة، نعود إلى تاريخ حياتها: نشأت صاحبة

الحلم نشأة ريفية متواضعة. ثم استطاعت بجمالها وذكائها، ونتيجة زواجها مرتين، أن تقفز بخطوات سريعة واسعة سلم الترقي الاجتماعي، حتى وصلت الآن إلى منزلة تحسد عليها. ولا يمكن أن ينبئ حاضرها عن ماضيها، اللهم إلا في هذا الحلم، الذي يعبر عن طموحها وتطلعها إلى أن تكون "ضيفة الشرف" في المجتمعات.

ويذكرها هذا الحلم كذلك بتواضع نشأتها ويشعرها بالنقص. فحملها مرآة لما في نفسها من شعور بالقصور ورغبة في التعويض. حلمها تأييد لأسلوب حياتها. فحياتها كثوبها، بيضاء ناصعة، لا يشوبها شائبة، لولا أن أقدامها حافية. وفي حفائها إشارة رمزية إلى رقة حال أصلها، و"تصوير مسرحي" لدافع من أهم دوافع حياتها.

والحلم التالي يعبر عن نفس هذه المعاني تقريباً بشكل واضح: "حلمت أني في طريقي إلى محل بقالة... وهو محل كبير اعتدنا أن نشتري منه التموين في أول كل شهر. وعندما اقتربت من المحل شعرت أني حافية. فخجلت من نفسي وهممت بالرجوع. ولكن صاحب المحل رآني. فدخلت ووقفت بحيث لا يرى العمال ولا صاحب المحل قدمي الحافيتين ثم قلت سأمر عليكم مرة ثانية وأنا راجعة. ولم أشتر شيئاً. وتقهقرت بحذر وخرجت من المحل، وعدت مسرعة إلى المنزل."

صاحبة هذا الحلم زوجة موظف اعتادت شراء تموين البيت جملة بالنقد في أول كل شهر من محال البقالة هذا. ومفتاح تأويل هذا الحلم هو تاريخ حدوثه وهو ليلة ٢٩ مايو ١٩٥٦. ومن الطبيعي أن يكون

التموين في آخر الشهر قد نضب. والحلم يعبر عن رغبتها في شراء التموين. وهذا غير ممكن في ٢٩ منه! وفي ذهابها إلى هذا المحل حافية، وعدم شرائها شيئاً تصوير مسرحي لضيق ذات اليد؛ وإشارة رمزية بليغة إلى حالة الإفلاس التي تعاني منها عائلة الموظف في آخر الشهر.

* * *

وإذا اصطنعنا طريقة يونج في تفسير حلم الحفاء، كان علينا أن نأخذ في الاعتبار فكرته الجوهرية عن "الصور الأولية البدائية– Archetypes" التي يحتوي عليها اللاشعور الجمعي. والصور الأولية هي انطباعات من خبرات الجنس ترسبت في نفوسنا وتوارثناها على مر الأجيال؛ ونماذج قديمة للتعبير درج عليها النوع البشري في ارتقائه. وتظهر هذه الصور كرموز متشابهة من حين إلى آخر بين شعوب مختلفة وفي عصور مختلفة. وتبدو بصورة متشابهة في الأساطير والأديان كما تبدو في الأحلام. وهذا التشابه في رموز الأساطير والأديان والأحلام بين شعوب متباعدة وفي عصور مختلفة، هو أكبر دليل عند يونج على وجود "اللاشعور الجمعي" وهو فطري موروث يشترك فيه الناس جميعاً. وهو طبقة أبعد غوراً في أعماق النفس من اللاشعور الشخصي أو الفردي.

والبحث عن نظائر للأحلام في الأساطير والأديان، ركن هام من الأركان التي تقوم عليها طريقة يونج في تفسير الأحلام. والأسطورة تلقي ضوءاً على معنى الحلم، لأن الأسطورة والحلم كلاهما من نتاج اللاشعور. ويقول يونج إن الأسطورة هي "حلم الشعب" وتحليل الأحلام يحتاج إلى معرفة بالأساطير

والأديان. فإذا ما اصطنعنا طريقة يونج في تفسير حلم الحفاء، كان البحث عن نظائر لهذا الحلم في الأديان والأساطير متمشياً مع منهجه.

استلفت نظرنا وجه الشبه الكبير بين حلم الحفاء، وحلم الملك بختنصر. حلم هذا الملك بتمثال رأسه من ذهب وأقدامه من طين. وقد ورد هذا الحلم في التوراة، في سفر دانيال، الأصحاح الثاني. وفيما يلي نصه: "*فكنت أنت الملك ترى وإذ تمثال واحد جسيم وكان التمثال عظيماً ورفيع القامة واقفاً قبالك ومنظره مخوفاً* رأس هذا التمثال هو من ذهب إبريز والصدر والذراعان من فضة والبطن والفخذان من نحاس* والساقان من حديد والقدمان قسمة منهما من حديد وقسمة من خزف*".

"والأقدام من خزف- **The Feet of Clay**" اصطلاح شائع في الأدب الانجليزي، يشير إلى الخصائص الدنيا، أو إلى المظهر البراق الزائف الذي يقوم على أساس هش.

وقد يكون الحفاء في الحلم، كأقدام التمثال من طين؛ كلاهما من النماذج الأولية البدائية ومن نتاج اللاشعور الجمعي.

* * *

أما التأويل الشعبي لحلم الحفاء، فيبعث على التطير، ودلالته العوز والفاقة. وفي تفسير ابن سيرين ص ٢٨٠ "هذه الرؤيا تدل على مصيبة في المرأة وطلاقها." ولا نميل إلى الاعتقاد بأن حلم الحفاء نذير. ولا هو مدعاة إلى التشاؤم من المستقبل. بل أولى به أن يستمد دلالته من

الماضي. فدوافع الحلم لا شعورية. وفي هذه الدوافع الداخلية تبدو الحتمية. أما المصادفة الحقيقية فتبدو في الحوادث الخارجية التي ليس إلى التنبؤ بها من سبيل، والتي قد تحدث أو لا تحدث في المستقبل.

وبعد، هل حلم الحفاء نتيجة لمنبه حسي؟

هل هو تعبير عن رغبة طفلية مكبوتة؟ (فرويد).

هل هو تعبير عن عقدة النقص؟ (أدلر).

هل هو من الصور الأولية البدائية؟ (يونج).

هل هو نذير سوء وباعث على التطير؟

إذا ما استبعدنا الاحتمالين الأول والأخير، تتبقى تفسيرات ثلاثة لفرويد، وأدلر، ويونج. ولا يمكننا أن نقطع برأي في أي هذه التفسيرات أصدق. فلا يوجد معيار ثابت ولا قاعدة ذهبية في تفسير الأحلام. ويبدو أن تفسير المثالين المذكورين في هذا الفصل على طريقة أدلر، أصلح من تفسيرهما على طريقة فرويد أو طريقة يونج. كما أن تفسير هذين المثالين على طريقة أدلر يتفق مع التفسير الشعبي، بعد استبعاد القيمة التنبئية له. والتفسير الشعبي التنبؤي هو العوز والفاقة. وقد تكون هذه الدلالة التنبئية هي ذاتها الدلالة اللاشعورية. بمعنى أنه: لا يحدث العوز والفاقة لمن حفى في الحلم، وإنما حفى في الحلم لخوفه من العوز والفاقة أو لشعوره بالنقص أو لضيق ذات اليد.

الفصل الثالث

حلم الطيران

الطيران في الحلم خبرة شيقة تجد فيها النفوس الحالمة لذة فائقة. ويتمنى الحالم الطائر أن يطول أمد حلمه لينعم فيه بالتحرر والانطلاق والقدرة المطلقة التي لا يتوفر له مثلها في عالم الواقع. وكثيرون يستطيعون وصف شعورهم بدقة عندما يطيرون، ويصفون كيف يتحكمون في انسيابهم ويسيطرون على أجنحتهم. وقد يطيرون بغير جناح فيحلقون فوق الرؤوس أو ينطلقون إلى أبعد الآفاق... ولا يضع حداً لهذه المغامرات الليلة إلا الاستيقاظ، الذي يعيدهم بقسوة إلى الأرض في لمح البصر، وينبههم إلى غفلتهم. وتقول ماري أرنولد فورستر إن الحالم الطائر يكون مدركاً أثناء الحلم أنه يحلم، وإن من النسا من يستطيع أن يحلم هذا الحلم بإرادته فيستدعيه متى شاء.

وحلم الطيران من الأحلام النموذجية الشهيرة الواسعة الانتشار التي يحلم بها كثير من الناس بطريقة متشابهة. ويشترك حلم الطيران مع غيره من الأحلام النموذجية مثل حلم العري وحلم الحفاء في ظواهر ثلاث: أولها، أنه من الأحلام الذاتية، فذات الحالم هي التي تطير أو تمشي عارية أو حافية. وثانيها، أنه من ظواهر ما قبل الشعور[٣]، بدليل إدراك

([٣]) يميز فرويد ثلاث مراتب للحياة العقلية: ١- الشعور، ويشمل ذلك الجانب من الحياة العقلية الذي يكون في إدراك الفرد في لحظة ما. ٢- وما قبل الشعور، ويشمل ذلك الجانب

الحالم لحاله أثناء الحلم، أو إدراكه أن يحلم، ولأن هذه الأحلام لا تحدث أثناء النوم العميق بل تحدث قبيل الاستغراق في النوم أو قبيل الاستيقاظ. وثالثها، أن الحيلة اللاشعورية في كل حلم من هذه الأحلام النموذجية هي "التمثيل المسرحي".

شغل حلم الطيران أذهان الناس وأثار اهتمامهم وتطلعوا إلى معرفة مغزاه في كل مكان ومن قديم الزمان. لذلك أسهم معظم رجال التحليل النفسي في تفسيره، كل يؤوله حسب طريقته ومنهجه.

قد يكون للإحساسات الفسيولوجية -مثل حركة الرئتين في عملية التنفس أثناء النوم- دخل في إثارة هذا الحلم. وقد يستدعي حلم الطيران انطباعات منذ عهد الطفولة المبكرة. فيكرر الأحاسيس التي طربت لها نفس الطفل عند حمله وتدليله بين ذراعي والدته.

ويؤول فرويد الطيران في الحلم وفقاً لاتجاهه في تغليب الناحية الجنسية، فيقول في صراحة إن طيران الرجل في الحلم يحمل معنى الانتصاب بدليل أنه ينتهي أحياناً بالاحتلام. وطيران المرأة في الحلم يعبر عن اهتزاز شوقها وتحرق رغبتها... وقد يؤيد ذلك ما لوحظ من أن الأطفال دون العاشرة لا يطيرون في أحلامهم، وأن هذه الأحلام تكثر في فترة المراهقة وما بعدها.

من الحياة العقلية الذي لا يكون في إدراك الفرد أي في شعوره، ولكن يسهل استدعاءه إلى الشعور. ٣- واللاشعور، وهو أبعد مراتب الحياة العقلية غوراً، وأخطرها شأناً في توجيه التفكير والسلوك. ولا يمكن أن تصبح محتوياته شعورية إلا بالتحليل النفسي.

ويرى أدلر أن مفتاح تأويل أحلام الطيران هو الإحساسات والمشاعر التي تثيرها هذه الأحلام، فهي تبعث في النفس الأمل وترفع الروح المعنوية. ويؤول أدلر هذه الأحلام وفقاً لاتجاهه في تأكيد أهمية الشعور بالقصور والرغبة في التعويض. فالطيران في الحلم –في رأيه– يحقق هدف الطموح والتعالي ونشدان القوة، والرغبة في الارتقاء والتفوق والسيطرة، بدليل أن الحالم يفتخر على الناس في الحلم ويتباهى بقدرته على الطيران. وفي أحلام النساء يدل الطيران على التطلع إلى الاسترجال. ويقول أدلر إن هموم الحياة ومتاعبها ومشكلاتها تؤدي بالناس الذين يعانون من ظروف تعسة في العمل أو في الزواج... إلى الانطلاق في الأحلام والتحرر من القيود، والتحليق في آفاق تبعدهم عن همومهم ومشكلاتهم، وتشعرهم بالقدرة والهمة.

ويقول يونج إن حلم الطيران هو حلم البشرية من قديم الأزل، وإنه يكرر انطباعات ترسبت في نفوسنا وتوارثناها على مر الأجيال. وإذا أنعمنا النظر في تفسير يونج وجدنا أنه قريب من تفسير أدلر إذ يقول إن حلم الطيران في الحلم "تصوير مسرحي" للانطلاق والتحرر من القيود، وخطي العوائق والعقبات، والتخلص من متاعب الحياة الأرضية والتحليق في الآفاق الرحبة العلوية.

أما شتيكل فيرى في بعض أحلام الطيران رموزاً للموت. لأن الطيران معناه تعليق المصير، والتحليق بين السماء والأرض كالملائكة أو الشياطين.

ويعتبر كل تفسير من هذه التفسيرات -إلى حد ما- صحيحاً.. وعلى المفسر أن يلم بهذه الدلالات جميعها، وأن يختار لكل حلم التفسير المناسب، بحسب طبيعة موضوع الحلم وظروف الحالم.

ومن الطريف أن ابن سيرين أدرك هذه المعاني والدلالات جميعها فلم يغب عنه المغزى الجنسي للطيران في الحلم، فهو يقول: "فمن طار من سطح إلى سطح فإنه يستبدل بامرأته امرأة أخرى." وأدرك كذلك مغزى الطموح والتطلع إلى الارتقاء والرفعة، فيقول: "فإن طار من أسفل إلى أعلى بغير جناح نال أمنيته وارتفع بقدر ما علا." وأخيراً أدرك مغزى الموت في حلم الطيران، فيقول: "فإن رأى كأنه طار حتى توارى في جو السماء ولم يرجع فإنه يموت." ص ٢٨٠.

أدرك ابن سيرين بفراسته كل هذه المعاني، وأضفى عليها قيمة تنبؤ بالمستقبل. فالدلالات التنبئية التي يقول بها ابن سيرين، هي ذاتها الدلالات اللاشعورية التي يقول بها رجال التحليل النفسي، غير أن تفسير ابن سيرين للأحلام يتكهن بمستقبل الحالم في عالم الواقع في حين أن التفسير التحليلي كشف عن الواقع النفسي الراهن وما يتضمنه من آثار تخلفت عن ماضي الحالم وماضي البشرية كلها. (حسب رأي يونج).

الفصل الرابع

حلم الامتحان

يحلم كثير من الناس بأنهم يؤدون الامتحان، وينتابهم أثناء ذلك القلق والضيق. ويتخذ حلم الامتحان صورة متشابهة عند مختلف الناس، ويكون دائماً مصحوباً بالشعور بالمحنة. وتأخذ كبار السن الدهشة حين يجدون أنفسهم في موقف الامتحان بعد أن بلغوا من العمر عتيا.. فهذا مدرس نابه حلم بأنه يقرأ ورقة الأسئلة فيجدها في غاية السهولة. ولكنه لا يدري كيف مضى الوقت بسرعة دون أن يخط سطراً واحداً في ورقة الإجابة؛ فأحسن بالقلق والجزع اللذين بلغا الذروة حين تسلم منه الملاحظ ورقته بيضاء، فاستيقظ وهو في شدة الانزعاج، وحمد الله على أنه لم يكن سوى حلم!. وهذا طبيب بارع يمارس مهنته بنجاح منذ سنوات، يحلم بأن عليه أن يعيد امتحان البكالوريوس مرة أخرى. فكيف يمتحن وهو فعلاً طبيب!

ويمتاز حلم الامتحان بظاهرة غريبة –أيدها معظم الذين تناولوا هذا الحلم بالدراسة– وهو أنه يكرر الامتحان في المادة أو المواد التي سبق أن اجتازها الحالم بنجاح، وقل أن يحلم الحالم بالمواد التي رسب فيها. ويوضح هذه الظاهرة الحلم التالي:

"حلمت أني في امتحان حساب بإحدى اللجان، وعندما انتهيت منه سلمت ورقة الإجابة للملاحظ؛ ثم عرفت أني أخطأت في مسألة، فطلبت من الملاحظ أن يرد لي ورقة الإجابة بحجة أنني نسيت شيئاً. ثم

طلبت من جاري أن يحل لي المسألة، فحلها فعلاً. ولكن الوقت انتهى وخرج الملاحظ دون أن يأخذ ورقتي، فخرجت أعدو وراءه، ولكني لم أدركه، فانزعجت وكنت في غاية الارتباك. وأخذت أبحث عنه، وكنت أنظر في وجوه الناس جميعاً لعلي أجده.. واسمه مخلص."

صاحب هذا الحلم طالب بالسنة الثانية بمعهد المعلمين الخاص في قسم الآداب، وكان قد رسب سنتين في اللغة الانجليزية. وهو في هذا الحلم يمتحن في الحساب. وهذا يؤيد ما لوحظ من أن حلم الامتحان يكون في المادة التي سبق للحالم النجاح فيها. وأهم مضمون لهذا الحلم هو معاناة القلق والجزع أثناء الامتحان وبعده، وهو قلق لا داعي له حيث أنه سبق له أن أجتاز الامتحان في الحساب، ولم يكن لقلقه وقتئذ ما يبرره.. ويعبر هذا الحلم كذلك عن رعونته وتسرعه، كما يبين أن الغش لا يفيد. ولقد كان هذا الطالب دائم التذمر والشكوى من عدم إخلاص أهله والناس له –كما علمت منه أثناء التداعي الحر– وهو في نهاية هذا الحلم يفتش في وجوه الناس بحثاً عن "مخلص" فلا يجد!

وإذا كان حلم الامتحان متشابهاً تقريباً في شكله عند مختلف الأفراد، فإن مغزاه يختلف من شخص إلى آخر.. ويقبل حلم الامتحان ثلاثة تفسيرات. التفسير الأول: كان مفتاح تأويل حلم الامتحان ما لوحظ من أن الامتحان في الحلم يكون في المادة التي سبق أن أجتازها الحالم بنجاح، لا في المواد أو الامتحانات التي رسب فيها. فالدافع إلى حلم الامتحان وجود مشكلة تواجه الشخص، أو مأزق يريد الخلاص منه، أو

موقف يتقرر فيه مصيره، أو مسئولية ملقاة على عاتقه، أو مهمة يؤدي الفشل فيها إلى موقف شائن له، فيجتاز في الحلم محنة الامتحان في مادة سبق له أن نجح فيها، ويعاني أثناء ذلك القلق. ووظيفة حلم الامتحان أن يبين للحالم أن قلقه ليس له ما يبرره فهو يهون على الحالم المهمة أو المشكلة التي يواجهها، ويعمل على تهدئة خاطره، وجلب الراحة إلى قلبه. فهو يكرر القلق الذي سبق أن عاناه قبيل الامتحان، الذي أجتازه بنجاح– أي القلق الذي لم يعد له في الواقع ما يبرره.

التفسير الثاني: قد يعبر حلم الامتحان عند العصابيين (المرضى النفسيين) أثناء علاجهم بالتحليل النفسي عن موقفهم من المحلل ومن عملية التحليل، ومن أمثلة ذلك الحلم التالي:

"حلمت أني أقف أمام لجنة الامتحان عارياً إلا من قميصي. وشعرت عندئذ بقلق شديد!"[٤].

ويوضح هذا الحلم القصير ميكانيزم "التكثيف **Condensation**" وهو حيلة لا شعورية معناها تجميع أشتات من الأفكار الكامنة والتعبير عنها في صورة مركبة، كما يحدث حين تكثف العدسة ضوء الشمس في بؤرة. فهذا الحلم يجمع بين خوف الحالم من الظهور أمام الناس –وهو مرضه النفسي– وخوفه من الامتحان، وموقفه من المحلل أثناء عملية التحليل النفسي، في صورة رمزية واحدة مفعمة بالمعنى.

---

(٤) S. Lowy: Foundations of Dream- Interpretation, Kegan Paul, ١٩٤٦, p. ١٩٢.

التفسير الثالث: وقد يخفى حلم الامتحان مغزى جنسياً، ويكون القلق الذي يصحبه نتيجة الرهبة من موقف تمتحن فيه رجولة الحالم، أو نتيجة إشفاقه من الفشل عند زواجه، وبذلك يكون المضمون الجنسي الكامن لحلم الامتحان هو الخوف من الاختبار الجنسي. ويوضح هذا المعنى الحلم التالي[٥]، وهو لرجل في نحو الأربعين من عمره، يقول:

"حلمت أني أؤدي امتحاناً في الطبيعة. وكنت مرتبكاً وواثقاً من أني سأفشل فيه".

وهنا قاطعه المحلل على الفور قائلاً له "هل أنت عنين؟" فأبدى الرجل دهشته، لأن هذه هي طبيعته التي لم يكن قد أفضى بها بعد إلى المحلل. فالعنة هي الداء الذي يشكو منه، والذي ينشد الخلاص منه عن طريق العلاج النفسي. ولا غرابة في أن يشعر الحالم بالخوف وعدم الثقة حين تمتحن طبيعته. وكان حدس المحلل ثاقباً.

وحين قرأت هذا التفسير الملهم، أدركت أنه قد فاتني مغزى آخر لحلم الطالب الذي رأى فيه أنه يمتحن في السنة النهائية في الحساب. فالامتحان النهائي في الحساب قد يكون يوم الحساب في الآخرة أي يوم الدين! وتؤيد هذا المعنى ظروف الحالم، ووقائع الحلم، والقلق الذي عاناه من جرائه. فلقد كان هذا الطالب شديد التمسك بدينه. وهو يطلب لنفسه الخلاص في هذا الحلم، فيفتش في وجوه الناس بحثاً عن مخلص. كما أنه يستعين في الحلم بزميله، مع علمه بأن يوم الحساب لا

---

(٥) E. Gutheil: The Handbook of Dream- Analysis, p. ٣٧٨.

ينفع فيه شفيع ولا نصيره. "وما أدراك ما يوم الدين* يوم لا تملك نفسي لنفس شيئاً* والأمر يومئذ لله*".

الفصل الخامس

النظر في المرآة

طالب جامعي نوبي يذكر الحلم التالي منذ أن كان تلميذاً بالمدرسة الابتدائية. فيقول: "رأيت نفسي في المرأة وقد نما شاربي ونبتت لحيتي."

علمت بالتداعي الحر أن هذا الطالب كان من سواقط القيد. ثم قيد اسمه في شهادة الميلاد بعد ميلاده بنحو عامين. وكان الناس يعاملونه على أساس شهادة الميلاد، بينما هو في الواقع أكبر من سنه المقيد. كما كان يضيق من وضعه بين تلاميذ أصغر منه سناً في الفصل. ويحقق هذا الحلم أهم دافع سيطر على تفكيره وقتئذ وهو تطلعه إلى الرجولة ورغبته في أن يعامل كشخص ناضج.

ويعتقد العامة أن رؤية المرء نفسه في المرآة في الحلم فأل سيئ، ودلالتها المرض أو الموت. وهذه الدلالة الشعبية دلالة قديمة ذائعة الانتشار. وكانت معروفة منذ أيام الفراعنة. فقد جاء في الكتاب المصري الحقيقي للأحلام عند قدماء المصريين[٦] "أن رؤية المرء نفسه في المرآة فال سيئ، ومعناه أنه سيتزوج مرة أخرى." وانتقل التشاؤم من هذا الحلم من قدماء المصريين إلى قدماء اليونانيين، فبلغ تطيرهم من هذا الحلم

---

(٦) انظر كتاب: "ديانة قدماء المصريين" تاليف أدولف إرمان وترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر. ص ٣٤٨.

ذروته. ففي أرطميدورس: "رؤية المرء نفسه في المرآة، تنذر بموته" وانتقل التطير من هذا الحلم من قدماء اليونانيين إلى المسلمين في العصور الوسطى. فجاء في تفسير ابن سيرين: "لا خير في النظر في مرآة الفضة. فمن نظر فيها إلى وجهه ناله مكروه في جاهه" ص ٣٠٩، وفي موضع آخر يقول: "والنظر في المرآة للسلطان عزله عن سلطانه، ويرى نظيره مكانه" ص ٢٦٥، وعلى ذلك فدلالة النظر في المرآة شؤم أو مرض أو موت.

والعلاقة وثيقة بين التطير من هذا الحلم، واعتقاد بعض الجماعات البدائية أن خيال الإنسان في الماء أو ظله على الأرض هو روحه. وأن ما يحدث للظل أو الصورة المنعكسة، يحدث كذلك لذات صاحبها. فإن أصابت الصورة أو الخيال ضربة أو طعنة، ألمت بصاحبها نفسه وعاناها– كما في قصة "صورة دوريان جراي". وقد نسجت حول هذا الاعتقاد طائفة كبيرة من الأمور المحرمة (التابو) أفرد لها جيمس فريزر فصلاً كاملاً في كتابه المشهور "الغصن الذهبي" ومن أمثلتها اعتقاد الزنوج في أعالي النيل أن التمساح قد يخطف الروح أو الظل المنعكس على الماء، فيموت صاحبه. وتطير الهنود القدماء من النظر إلى صورتهم المنعكسة على صفحة الماء، خوفاً من أن يخطف شيطان الماء أرواحهم، ويتركهم بدون أرواح فيفنون. وخوف البدائي من سكان استراليا الأصليين من أن يقع على جسمه خيال حماته! ولهذه الاعتقادات نظائر في المجتمعات الحديثة. ومن ذلك حرص اللحاد على ألا يقع ظله على تابوت الميت

عند غلقه، أو على قبره عندما يوارى عليه التراب، وإذا مات أحد أفراد أسرة محافظة فإنهم يديرون المرايا ويجعلون وجهها إلى الحائط.. وذلك لأن أرواح الموتى ينسب إليها القدرة على خطف أرواح الأحياء، التي يغلق عليها مع الميت في التابوت أو القبر، أو التي تنعكس في المرايا.

ويعتبر يونج الخيال أو الظل "صورة أولية بدائية" من اللاشعور الجمعي وتنم عن الجانب الذي أغفله الحالم من شخصيته. وهو عادة الجانب البدائي أو الطفلي غير الناضج– وهو مستر هايد الذي يقابله في الشخصية الشعورية دكتور جيكل.

والتطير في رؤية المرء نفسه في المرآة أو على صفحة الماء واعتبارها نذير سوء، يذكرنا بنرجس الفتى الجميل في الأسطورة اليونانية، الذي هام حباً بصورته التي انعكست على صفحة الماء، وطال نظره إليها حتى أضناه عشقه لذاته فسقم ومات، وحولته الآلهة إلى الزهرة المعروفة باسمه.

و"النرجسية" أو عشق الذات مرحلة هامة في نمو الغريزة الجنسية؛ وفيها تلتمس اللذة الجنسية من "الأنا" أو الذات، ويؤدي انحسار طاقة "الليبيدو –أي الشهوة الجنسية" إلى الذات، وتراكم هذه الطاقة وعدم تعلقها بموضوعات خارجية إلى أنواع من الذهان– أي المرض العقلي.

فالعلاقة إذن وثيقة بين المرض العقلي؛ والأسطورة، والأمور المحرمة عند البدائيين، ودلالة الحلم القديمة في أرطميدورس وعند قدماء المصريين. وهذه العلاقة تبين أن الدلالة القديمة إذا كانت قد خلدت في التراث الميثولوجي، وتناقلتها الأجيال منذ أيام قدماء

المصريين وقدماء اليونان حتى الآن، فما ذلك إلا لأن لها وظيفة كما تنطوي على فراسة. فالمرض بوجه عام يؤدي بالمريض إلى النرجسية أي إلى زيادة تركيز اهتمامه بذاته. ورؤية المرء نفسه في المرآة في الحلم، يصح اعتبارها عرضاً **Symptom** يدل على تثبيت عند المرحلة النرجسية أو ارتداد إليها؛ كما يصح اعتبارها نذيراً. فالدلالة التنبئية القديمة هي ذاتها الدلالة اللاشعورية التي يقول بها رجال التحليل النفسي. وعلى ذلك فلن تمرض لأنك رأيت وجهك في المرآة في الحلم؛ وإنما رؤية وجهك في المرآة في الحلم من أعراض المرض.

الفصل السادس

الحلم بـ "الحرامي"

"إذا حلمت بـ (حرامي).. فسيحضر لك ضيف!".

يستوقف نظرنا في هذا الحلم التنبئ وتأويله الشعبي أمران: أولهما ما في الحلم من رمزية واضحة. وثانيهما القيمة التنبئية التي تضفيها العامة على الحلم باللص فيعتبرونه منبئاً بحضور ضيف.

وليس بمستغرب أن تحلم باللصوص، إذ كانت سيرتهم موضوعاً للسمر أثناء السهرة. وبذلك يستمد الحلم مادته مما كان يشغل الذهن قبيل النوم. وقد أدرك العامة ذلك بفطرتهم الصافية، فجاء في أمثلتهم: "اللي في بال أم الخير تحلم به بالليل." وإنما وجه الغرابة في الحلم باللص هو التأويل الشعبي له بأنه علامة على حضور ضيف.

التفسير المادي: يرجع فرويد[٧] أصول الحلم باللص إلى مرحلة الطفولة الأولى. ويرى أن اللص في الحلم رمز للأب الذي كثيراً ما كان يوقظ الطفل من نومه ليذهب به إلى دورة المياه حتى لا يبلل فراشه، أو الذي كان يرفع الغطاء عنه أثناء نومه ليتأكد من موضع يديه!

---

(٧) Freud: "The Interpretation of Dreams"; Allen & Unwin, ١٩٥٠, p. ٣٨٠.

ويروي أوتو فنيكل[٨] الحلم التالي، وهو لشخص له عدة أخوة أكبر منه: "خرجت للنزهة مع والدتي. وعند عودتنا إلى منزلنا، وجدت عصابة من اللصوص تحتل المنزل." واللصوص في هذا الحلم رمز لأخوته، الذين يشاركونه في حب والدته.

وإذا كان اللص في رأي فرويد رمزاً للأب، واللصوص في رأي فنيكل رمزاً للإخوة؛ فلم لا يكون اللص رمزاً للضيف؟

التفسير الوظيفي: يتفق مع التفسير الشعبي في دلالة الرمزية، ويختلف معه في القيمة التنبؤية. فاختيار الرمزية في التأويل الشعبي لم يأت وليد الصدفة، وإنما يبدو أن هناك نوعاً من الحتمية في اختيارها. فقد يكون اللص في الحلم رمزاً للضيف. وذلك لأن موقفنا من الضيف ينطوي على "تناقض وجداني" فالمبالغة في إظهار الكرم الحاتمي للضيف، والحفاوة والترحيب به في الظاهر، قد تكون "تعويضاً" عن نزعات الكراهية والتقتير المكبوتة. واللاشعور لا يغفل وجه الشبه بين الضيف الثقيل واللص. ولكن، من ذا الذي يجسر على تشبيه الضيف باللص؟ وإذا عاف القارئ نعت الضيف بهذه الصفة، أو أنكر في نفسه حرصه وتقتيره بإزاء الضيف أو استنكر من غيره كراهيته للضيف؛ فهذا دليل كاف على ميل هذه الصفات للكبت، وأن المجتمع لا يقرها. وفي هذا الموقف المتناقض بإزاء الضيف يبدو الكرم والترحيب والحفاوة في

---

(٨) **Otto Fenichel: "The Psychoanalitic Theory of Neurosis"; London, Kegan Paul, ١٩٤٥, p. ٩٣.**

الشعور الظاهر كرد فعل يحجب ما يضمره اللاشعور من تقتير وكراهية ونزعات عدائية مكبوتة. وإذا كانت آداب المجتمع وتقاليده تحول دون الإفصاح عن هذه النزعات في حالة الصحو؛ ففي غفلة الرقيب أثناء النوم يتاح لها ذلك، عن طريق الحلم. فالحلم باللص هو تنفيس عن النزعات العدائية المحتبسة التي كبتت حيال الضيف. ويظهر الضيف في الحلم بصورة تنكرية رمزية هي اللص، بعد أن يقوم الرقيب بحيلة لا شعورية هي "عملية الإبدال" إبدال الضيف باللص، حتى تجد انفعالات الكراهية المكبوتة لها منصرفاً، دون أن يستشعر الرقيب منها حرجاً.

ويتوقف قبول هذا التفسير على مدى الاستعداد للتسليم بأن مثل هذا "التناقض الوجداني" نحو الضيف محتمل أو ممكن. ونجد أنفسنا بإزاء الإنكار المتوقع، والاستنكار المتوقع كذلك!، مضطرين إلى أن نسوق الأدلة التي تؤيد حقيقة الموقف حيال الضيف. وأقرب دليل هو الأمثلة العامية التي تقال في الضيف. وهي أمثلة بدائية ساذجة تتفق مع النمط الذي تسير عليه الحياة النفسية للطبقات الكادحة الرقيقة الحال، وهم حفظة التراث الميثولوجي. ومن ذلك قولهم: "أتا بيك يا ضيف ما انتش صاحب محل"– ويضرب في أن الضيف غريب فلا ينبغي له الاغترار بالترحيب والتأهيل. وقولهم: "آدي وش الضيف" أي هذا وجه الضيف الذي تبغضونه قد ذهب عنكم ولن يعود. وقولهم: "ليلتك سعيدة يا ضيف قال عليك وعلى أولادك"– أي أنه حيا ضيفه بذلك فقال: إنما هي سعيدة عليك وعلى أولادك لأنكم ستشاركونني في معظم العشاء. ومن ذلك قولهم أيضاً: "الضيف المتعشي تقله ع الأرض" لأنه متى

كان قد تعشى فقد زال ثقله عن أهل الدار[٩]....

ومن قبيل التندر والدعابة، هذه الخرافة الغريبة التي يصطنعها العامة مع الضيف الثقيل. فإذا أطال الضيف الجلوس، وبدا وكأنه لا ينوي أن ينصرف يتخذ أهل الدار حياله إجراءات (فعالة) تتلخص فيما يأتي: "يقلب زوج من النعال خلف باب المطبخ أو في أحد أركانه، ويوضع فوقه مكنسة." فلا يلبث الضيف أن يستأذن في الانصراف! وهذه الشعوذة تعبير رمزي، حين يبلغ بأهل الدار التململ من الضيف الثقيل والتبرم به الحد الذي يقلبون له ظهر المدارس!

تتضح بجلاء مما سبق الدوافع اللاشعورية للحلم، والأفكار الكامنة خلفه كما تتضح الحتمية السيكولوجية في اختيار الرمزية في هذا التفسير الشعبي. تتبقى بعد ذلك القيمة التنبؤية التي يضفيها الخرافيون من العامة على الحلم (بالحرامي) فيجعلونه نذيراً بحضور الضيف.

وحضور ضيف هو حادث خارجي ليس إلى التنبؤية من سبيل. وإنما هو وليد المصادفة. أما الحلم (بالحرامي) فلم يكن وليد المصادفة، فقد رأينا دوافعه اللاشعورية. فعلى حين تبدو المصادفة الحقيقية في الأشياء والحوادث الخارجية كحضور ضيف، تبدو الحتمية في الدوافع الداخلية النفسية التي تؤدي إلى مثل هذا الحلم. وعلى ذلك لا يحضر الضيف لأننا حلمنا باللص، بل حلمنا باللص لأن ضيفاً قد حضر من قبل. فنحن نفسر

---

(٩) هذه الأمثلة والتعليقات عليها مأخوذة عن كتاب: "الأمثال العامية" بقلم أحمد تيمور– مطبعة الاستقامة، بالقاهرة– سنة ١٩٤٩.

الحلم على أساس أن دافعه في الماضي، بينما تضفي العامة في تأويلها على الحلم قيمة للتنبؤ بالمستقبل. فالفرق بين تفسيرنا السابق للحلم وتفسيره الشعبي هو أننا نقول: حضر لك ضيف فحلمت (بالحرامي). أما الخرافيون من العامة فيقولون: إذا حلمت (بالحرامي) فسيحضر لك ضيف. هذه القيمة التنبئية يمكن تفسيرها في ضوء الشرطية.

وكلما تصادف حضور ضيف أو ضيوف بعد الحلم (بالحرامي) تعجب الحالم، وكأنما لسان حاله يقول: "ما من مرة حلمت (بالحرامي) إلا وحضر بعدها ضيف" وهو لا يدري أن حلمه نتيجة لما كبته حيال ضيف سابق. أما حضور الضيف بعد الحلم فمصادفة لا أكثر. ويلوح أن تكرار اتفاق المصادفة بحضور الضيف عقب الحلم باللص يؤدي إلى أن يصبح اللص في الحلم رمزاً مرتبطاً بحضور ضيف، وعلامة تنذر بمقدمه، ومنبهاً شرطياً يتوقع معه حضوره. أي أن تكرار اتفاق المصادفة أو تكرار ارتباط الحلم باللص مع حضور ضيف، يؤدي إلى اكتساب نوع من الشرطية، يتوفر فيه الشرطان اللازمان لتكوين الاستجابة المكتسبة الشرطية. وهذان الشرطان هما: الجزء من الموقف الذي يرمز إلى الموقف كله. والتكرار للتثبيت. ونضيف إلى هذين الشرطين شرطاً ثالثاً هو النزعات المكبوتة في اللاشعور، وهي التي تجعل للعناصر المرتبطة مغزى رمزياً أو مغزى لا شعورياً. كما أنه قد يكون اتفاق المصادفة بحضور ضيف بعد الحلم، باعثاً إيجابياً هو بمثابة الجزء الذي يساعد على تثبيت الاستجابة المكتسبة الشرطية.

وهكذا تتضح الحتمية السكيولوجية في اختيار الرمزية في هذا التأويل الشعبي للحلم من ناحية، وحاجته إلى تفسير آخر علمي، ليفقده ما ينسب إليه من قيمة تنبؤية من ناحية أخرى. ويلوح أن الحتمة السيكولوجية لا تقتصر على هذا التفسير الشعبي للحلم ورمزيته فحسب. وإنما تبدو هذه الحتمية كذلك في الحلم ذاته. إنها أكثر من مصادفة أن تنتشر الأسطورة الشعبية لهذا الحلم وتفسيره بين أهل الشرق! فالحلم (بالحرامي) يبدو متمشياً تماماً مع التقاليد الشرقية: فقد اشتهر أهل الشرق بالكرم الحاتمي. وصارت حفاوتهم بالضيف مضرب الأمثال. فليس بمستغرب أن تنتشر بين أهل الكرم هذه الأمثال، وأن تجدهم نهباً لمثل هذه الأحلام.

الفصل السابع

الحلم بالنار الموقدة

ليس الحلم من الأحلام وقع أسوأ مما لهذا الحلم في نفوس العامة، فهم يبالغون في التطير منه، ويصيبهم منه الذعر والهلع. ويعتقد العامة أن هذا الحلم ينذر بحدوث مصيبة. وهذا التأويل قديم وذائع الانتشار. وفي أرطميدورس تدل النار في السماء على الحرب أو المجاعة أو القحط. أما عند المسلمين في العصور الوسطى فمن معانيها الفتنة.. والحرب، فالتهاب عوسج كبير ينبئ عن الحرب.. ومن رأى ناراً أحرقت بعض ثيابه، أصابته مصيبة أو أدركه بلاء.. وربما دلت النار على القحط والوباء أو الجراد..

وهذه الدلالات موجودة في أقدم حلم بالنار الموقدة سجله التاريخ، وهو حلم فرعون في قصة موسى عليه السلام: "حلم فرعون حلماً فظع به وهاله. رأى كأن ناراً خرجت من الشام ثم أقبلت حتى انتهت إلى مصر فلم تدع شيئاً إلا أحرقته، وأحرقت بيوت مصر كلها ومدائنها وحصونها، فاستيقظ من نومه فزعاً مرتاعاً، فجمع لها ملأ عظيماً من قومه، فقصها عليهم. فقالوا له لئن صدقت رؤياك ليخرجن من الشام رجل من ولد يعقوب يكون هلاك مصر وهلاك أهلها على يديه وهلاكك أيها الملك. فعند ذلك أمر فرعون بذبح الصبيان، حتى أظهر الله تعالى تأويل رؤياه، ولم تغن عنه حيلته شيئاً، وربي موسى عليه السلام في

حجره، ثم أهلكه على يده، عزت قدرته وجلت عظمته."[10].

ويختلف مغزى الحلم بالنار من حالم إلى حالم، كما يختلف باختلاف مضمون الحلم. ويقبل الحلم بالنار المشتعلة ثلاثة تفسيرات:

التفسير الأول: أشار فرويد إلى هذا الحلم إشارة عابرة في سطرين، يقول: "تأويل الأحلام بالنار يبرر التحذير منذ عهد الطفولة الذي يحرم على الأطفال اللعب بالنار حتى لا يبللوا الفراش ليلاً." ويقرر إرنست جونز صراحة أن النار رمز للبول. وقد يؤيد هذا المعنى ما لوحظ من أن الحالم بالنار غالباً ما يستيقظ من هذا الحلم وهو يشعر بحاجة ملحة إلى التبول. وبعض الأطفال اللذين يتبولون لا إرادياً يحلمون أثناء ذلك بالنار. ومن أمثلة ذلك طفل في سن السادسة حلم بأنه يطفئ النار بالتبول عليها، واستيقظ ليجد أنه بلل فراشه.

التفسير الثاني: هو التفسير المادي، فقد يخفى الحلم بالنار مغزى جنسياً، فتكون النار رمزاً لشعلة الحياة أو للتهيج الجنسي. وقد كانت النار في الأساطير اليونانية القديمة رمزاً للحب. وتروى إحدى هذه الأساطير أن بروميثيوس تحدي الآلهة وسرق النار للإنسان من زيوس في قصبة مجوفة.. وهناك أساطير أخرى تروي عن أمهات حملن من شعلة نار ظهرت لهن على شكل قضيب. وعند قبائل الفدا (**Vedas**) القدماء في جنوب الهند يعتبر إيقاد النار بالاحتكاك رمزاً للجماع.

---

(10) كتاب "منتخب الكلام في تفسير الأحلام" ص ١٦.

ومن أمثلة المغزى الجنسي للحلم بالنار الحلم التالي الذي ترويه أنا فرويد[١١] وهو لبنت في سن التاسعة كانت تمارس العادة السرية ويستولى عليها الشعور بالإثم. وكانت تخاف من النار، وتخشى بصفة خاصة أن ينفجر الغاز في المدفأ. وحدث ذات مساء أن خرجت والدتها، فأرادت المربية إشعال المدفأ، فلم تعرف طريقة إشعاله، فنادت على الأخ الأكبر لهذه البنت ليحاول إشعاله، فلم يعرف هو الآخر.

في هذه الليلة حلمت بأنها حاولت إشعال المدفأ بطريقة خاطئة، مما أدى إلى انفجاره واضطرام النار. وكعقاب لها على ذلك وضعتها المربية في النار لتلتهمها، فقامت من نومها مذعورة، وأيقظت والدتها وروت لها الحلم.

وهذا الحلم من أحلام العقاب. ومعالجة المدفأ يرمز إلى عبثها بجسدها أي إلى العادة السرية. وقد يعبر الانفجار إلى الوصول إلى أوج النشوة. أما المربية التي تستنكر هذه العادة، فقد عاقبتها بإلقائها في النار. وأهم ما يستوقف نظرنا في هذا الحلم أن النار فيه ترمز إلى الرغبة الجنسية، كما أنها ترمز فيه إلى العقاب على الإثم.

والنار في الحلم التالي كذلك تحمل معنى الرغبة الجنسية المشتعلة، والخوف من العقاب على الإثم في صورة رمزية واحدة. وهو

---

(١١) **Anna Freud: The Psycho- Analytic Treatment of Children; London, Imago, ١٩٥٠, p. ١٩.**

لسيدة في نحو الأربعين من عمرها، وتعاني من نوبات الصرع[١٢]، تقول:

"بينما كنت سائرة في الشارع شبت النار في المساكن الواقعة أمامي، ثم نظرت فوجدت النار مشتعلة في المساكن من خلفي كذلك، فصرت محصورة بين النيران، التي لم أجد منها مخرجاً، فصرخت واستيقظت مذعورة."

النار في هذا الحلم ترمز إلى توترها الانفعالي. وتصور "تصويراً مسرحياً" بليغاً الصراع بين نزعاتها الجنسية المكبوتة، والقوى الكابتة في العقل الممثلة للقيم الخلقية. فهي محصورة بين نارين، نار الرغبة الجنسية المتأججة، ونار الشعور بالخطيئة والخوف من العقاب.

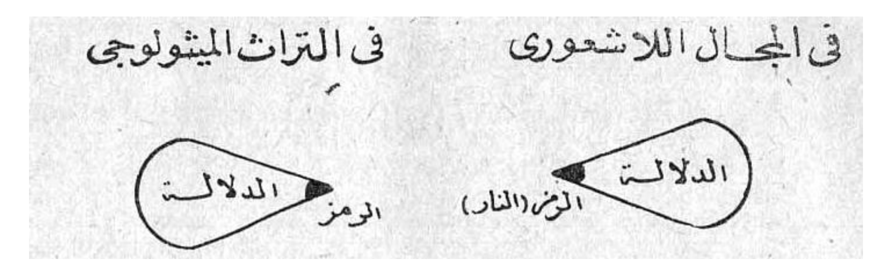
وفي الحلمين السابقين رأينا كيف تتصارع قوى الدوافع الجنسية، والقوى النفسية الداخلية الممثلة للقيم الأخلاقية والدينية، والنار في الحلم تجسيم لهذه القوى المتصارعة. وعلى ذلك فإن اعتبار النار في الحلم رمزاً لشعلة الحياة أو للتهيج الجنسي، لا يتعارض مع اعتبارها عقاباً على الخطيئة. ويختلف مغزى الحلم تبعاً لاختلاف اهتمام المفسر بالقوى المكبوتة أو بالقوى الكابتة. التفسير المادي يعني بالرغبة الجنسية المكبوتة. أما التفسير الوظيفي –الذي سنبينه تواً– فيعني بأثر الضمير والخوف من العقاب على الخطيئة.

التفسير الثالث: هو التفسير الوظيفي، الذي يرى أن التحذير من

---

(١٢) Emil A. Gutheil: The Handbook of Dream Analysis; Live right, ١٩٥١, p. ٣٨٦.

نار جهنم وعذاب الآخرة يترك أثراً راسخاً في النفوس وقد يدخل في المضمون الكامن لهذا الحلم. وفي تفسير ابن سيرين هذا المعنى، يقول: "ربما دلت النار على جهنم نفسها وعلى عذاب الله. وربما دلت على الذنوب والآثام والحرام وكل ما يؤدي إليها أو يقرب منها من قول أو عمل." ص ٢٢٩ ويحتمل أن تكون هذه الدلالة القديمة هي ذاتها الدلالة اللاشعورية (شكل ١) فالنار في الاعتقاد الشعبي وفي الديانة تستدعي دلالة هي المصيبة وعذاب الآخرة. فإذا ما توفرت هذه الدلالة كمضمون كامن، برز منها رمز مؤات، هو النار في المضمون الصريح للحلم. وعلى ذلك: لا تحدث مصيبة لمن يحلم بنار موقدة؛ وإنما يحلم بنار موقدة من توجس الشر، أو خاف من العقاب على إثم أو ذنب.



(شكل ١) الدلالة التنبؤية هي ذاتها الدلالة اللاشعورية

يقترن الرمز في التراث الميثولوجي بدلالة معينة، فإذا ما توفرت هذه الدلالة كمضمون كامن، ظهر الرمز في المضمون الصريح للحلم.

الفصل الثامن

أكل الكعك.. وأكل التين

أكل الكعك في الحلم

يتطير العامة من أكل الكعك أو الفطير في الحلم، ويعتبرونه نذير سوء ومدعاة للضيق. وتأويل أكل الكعك في الحلم بأنه ضيق تأويل شعبي قديم ذائع الانتشار. فهل يعتبر الحلم بالكعك حلماً تنبئياً؟ وهل يؤدي حقاً إلى الضيق؟ أم أن هذا التأويل الشعبي حديث خرافة.

قال الصبي لوالده: "حلمت بالأمس أني آكل كعكاً."

قال الوالد: "هذا الحلم ذو مغزى" ثم أردف مازحاً: "إذا أردت تفسيره فأعطني قرشاً وأنا أفسره لك."

قال الصبي: "ما كنت أحلم بالكعك لو أن معي قرشاً!!"[١٣].

يتضح من هذه النادرة أن ضيق ذات اليد هو الدافع إلى الحلم بالكعك. فمن ضاقت ذات يده عن شراء الكعك، وتاقت نفسه إليه، لم ير الكعك إلا في المنام. وعلى ذلك فاختيار الرمزية يقوم على أساس سليم، فالكعك رمز للضيق. ونحس جميعاً بمبلغ الضيق الذي يكابده

---

[١٣] مقولة بتصرف عن: W. Stekel: "The Meaning of The Dream Symbolism"; In "An Outline of Psychoanalysis"; edited by J.S. Van Teslaar, Modern Library, p. ١٦٧.

العامة من ذوي الدخل المحدود في عمل كعك العيد. ومن النساء الرقيقات الحال من يلجأن إلى بيع النحاس القديم أو المصاغ قبيل عيد الفطر، حتى يتاح لهن عمل الكعك. ومن ثم ارتبط أو اقترن الكعك بالضيق. مثل هذا الترابط بالاقتران يؤدي إلى اكتساب الرمز (أي الكعك) دلالته من الملابسات المحيطة به والتي تكتنفه والتي منها اشتق دلالته. وعلى ذلك يكفي جزء من المثير (أي الرمز وهو الكعك) لأن يستدعي لدى العامة استجابة كاملة للموقف كله وما يقترن به ويكتنفه وهو الضيق. وعلى ذلك لم يأت اختيار دلالة الرمز في هذا التفسير وليد الصدفة العارضة، وإنما يبدو أن هناك نوعاً من الحتمية أدى إلى اختيارها هذا عن الرمزية.

أما عن القيمة التنبئية (أي هل يحق لنا أن نترقب ونتوقع الضيق بعد الحلم بالكعك؟) فيرجع أمرها للمصادفة. يكون هذا التفسير أبلغ وأدق من الوجهة العلمية لو أنه جرى كالمثل القائل: (بأن الجعان يحلم بسوق العيش) أي لو اعتبرنا أن الشعور بالضيق تجسم في الحلم في رمز هو الكعك. وعلى ذلك: لا يحدث الضيق لأنك حلمت بالكعك، وإنما حلمت بالكعك لأنك في ضيق.

أكل التين في الحلم

يتطير الناس من أكل التين في الحلم ويؤولونه في كل مكان تقريباً بأنه ندامة وهم وغم. وهذا التأويل الواسع الانتشار تأويل قديم كان معروفاً عند قدماء المصريين، وجاء في "الكتاب المصري الحقيقي للأحلام" من

يحلم بأنه يأكل تيناً أو عنباً كان ذلك دلالة على الهم والمرض. وكان هذا التأويل معروفاً كذلك عند أرطميدورس اليوناني الذي عاش في القرن الثاني للميلاد. كما كان معروفاً عند المسلمين في العصور الوسطى، ويقول فيه ابن سيرين: "لقد كرهه المعبرون وذكروا أنه يدل على الهم والحزن والندامة لمن أكله في الحلم، واستدلوا بقوله تعالى في قصة آدم وحواء عليهما السلام: (لا تقربا هذه الشجرة" ص ٢٣٨.

وقد أيد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مصدر هذه الدلالة في تفسيره للآية الكريمة: "والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين..." فيقول إنها قسم أراد الله تعالى أن يذكرنا فيه بأربعة فصول من كتاب الإنسان الطويل، من أول نشأته إلى يوم بعثه النبي صلى الله عليه وسلم. فالتين إشارة إلى بدء الخليقة حين كان آدم وحواء في الجنة يستظلان بورق التين.. وعندما بدت لهما سوآتهما طفقا يخصفان عليهما من ورق التين.

والزيتون إشارة إلى عهد نوح عليه السلام، وذلك لأنه بعد نجاة سفينته من الطوفان، أرسل طيراً ليعرف حال الماء أنضب أم لا، فرجع إليه يحمل غصنا من الزيتون.

وطول سينين هو الجبل الذي كلم الله موسى عليه في شبه جزيرة سينا وهو في هذا القسم إشارة إلى ظهور نور التوحيد في العالم.

أما هذا البلد الأمين فهو مكة المشرفة، ولقبه بالأمين لأن الله حرم فيه القتل والإعدام.. وهو يرمز إلى عهد ظهور النور المحمدي من مكة المكرمة.

وهكذا اقترن التين منذ الأزل بسقطة آدم. لأنه حين ارتكب المعصية الأولى وأكل من الشجرة المحرمة، عرف هو وحواء أنهما عاريان، وسترا نفسهما بأوراق شجر التين، وحلت بهما النقمة.

فهل يستطيع اللاشعور أن يجسم الأفكار المرتبطة بسقطة آدم وهي الندامة والهم والغم في رمز؟ وهل هناك أنسب من التين رمزاً مجسماً لفكرة الندامة؟ وبذلك يكون المضمون الكامن للحلم الشعور بالندامة، والمضمون الصريح له أكل التين. والتأويل الشعبي القديم ينطوي على فراسة. فلم يأت اختيار القدماء لدلالة هذا الرمز وليد المصادفة وإنما ترجع أصول الحتمية إلى الديانة ذاتها. إلا أن دلالة الرمز التنبؤية في الخارج، هي دلالة لا شعورية في الداخل (شكل ١). وعلى ذلك: لا تأتي الندامة لأنك أكلت التين في الحلم، وإنما أكلت التين في الحلم من وطأة الندم.

الفصل التاسع

الارتحال أو السفر في الأحلام

يتطير العامة من الارتحال أو السفر في الحلم ويعتبرونه نذير سوء ينبئ عن وفاة من يسافر أو يرحل. فالموت رحلة بلا عودة. وفي اللغة التي نستخدمها في حياتنا اليومية تبين كلمة الفقيد "الراحل" العلاقة بين الموت والارتحال. وقد أشار شيكسبير في قصة هاملت إلى "الأرض المجهولة التي لا يعود من مجاهلها مسافر"[١٤] مشبهاً الموت بالسفر الذي لا رجعة منه. وتبدو دلالة السفر على الموت في محاولتنا إخفاء حقيقة الموت ومصير الميت عن الأطفال. فإذا سأل طفل صغير عن فقيد رحل من أفراد العائلة، يقال له عادة إنه سافر.

والعلاقة بين السفر والموت علاقة قديمة ذائعة الانتشار. وتبدو في طقوس الدفن عند كثير من الشعوب البدائية والراقية، القديمة والحديثة. وتتمثل هذه العلاقة في مواكب تشييع أرواح الموتى عند أهل كريت القدماء وعند التيوتون، والتي لا يزال رجال الدين في أوربا يحتفلون بها حتى وقتنا هذا. ويمكن اعتبار تشييع الجنازة الذي يلقي اهتماماً كبيراً في بلادنا، بمثابة الرحلة الأخيرة للفقيد الراحل. وهذه العلاقة أكثر وضوحاً في عقائد قدماء المصريين وفي طقوسهم الجنائزية، كما هو مبين في

---

(١٤) "The undiscovered country from whose bourn no traveller returns".

"كتاب الموتى" وفي نصوص الأهرام؛ فقد كان للرحلة الأخيرة دلالة خاصة في عقيدتهم القائمة على البعث والخلود بعد الموت. وكانت المقابر بعيدة عن المساكن والمعابد. وأوضح مثال لذلك مدينة طيبة (الأقصر) حيث توجد المقابر في وادي الملوك على الضفة الغربية. ولذلك استخدمت السفن في الرحلة الأخيرة لتحمل الراحل إلى مثواه. وهذه السفن على غرار "مراكب الشمس" التي كشف عنها أخيراً بجوار الأهرام. ومن المرجح أن "مراكب الشمس" لم تكن سوى المراكب التي استخدمت لغرض جزائري، وبعد أن حملت الملك خوفو في رحلته الأخيرة دفنت بجوار هرمه ليستخدمها الملك في حياته الأخرى.

وقد أدرك ابن سيرين علاقة الارتحال أو السفر في الحلم بالموت، وبصفة خاصة علاقة التوديع في الحلم بالموت. فهو يقول: "السفر يدل على الانتقال من مكان إلى مكان، وعلى الانتقال من حال إلى حال" ص ٢٨٠ "وأما التوديع فيدل على مفارقة المودع والمودع بموت أو غيره من أسباب الفراق. ومن رأى كأنه يودع امرأته فإنه يطلقها." وفي موضع آخر يقول: "الوداع دال للمريض على موته، وطلاق للزوج، وعلى السفر والنقلة مما الإنسان فيه من خير أو شر أو غنى أو فقر، على قدر المكان الذي ودع فيه، وضميره في السير، وما في اليقظة من الدليل." ص ٢٩٤.

وقد تكون أخطار السفر في الماضي عاملاً على انتشار دلالة السفر على الموت. وقياساً على ذلك يكون تقدم وسائل المواصلات مما لا يبرر بقاء هذه الخرافة أو التطير من هذا الحلم. والحقيقة أن

المواصلات السريعة الحديثة ساعدت على تثبيت هذه الدلالة وزيادة تأكيدها. لقد أصبح السفر بالقطار فيما يلوح رمزاً حديثاً لموكب الحياة، والمحطات بمثابة الآجال التي تنتهي عندها أعمارنا. منها ما هو قريب، ومنها ما هو بعيد. والجميع سيبرحون القطار. كل في حينه. الأمر الذي يوضح بطريقة محسوسة أن لكل أجل كتاب.. وأن كل من عليها فان. كما أن السفر بالقطار يولد حالة لا شعورية معينة ينفصل فيها الإنسان إلى حد ما عن عالم الحقيقة نتيجة للتعارض بين وجوده في وضع ثابت ساكن في ديوان مغلق وفي حالة سلبية؛ والتغيير والحركة المستمرة (النسبية) في العالم الخارجي، مما يذكي شعوره بأنه عارض زائل، والعالم باق خالد. ولذلك فلا عجب إذا أكدت هذه المشاعر دلالة السفر في الحلم على الارتحال أو الموت. ويضاف إلى هذا أن رموز الميلاد ورموز الموت[١٥] كثيراً ما تختلط في الأحلام فتبني رموز الموت عن الميلاد. والوجود في حيز مقفل مثل ديوان القطار المقفل أو السيارة المقفلة من رموز الميلاد التي لها دلالة لا شعورية على الوجود في الرحم أو العودة إليه. وتظهر رموز الميلاد بوضوح في الأحلام المزعجة والكوابيس التي تنتاب من يعانون من الخوف من الأماكن المغلقة.

وقد يكون الحلم بالسفر ذاتياً أو غيرياً. فإما أن يحلم صاحب الحلم بأنه سافر، أو يحلم لشخص آخر بالسفر. ومن أمثلة الأحلام الذاتية، أحلام سيدة من أقاربي حلمت مرات عديدة بالحلم التالي:

---

(١٥) انظر الفصل الخامس عشر.

"تحلم أنها تركب القطار لتسافر إلى بلدها. ويظل القطار سائراً مدة طويلة فتقول لنفسها في الحلم إن السفر في الحلم دلالته الموت. ولذلك تبادر إلى النزول في أول محطة تقابلها ويقف عندها القطار، بدعوى أنها ركبت القطار خطأ وأنه لا يوصلها إلى بلدها. وما أن تبرح القطار حتى تطلق ساقيها للريح، وتستيقظ وهي تلهث من طول العدو."

وقد تكرر لها هذا الحلم مرات عديدة. فحلمت في إحدى هذه المرات "أنها وجدت نفسها في القطار، وبدأ القطار يتحرك، فتبينت حقيقة موقفها في الحلم، فأسرعت إلى القفز من القطار." وشعور الحالمة بحقيقة موقفها في الحلم، مع إدراكها لدلالة السفر في الحلم، يدل على أن هذا الحلم من ظواهر ما قبل الشعور.

وهذه الأحلام التي أوشكت فيها على الرحيل! حلمتها لنفسها واستطاعت أن تنجو منها، لأنها تدرك مغزى السفر في الحلم، وتتحايل لتبرح القطار متذرعة بشتى المعاذير. وهي تؤمن بدلالة هذا الحلم إيماناً راسخاً إلى حد أنها قالت: "يوم أسأم من هذه الحياة، أو تسأم الحياة مني، سيعاودني هذا الحلم مرة، فلا اضطرب له ولا افزع منه. لن يرهبني السفر في الحلم، ولن أبرح القطار. وسألزم مكاني. وفي هذه الحالة قد لا أستيقظ قط."

ومما ساعد على رسوخ هذا الاعتقاد في نفسها، وزاد في تأكيدها لصدق دلالة السفر في الحلم بأنه ينذر بالموت، أنها حلمت مرة حلماً "غيرياً" لجارتها بأنها تسافر فماتت بعد ثلاثة أيام من الحلم. تقول:

"رأيت في الحلم جارتي وهي سيدة مسنة تذهب في سيارة وبجوارها

أحد ضباط البوليس. وهي التي تسوق السيارة بنفسها. ووقف في الشارع جمع حاشد. فسألت الواقفين، إلى أين تذهب؟ قالوا لي إنها مسافرة." ثم تستطرد فتقول: "وكنت أعرف أن دلالة السفر هي الموت فتشاءمت من الحلم ورويته لوالدتي، فأيدت هذا المعنى وقالت: "يا ندامتي دا الولية دي عيانة ولازم حاتموت." وبعدها بثلاثة أيام فوجئنا بموتها.

وفي تأويل هذا الحلم ليس هنالك ما يدعو إلى افتراض أن هذه السيدة "مكشوف عنها الحجاب" فلا علاقة لهذا الحلم بالمستقبل. والدافع اللاشعوري لهذا الحلم هو إدراك الحالمة أن هذه السيدة مريضة، فتوقعت ما يصح أن يحدث من وفاتها. وأفصحت هذه الدلالة أو هذا التوقع اللاشعوري عن نفسه في الحلم برمز مؤات تعرف الحالمة جيداً دلالته وهذا الرمز هو السفر، وفي صحبة من؟ في صحبة "أحد ضباط البوليس" الذي يرمز إلى "أحد قباض الأرواح". أما ما يبدو في تحقق الحلم في الواقع، وموت السيدة المريضة بعد ذلك فيرجع للمصادفة. فالدلالة التنبئية في هذه الحالة هي ذاتها الدلالة اللاشعورية.

الفصل العاشر

فقدان الأسنان في الأحلام

١- حلمان. ٢- المنبه الحسي. ٣- التأويل الشعبي. ٤- رأي رجال التحليل النفسي. ٥- خلع السن في طقوس تنصيب المراهقين. ٦- وظيفة خلع السن عند البدائيين. ٧- التفسير الوظيفي لحلم فقدان الأسنان. ٨- تطبيق هذا التفسير على التأويل الشعبي.

١- حلمان:

الحلم بسقوط الأسنان أو خلعها من "الأحلام النموذجية" التي يحلم كثير من الناس بطريقة متشابهة. وقد انتابني هذا الحلم في العطلة الصيفية في عام ١٩٥٢ مرتين. والمدة بين الحلم والآخر حوالي شهرين. وقد عنيت بتدوين الحلمين عقب الحلم الثاني مباشرة. وكان الدافع إلى هذا الاهتمام هو تكرار الحلم بصورة متشابهة مرتين ووضوحه في الحالتين وضوحاً تاماً؛ حتى بدا مجسماً وكأنه حقيقة واقعة. ودليل ذلك أن أول ما فعلته، عندما استيقظت، أن تحسست أسناني لكي أتأكد هل فقد منها شيء. وسررت في الحالتين عند إدراكي أنها سليمة. وقد أغراني وضوح حلم سقوط السن، وغرابته، وتكراره مرتين بتدوينه، ففعلت. وأنقل فيما يلي مما كتبت عقب تكرار الحلم للمرة الثانية:

الحلم الأول: حلمت- على أثر الإكثار من أكل الجبن في العشاء

بأن جزءاً من سنتي الأمامية في المقاطع العليا قد انكسر. وبدا في الحلم أن سبب الكسر وجود مادة غريبة من فمي. ناولتني صغرى أخواتي إبريقاً به ماء (لمضمضة) فمي لإزالة هذه المادة الغريبة. واستيقظت وأنا في شدة العطش.

أما الحلم الثاني فكان على أثر الإكثار من تناول الجبن القديم مع طعام الغذاء، والنوم بدون عشاء. حلمت بأن أكثر من سنة واحدة تقلقلت وبصفة خاصة سنة في المقاطع العليا هي التي حاولت جاهداً طوال الحلم أن أبقى عليها في موضعها. وطلبت من الدكتور ألا يخلعها وأن يحاول علاجها. وفجأة وجدت أني خلعتها في يدي وسبب لي ذلك كثيراً من الضيق. كذلك بدا لي في أثناء محاولتي الاحتفاظ بالسن في موضعه أن جزءاً منه كأنه من بللورات الملح. واستيقظت وأنا في شدة الظمأ والحلم ملء رأسي، فتحسست أسناني، وسررت لأنها سليمة. ثم دونت الحلمين.

٢- المنبه الحسي

بالتأمل في الحلمين وجدت الظروف التي أحاطت بهما متشابهة، وبصفة خاصة حدوثهما عقب أكل الجبن الحادق، والشعور بالعطش الشديد عند الاستيقاظ. ومن ثم ألح عليّ التفسير بالمنبه الحسي الداخلي. ويلوح أن ثمة ارتباطاً بين الملوحة الشديدة في الفم، نتيجة الإكثار من أكل الجبن، والحلم بفقدان الأسنان. مثل هذا الارتباط استدعى نتيجة للانطباع القديم الذي تركه تبديل الأسنان منذ أن كنت طفلاً حين اعتدت عقب خلع أي سن وضع فص ملح خشن مكانها

ليقف النزيف. وانطبع هذا الارتباط بين الملح وخلع السن. فعندما أكثرت من أكل الجبن الحادق. استدعى هذا الانطباع القديم؛ وأثار الإحساس بالملوحة الشديدة الحلم بسقوط السن. واستيقظت في كلا الحالين وأنا في شدة العطش.

أقنعت نفسي بهذا التفسير إلى حين، لإدراكي أن تفسير الأحلام على أساس المنبه الحسي لا يكون غالباً سوى تفسير جزئي. فإذا نجح المنبه الحسي في إثارة الحلم، فإنه لا يشرح حقيقته ولا يكون وحده تعبيراً كافياً له. فالحلم ظاهرة نفسية، ويفيد من المنبه الحسي. فقد ينجح المنبه الحسي في التمهيد لبداية الحلم، وقد يتحد مع سياق الحلم، ويدخل ضمن مشموله النفسي، لأن الحلم يحاك من مكنونات النفس.

٣- التأويل الشعبي

يعتبر العامة سقوط السن في الحلم من النذر الباعثة على التطير. ففي التأويل الشعبي ينبئ خلع السن في الحلم عن وفاة قريب. وهذا الاعتقاد اعتقاد قديم كان معروفاً منذ أيام الفراعنة. فقد جاء في الكتاب المصري الحقيقي للأحلام عند قدماء المصريين: "من يحلم بسقوط أسنانه فإن قريباً له يموت." وهذه الدلالة ذاتها تناقلتها الأجيال من قدماء المصريين إلى قدماء اليونان. فجاء في أرطميدورس: "إن سقوط الأسنان في الحلم تدل على فقدان أحد أفراد الأسرة." ووصلت هذه الدلالة ذاتها إلى مفكري الإسلام في العصور الوسطى. فجاء في تفسير ابن سيرين ص ٦٣: "إن الأسنان هم أهل بيت الرجل. فالعليا هم الرجال

من أهل البيت، والسفلى هم النساء. فالناب سيد بيته... والثنية اليمنى الأب والثنية اليسرى العم، وإن لم يكونا فأخوان أو ابنان، فإن لم يكونا فصديقان شقيقان. والرباعية ابن العم. والضواحك الأخوال والخالات ومن يقوم مقامهم في النصح. والأضراس الأجداد والبنون الصغار. والثنية السفلى اليمنى الأم واليسرى العمة فإن لم يكونا فأختان أو ابنتان أو من يقوم مقامهما. والرباعية السفلى بنات العم وبنات العمات. والناب السفلى سيدة أهل بيتها. والضواحك السفلى بنات الخال والخالة. والأضراس السفلى الأبعدون من أهل بيت الرجل من النساء والبنات الصغار. وحركة بعض الأسنان دليل على من هو تأويله في المرض. وسقوطه وضياعه دليل على موته أو غيبته عنه غيبة من لا يعود إليه."

والاعتقاد بأن سقوط السن أو خلعه في الحلم يدل على وفاة قريب من الاعتقادات الذائعة الانتشار بين كثير من الشعوب سواء الشعوب البدائية كسكان إفريقية الوسطى أو الشعوب الراقية. وقد وجد الأستاذ "سليجمان" أن فقدان الأسنان يؤول في كل مكان تقريباً بمعنى فقدان قريب أو صديق.

٤- رأي رجال التحليل النفسي

يفسر فرويد الأحلام بسقوط الأسنان تفسيراً جنسياً فيقول: "إن القوة الدافعة لهذه الأحلام إن هي إلا رغبات المراهقة في الاستنماء."[١٦] ويقول: "ربما كان من الصعب فهم كيف تأتي لحلم

---

(١٦) S. Freud: "The Interpretation of Dreams"; Allen & Unwin. Pp. ٣٦٢-٣٦٩.

فقدان الأسنان هذا المغزى. ولكني في هذا المقام يحسن أن ألفت النظر إلى "الإبدال من أسفل إلى أعلى" وهو الحيلة التي يفيد منها الكبت الجنسي، والتي تتحقق بواسطتها الإحساسات والنوايا التي موضوعها النصف الأسفل من الجسم، في أعضاء أخرى منه ليس منها حرج."

ويؤول شتيكل خلع شخص آخر السن في الحلم من فم الحالم، بالإخصاء. ويقول هذا القول نفسه في الحلم بقص الشعر.

ويرى يونج أن حلم النساء بفقدان السن له مغزى أحلام الوضع[١٧]. ويؤيده في هذا الرأي إرنست جونز.

فكأن حلم فقدان الأسنان من الأحلام الجنسية: يؤوله فرويد بأنه إفصاح عن الرغبة في الاستمناء. ويؤوله شتيكل بأنه تعبير عن الإخصاء. وهكذا نرى أننا وضعنا أنفسنا في موقف لا نحسد عليه: رأى أنصار التحليل النفسي في الحلم صريح، ومع هذا نروي الحلمين! ما أصدق نصح القدماء حين قالوا: لا تقص الرؤيا إلا على عالم أو ناصح، ولا تقصها على جاهل أو عدو أو حاسد. كان من الممكن إغفال ذكر الحلمين. أو لعلنا كنا نحسن صنعاً لو نسبناهما إلى غائب. غير أن الأمانة العلمية تقتضي منا أن نذكر الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة. وإذا كان لنا في الموضوع الذي نتصدى لبحثه، خبرة أصيلة، فهل نمسك عن

---

(١٧) وقد وردت هذه الدلالة في التوراة في "نشيد الإنشاد" في الأصحاح الرابع ونصها: "أسنانك كقطيع الجزائز الصادرة من الغسل اللواتي كل واحدة متئم وليس فيهن عقيم." أي كقطيع الغنم المجزوز (المقصوصة) جزاً متساوياً نظيفاً. واللواتي كل واحدة فيه تلد توأمين.

ذكرها لمثل هذه الاعتبارات الواهية؟ يضاف إلى ذلك أننا نذهب في تأويل هذا الحلم مذهباً جديداً. وإذا صح هذا التفسير الجديد، اتضح أنه ليس في هذا الحلم ما يدعو إلى الحرج! وقد يحلو للبعض أن يوجه إلينا بهذا التفسير الجديد، تهمة "المقاومة" التي تعتبر من الأدلة في صالح تفسير أنصار التحليل النفسي. على القارئ الناقد أن يتدبر هذا التفسير الجديد، ليتأكد من أنه ليس للاعتبارات الشخصية دخل فيه.

٥- خلع السن في طقوس تنصيب المراهقين

من العادات الغريبة لدى بعض الجماعات البدائية المعاصرة، تحطيم سن أو اثنين من المقاطع الأمامية في الفك العلوي، في طقوس تنصبب المراهقين والاحتفال بختانهم. وهذه العادة عند سكان استراليا الأصليين، وعند الزنوج في إفريقيا من قبائل البانتو الجنوبيين. وتتلخص طقوس تنصيب المراهقين في عزل الفتيان الذين بلغوا في معسكر خاص بهم، حيث يتمرسون عل بعض الأعمال والحرف، ويجتازون اختبارات عديدة لتعويدهم قوة الاحتمال، ويلقنون تقاليد القبيلة وعاداتها والنواحي الخلقية والمحرمات والأمور المقدسة فيها. كل ذلك وهم بمعزل عن بقية القبيلة. ويحظر على النساء والأطفال الاقتراب منهم. وقبل أن يسمح لهم بالتمتع بحقوق الرجال، والاندماج مرة ثانية في القبيلة يقام حفل لتنصيبهم. وفي هذا الحفل يمثلون قتل المراهقين، وبعثهم من جديد ويجري لكل مراهق عملية الختان. ثم يخلع لكل منهم سن من المقاطع الأمامية في الفك العلوي. وليست جميع طقوس المراهقين مصحوبة بتحطيم السن. فكثير

من الجماعات البدائية تمارس طقوس التنصيب بدون عادة خلع السن كما أن هناك اختلافات في تفاصيل هذه الطقوس، بين الجماعات المختلفة. ولكنها، بوجه عام تشترك في تلك المظاهر التي لحصناها.

تحتاج هذه العادة الغريبة، وهي خلع السن عند البدائيين، إلى تفسير وقد بحثنا في كتب الأنثروبولوجيا، التي تناولت موضوع طقوس تصيب المراهقين بالدراسة، عن تفسير لهذه العادة الغريبة، فلم نعثر إلا على تفسير واحد لورجيه باستيد، سنناقشه بعد قليل.

ونعتقد أننا إذا استطعنا تفسير عادة البدائيين في خلع السن في طقوس تنصيب المراهقين، فإن هذا التفسير قد يلقي لنا ضوءاً على مغزى حلم فقدان الأسنان. فللطقوس البدائية والأساطير دوافع لا شعورية. كما أن أصحاب التحليل النفسي ربطوا طرائق التفكير عند البدائيين وتفكير اللاشعور. والموازنة بين الأحلام النموذجية من ناحية، والأساطير والطقوس من ناحية أخرى، مسموح بها من الناحية المنهجية. وباصطناع هذه الطريقة، استعار وجيه باستيد فكرة الرموز الجنسية من فرويد، وطبقها على هذه الظاهرة والأنثروبولوجية وهي خلع السن في طقوس التنصيب. يقول: "هناك علاقة بين خلع السن لدى غير المتحضرين وبين الختان، وتكاد تكون هذه العملية نوعاً من العمليات الرمزية التي أشار إليها فرويد، فهي إذن طقوس جنسية[١٨].

(١٨) "مبادئ علم الاجتماع الديني" تأليف روجيه باستيد، وترجمة دكتور محمود قاسم– مكتبة الأنجلو المصرية. ص ١٤٤.

وإذا كان روجيه باستيد يستعير فكرة معلومة من التحليل النفسي، ويطبقها على هذه الظاهرة الأنثروبولوجية المجهولة الدوافع، نحاول نحن أن نعكس الترتيب في هذه الطريقة: بأن نعتبر دوافع الحلم هي المجهولة. ولنبدأ –متحررين من أية نظرية سابقة– في تفسير خلع السن في طقوس تنصيب المراهقين. ونعتقد أن من الممكن تفسير هذه الظاهرة الأنثروبولوجية تفسيراً أنثروبولوجياً. مثل هذا التفسير قد يلقي ضوءاً على الظاهرة النفسية وهي حلم فقدان الأسنان.

والنقد الأساسي الذي يوجه إلى تفسير روجيه باستيد هو أنه ينسب أحد الطقوس البدائية إلى فكرة موجهة جاهزة مسلم بها مقدماً هي فكرة فرويد عن الرموز الجنسية. هذا بالإضافة إلى خلع السن في طقوس البدائيين مصحوب بالختان، وليس بديلاً عنه، حتى يقال إنه من الرموز الجنسية. ويلوح أن هذا الحكم المتسرع نتج عن خطأ منهجي هو: عزل هذه الظاهرة الأنثروبولوجية، وهي خلع السن وقت الختان، من مشمولها في وحدة الحضارة. وقد أدى انتزاعها وعزلها على هذا النحو، إلى إغفال وظيفتها في وحدة الطقوس القبيلية. أي أن اقتطاع هذه الظاهرة أدى إلى عدم تتبع العلاقات الوظيفية الداخلية بينها وبين بقية طقوس تنصيب المراهقين، والعلاقات التي بينها وبين بقية مظاهر الحضارة، التي تكوّن وإياها وحدة. علينا حينئذ أن نبحث عن الوظيفة التي يحققها تحطيم السن في طقوس تنصيب المراهقين.

٦- وظيفة خلع السن عند البدائيين

إذا بحثنا عن وظيفة هذا الطقس البدائي، وجدنا أنه لا يحقق للفرد

الذي يتعرض له أية فائدة؛ إذ أنه تشويه وإيذاء له. إنما يحقق هذا الطقس غرضاً للكبار المهيمنين على شئون القبيلة، ويقوم بوظيفة هامة للسلطة.

فللأسنان التي تخلع في طقوس تنصيب المراهقين قيمة سحرية. وتعتقد هذه الجماعات البدائية أن العلاقة تستمر بين المراهق وسنه المخلوعة. فالسن جزء يرمز للكل. وسن الشخص رمز للشخص نفسه. وما يتعرض له الجزء، يحل كذلك بالكل عن بعد. ومثل السن المخلوعة كمثل الخصلة من الشعر أو بقايا الأظافر التي يحرص أفراد هذه القبائل البدائية على ألا تقع في يد عدو أو كائد؛ لاعتقادهم أن من وقع في حوزته هذه الأشياء، وأراد بصاحبها سوءاً، استطاع أن ينال منه ويؤثر فيه عن بعد: فكل ما يتعرض له الجزء، يحل أيضاً بالكل أي بصاحبه. ويطلق فريزر على هذا الضرب من السحر اسم: "السحر بالاقتران". ويعتقد سكان استراليا الأصليون أنه إذا دفن السن المخلوع أسفل شجرة أو ألقي في النهر، لا يصاب صاحبه بسوء. أما إذا جرى عليه النمل، أصيب صاحبه بمرض في فمه. ومن الملاحظات التي لها مغزى في هذا الصدد، لأنها تبين لنا وظيفة هذه العادة، أن شيوخ بعض القبائل ورؤساءها في استراليا يحتفظون بالأسنان المخلوعة في طقوس تنصيب المراهقين. وتنتقل هذه الأسنان من شيخ إلى آخر في الخفاء ومع الحذر الشديد بحيث لا تتعرض للمواد التي لها تأثير سحري كأحجار الكوارتز مثلاً، وذلك حرصاً على سلامة الفتيان.

فالسن بمثابة (الأثر) أو الجزء الذي يرمز للكل في طقوس السحر.

ويحتفظ شيوخ الجماعة بهذا (الأثر) كرهينة يستطيعون بواسطتها أن يتحكموا في مصير الفتى. لأن من أمتلك السن كأنما امتلك زمام الشخص، واستطاع به، إذا أراد، أن يتحكم في مصيره عن بعد. فالوظيفة الأولى لخلع السن هي قيمته عند شيوخ القبيلة للأغراض السحرية.

يحقق خلع السن عند البدائيين غرضاً ثانياً هو أن خلع السن في طقوس التنصيب عمل عنيف يصحبه إطلاع المراهق على الأمور المقدسة والأسرار والأمور المحرمة أو (التابو) وهذه الخبرة المؤلمة ترتبط بالتابو ارتباطاً شرطياً. وتترك في نفس المراهق أثراً موقراً كفيلاً بأن يتذكره كلما سولت له نفسه أن يحيد أو أن يستخف بالتابو. فالوظيفة الثانية لخلع السن عند البدائيين هي الربط الشرطي بين التابو وخلع السن بحيث تكفل هذه الخبرة المؤلمة عدم خرق التابو.

وهكذا يظهرنا التحليل الوظيفي لعادة خلع السن في طقوس تنصيب المراهقين على أن لهذه العادة الغريبة وظيفة. فهي جزء من الطقوس التي تلجأ إليها السلطة الضابطة في القبيلة لضمان طاعة أفرادها وضبط سلوكهم، وللمحافظة على تقاليد القبيلة ونظامها، ولغرس هذه التقاليد، وضمان استمرارها وعدم الحيد عنها أو الاستخفاف بها. فوظيفة هذه العادة الغريبة ليست للفرد وإنما للسلطة الضابطة. لنأخذ حينئذ في الحسبان هذا الفرض وهو أن خلع السن في طقوس تنصيب المراهقين يحقق للسلطة الضابطة في هذه الجماعات البدائية وظيفة هامة.

٧- التفسير الوظيفي لحلم فقدان الأسنان

إذا طبقنا هذا الفرض على حلم فقدان الأسنان، وجدناه إلى الأحلام الحصرية أقرب منه إلى أحلام تحقق الرغبات. ويُعبر حلم فقدان الأسنان عن الصراع بين الرغبات المكبوتة والقوى الكابتة. ونميل إلى تأكيد أثر القوى الكابتة في الصورة النهائية للحلم. فهو يعتبر من أحلام العقاب أكثر منه تحقيقاً لرغبة. وفيه نكوص وارتداد إلى مرحلة بدائية؛ وكأنما يمر الحالم بفترة تنصيبه مراهقاً. وكما أن تحطيم السن في طقوس تنصيب المراهقين يحقق غرضاً للسلطة الضابطة في القبيلة. كذلك يعبر فقدان الأسنان في الحلم عن وطأة الذات العليا (أو الضمير) التي تستمد كيانها من مصادر السلطة الثابتة وهي: سلطة الأب، ومما ينحدر إلى الفرد من قواعد الأخلاق وآداب المجتمع ومن المعروف أن الذات العليا تقوم بوظيفة الرقيب على (الأنا) أو الذات. فهي الناقد الخلقي الأعلى الذي يُشعر (الأنا) بالخطيئة، والذي يقوم بعملية الزجر. فإذا ما قلنا إن حلم خلع السن قمع وزجر من الذات العليا، بدا وكأنما تعاقب الذات العليا الأنا في هذا الحلم بخلع السن! وقد يبلغ اشتداد وطأة الذات العليا إلى الحد الذي يُخلع فيه السن فعلاً لا كحلم وحسب. "فأحياناً ينتهي حلم سقوط السن، بأن يستيقظ الحالم فيتناول من فمه سناً مخلوعة[١٩]!" ولا يشترط أن تعاقب الذات العليا، الذات على رغباتها الجنسية، فقد تعاقبها على نزعاتها العدائية المكبوتة، أو تعاقبها لأنها انتهكت حرمة التابو، أو ما يقابل التابو في مجتمعنا الحديث من النواهي الخلقية والتحريمات والقوانين الدينية...

---

(١٩) S. Freud: Ibid., p. ٩٦, ٢٢١.

* * *

وبذلك يقبل فقدان الأسنان في الأحلام تفسيرين:

التفسير المادي: وهو التفسير الجنسي الذي يمثله تفسير فرويد القائل بأن دوافعه هي الرغبة في الاستمناء. أو تفسير شتيكل القائل بأنه تمثيل رمزي للإخصاء.

ولا يسعنا إلا أن نأخذ على تفسير فرويد النقد الآتي وهو أن الرغبة في الاستمناء إذا ما توفرت لدى النائم... احتلم! فالحلم الجنسي الصريح الذي ينتهي بالاحتلام يحقق الرغبة في الاستمناء، دون ما حاجة إلى التقنع أو الإبدال.

التفسير الوظيفي: يعتبر الحلم بسقوط الأسنان من أحلام العقاب الذاتي وتأنيب الضمير. فالضمير أو الذات العليا تعاقب الذات في الحلم بخلع السن لأنها خالفت النواهي الخلقية أو المحرمات التقليدية. أو تعاقبها على تمنياتها اللاشعورية الشريرة.

وقد توصلنا إلى هذا التفسير من التحليل الوظيفي لعادة خلع السن في طقوس تنصيب المراهقين، ومن الربط بين طرائق التفكير عند البدائيين وتفكير اللاشعور. وإذا كان روجيه باستيد قد استعار فكرة الرموز الجنسية، من ميدان التحليل النفسي، وطبقها على الظاهرة الأنثروبولوجية وهي خلع السن في طقوس تنصيب المراهقين، فما الذي يمنعنا، من الناحية المنهجية من استعارة وظيفة هذه العادة الغريبة من

ميدان الأنثروبولوجيا لتطبيقها على الظاهرة النفسية وهي الحلم؟

وفضلاً عن أننا جعلنا التمسك بالمنهج رائدنا، فإن محك صدق هذا التفسير الجديد لحلم فقدان الأسنان، هو صلاحيته للتطبيق على تأويل الشعبي وهو أنه ينذر بوفاة قريب.

٨- تطبيق هذا التفسير على التأويل الشعبي

حيث إن هذا الحلم النموذجي يؤول في كل مكان تقريباً بمعنى فقدان قريب أو صديق، وحيث إن هذا التأويل قديم إذ كان معروفاً منذ أيام قدماء المصريين وعند قدماء اليونان، لذلك يبدو أن هناك حتمية في اختيار دلالة الرمز في هذا الحلم بأنها وفاة قريب. وليس في هذا التأويل الشعبي مصادفة. ولا يعني ذلك بحال صدق الحلم كنذير، أو أن وفاة قريب مما يجوز توقعه على أثر هذا الحلم. ولكننا إذ ننكر القيمة التنبئية للحلم، لا نستطيع إغفال دلالة هذا التأويل الأسطوري للرمز بافتراض أنه من الرواسب الفكرية أو من الخرافات العقيمة، وذلك لأن التوزيع الجغرافي لمدى انتشاره، والتتبع التاريخي لمدى قدمه، يحملنا على الاهتمام به، ويحول بيننا وبين اعتباره بقية **Survival** فقدت وظيفتها. وإذا كنا ننكر على القدماء ما يضفونه على هذا الحلم من قيمة للتنبؤ بالمستقبل، نرى أن لهذا التأويل الميثولوجي دوافع لا شعورية تحتاج إلى تفسير. وإذا نجحنا في الكشف عن هذه الدوافع، اتضحت لنا الحتمية في اختيار القدماء لهذه الدلالة بالذات وهي وفاة قريب.

مما يساعد على معرفة الدوافع اللاشعورية لهذا التأويل الميثولوجي أن

له نظيراً في أوهام العصابيين. فوفاة قريب تنسب لدى العصابي المصاب بالعصاب القهري (**Compulsion Neurosis**)، بأنها نتيجة لانتهاك العصابي لحرمة التابو، وعدم التزامه المحظورات والتحريمات القهرية التي فرضها على نفسه بنفسه. ففي العصاب القهري يتطير المريض من عدم التزام التحريمات ويعتقد أنه إذا خرق التابو، ترتب على ذلك أن يرى مكروهاً في عزيز لديه. والبدائي والعصابي القهري كلاهما يتوجس الشر المستطير إذا ما حاد عن التابو أو استخف به. البدائي يتوقع عندئذ أن يلحق به المكروه والأذى. أما العصابي فلا يخشى على نفسه ولكنه يتوقع أن يرى المكروه في عزيز لديه. ورد الفعل الذي يحدثه وفاة قريب لهذا العصابي، هو أن يتهم نفسه بأنه كان سبباً في وفاته لأنه لم يلتزم التحريمات التي فرضها على نفسه. ويتسلط عليه شعور مبهم بالذنب. وهذا التأنيب الوسواسي الذي يتسلط على العصابي فيعامل نفسه وكأنه كان سبباً في وفاة قريبه هو نتيجة لرغبة لا شعورية قديمة في موته. وهذه الرغبة المكبوتة في موت القريب هي نتيجة للتناقض الوجداني (**Ambivalent**) حيال الأقارب الذي يرى فرويد أنه في استعداد الناس جميعاً. وإشفاق العصابي من وفاة قريب، هو بمثابة تعويض عن الرغبة اللاشعورية في موته.

وعلى ذلك تبدو الدوافع اللاشعورية لهذا التأويل الشعبي في التناقض الوجداني حيال الأقارب، وفي التأنيب الوسواسي الذي يجعل العصابي القهري يؤنب نفسه عند وفاة قريب، وكأنه مسئول عن ذلك، والذي يجعله يشفق من أن يرى مكروهاً في عزيز لديه إذا هو لم يأخذ

نفسه باجتناب الأمور المحرمة القهرية التي ألزم بها نفسه.

وهكذا تتضح الحتمية في اختيار دلالة الرمز في هذا التأويل الشعبي كما يتضح كذلك أن وطأة الضمير أو الذات العليا تمثلت في التأويل الشعبي كما تمثلت في حلم سقوط السن ذاته. فالضمير هو الذي يعاقب الذات في الحلم بخلع سنها. وهو الذي يسبب الوسواس المتسلط للعصابي القهري، ويجعله يتوقع وفاة القريب إذا لم يلتزم التحريمات القهرية.

حيث إن خرق التابو لدى المصاب بالعصاب القهري = وفاة قريب.

وأن دلالة سقوط السن في الحلم في التأويل الميثولوجي = وفاة قريب.

∴ سقوط السن في الحلم = خرق التابو

أي أن الحلم بسقوط السن هو نتيجة لانتهاك حرمة التابو أو ما يقابل التابو في مجتمعنا الحديث من النواهي الخلقية والمحرمات التقليدية؛ الأمر الذي يترتب عليه من وجهة نظر العصابي، موت قريب. وعلى ذلك لا يموت قريب لأنك حلمت بسقوط السن، وإنما حلمت بسقوط السن لتمنياتك اللاشعورية السابقة لقريب بالموت. أو حلمت بسقوط السن لأنك خرقت التابو، الأمر الذي يتطير منه العصابي ويتوقع بعده وفاة قريب.

وبذلك يتضح أن اختيار دلالة الرمز في هذا التأويل الشعبي لم يأت وليد الصدفة العارضة.

كذلك يمكن تفسير دلالته التنبؤية في ضوء الشرطية. فوفاة قريب هي حادث خارجي ليس إلى التحكم فيه أو التنبؤ به من سبيل، لأن الأعمار بيد الله. ويلوح أن تكرار اتفاق المصادفة بوفاة قريب عقب الحلم بسقوط السن يؤدي إلى أن يصبح سقوط السن في الحلم رمزاً مرتبطاً بوفاة قريب، ومنبهاً شرطياً ينذر بذلك ويبعث على التطير. وكلما شاءت المصادفة أن يسمع المتطير بوفاة قريب بعد أن انتابه هذا الحلم، رسخ الاعتقاد في صدق الحلم كنذير. ويؤدي تكرار اتفاق المصادفة إلى تثبيت هذه الاستجابة المكتسبة الشرطية.

فهذا التأويل الميثولوجي، حينئذ، ما كان ليبقى على وجه الزمان وتتناقله الأجيال، وما كان ليذاع وينتشر لو لم تكن له دوافع لا شعورية، ولو لم يرتبط الرمز وهو فقدان السن في الحلم ارتباطاً شرطياً مع دلالته المستقبلة وهي وفاة قريب.

وعندما بدأنا كتابة هذا الموضوع، كان غرضنا عرض مختلف الآراء التي قيلت في تفسير حلم فقدان الأسنان. فإذا بنا ننتهي منه وقد فسرنا عادة خلع السن عند البدائيين، وأسهمنا بتفسير جديد لهذا الحلم، وفسرنا تأويله الشعبي كذلك. فإذا كان التوفيق حليفنا، فلأن التمسك بالطريقة رائدنا.

الفصل الحادي عشر

قص الشعر في الحلم

١- قص الذؤابة. ٢- الإخصاء أم فقدان القوة. ٣- شمشون الجبار. ٤- اللبيدو. ٥- العنة في الأحلام. ٦- العنة في ضوء التحليل النفسي. ٧- العنة في التفسير الشعبي. ٨- القيمة السحرية للشعر. ٩- التطير من قص الشعر. ١٠- طقوس قص الشعر. ١١- عقاب الذات وتأنيب الضمير. ١٢- الثعلبة. ١٣- النتائج.

١- قص الذؤابة:

من الرجال من يحرص على الاحتفاظ بخصلة من شعر محبوبته على سبيل التذكار أو كتعويذه. وقد لا يكون الاحتفاظ بتذكار من الشذوذ في شيء، فالناس فيما يعشقون مذاهب. ولكن الشذوذ والانحراف درجات ودرجات. وأشد من ذلك في الدرجة هواية منحرفة حقاً، تجعل الرجل يقص ذؤابة من شعر رأس ضحيته على غفلة منها. ويحتفظ بهذه الخصلة من الشعر كتذكار. كما أن له فيها مآرب أخرى. ويطلق التحليل النفسي على هذا الضرب من الشذوذ اسم قص الذؤابة- **Braid Cutting**"[٢٠] والمصاب بهذا الداء لا يشتهي ممن يعجب بها إلا خصلة من شعرها، يتحرق شوقاً للحصول عليها فإذا ما ظفر بها، فهذا هو غاية المنى.

---

(٢٠) **Otto Fenichel: "The Psychoanalytic Theory of Neu osis"; London, Kegan Paul, ١٩٤٥, p. ٣٤٩.**

والدلالة اللاشعورية لهذا الشذوذ هو أنه تعبير رمزي عن الإخصاء: فالعصابي كأنما يخصى ضحاياه بطريقة رمزية بقص شعورهن؛ فيعطي لنفسه بذلك ضماناً وتأكيداً بأنه فحل قادر، وليس عنينا ولا مخصياً. وقد أصبح هذا النوع من الشذوذ نادراً الآن نتيجة انتشار موضة الشعر القصير بين النساء.

بدأنا بهذا المثال حتى إذا ما قلنا إن قص الشعر في الحلم رمز بديل للإخصاء أو العنة، لم يبد قولنا غريباً. فالعلاقة وثيقة بين رموز الأحلام والأعراض العصابية. بمعنى أن الدافع اللاشعوري الواحد كالخوف من الإخصاء مثلاً قد يفصح عن نفسه برمز واحد في مجالين–أو أكثر كما سنرى– في العرض العصابي الشاذ وهو قص خصلة من شعر غيره، أو في الحلم بقص شعره. والعصابي يقوم بدور إيجابي– هو دور الجاني. أما الحالم بهذا الحلم، فدوره سلبي– هو دور المجني عليه.

٢- الإخصاء أم فقدان القوة:

ويقبل قص الشعر في الحلم تفسيرين: أحدهما "مادي" يمثل رأي رجال التحليل النفسي، والآخر "وظيفي" يمثله التأويل الشعبي.

التفسير المادي: يعتبر المضمون الكامن لقص الشعر في الحلم هو الإخصاء، ولا سيما إذا كان قص الشعر في المضمون الصريح مصحوباً بشحنة انفعالية من الذعر والهلع. فمثل هذه الانفعالات القوية التي لا تتناسب مع تفاهة الرمز تنتمي إلى المضمون الكامن وهو الإخصاء. والميكانيزم هنا هو الإبدال– "الإبدال من أسفل إلى أعلى"

وهو حيلة لا شعورية يتخفى بها المغزى الجنسي باستبدال أجزاء في النصف الأعلى من الجسم ليس منها حرج كالشعر بأجزاء في النصف الأسفل منه. فمثل قص الشعر كمثل خلع السن، أو قطع اللسان، أو فقء العين، كلها رموز بديلة للإخصاء.

أما التفسير الوظيفي فهو التفسير الشعبي القديم الذي يبعث على التطير، ويمثله تفسير ابن سيرين ويتلخص في أن قص الشعر للرجل في الحلم يدل على قصر عمره أو فقدان قوته. أما للمرأة، فالشعر لها ستر، وحلقه يدل على هتك سرها. يقول: "حلق الرأس للمحارب يوجب الشهادة في التأويل... وإن كان صاحب الرؤيا من أهل الصلاح، ضعف بطشه... وإن كان رئيساً وحلق، دلت رؤياه على افتقاره أو عزله" ص ٦١. وفي تعبير هذه الرؤيا بالنسبة للنساء يقول: "طول الشعر محمود، وخاصة في النساء، فإنهن يستعملن شعور غيرهن في الزينة... فإن رأت امرأة أن شعرها محلوق، يخلعها زوجها أو تموت... وقيل إن حلقه إياها يدل على هتك سرها." ص ,٦٠

٣- شمشون الجبار:

ومن المرجح أن ابن سيرين استرشد في هذا التأويل بالتوراة.

ففي قصة شمشون ودليلة فقد شمشون قوته حين قص شعره. غير أن قص الشعر في هذه القصة يقبل كذلك تفسيرين أحدهما "مادي"، والآخر "وظيفي".

التفسير المادي يرى في قص شعر شمشون تعبيراً رمزياً عن

الإخصاء أو عن العنة. وهذا المضمون نفسه يعبر عنه تعبيراً رمزياً مماثلاً في نفس القصة بفقء عينيه. فالمعنى مثل قص الشعر كلاهما رمز للإخصاء. والتكرار للتأكيد. والحيلة اللاشعورية في كلتا الحالتين هي "الإبدال من أسفل إلى أعلى" وأصحاب هذا التفسير المادي أو الجنسي يفسرون كذلك الطحن بأنه رمز للعملية الجنسية. وقد دار شمشون في الطاحن، وهي رمز للمرأة. وفي تفسير ابن سيرين: "الطاحون تدل على كل من ينكحه الرجل من زوجة وأمة." ص ٢٠٠.

أما التفسير الوظيفي لقص شعر شمشون، فهو ما ورد في النص الديني من أن ذلك كان إيذاناً بفقدان قوته وزوال جبروته.

والاعتقاد بأن الشعر مكمن القوة، وأن حلقه يؤدي إلى تبدد هذه القوة، اعتقاد شائع لدى كثير من الشعوب البدائية. فعند زنوج غرب إفريقية طبقة من السحرة يطلق عليهم "صناع الأمطار" وظيفتهم في كل قبيلة استنزال المطر! وهؤلاء السحرة يمتنعون عن حلق شعر رءوسهم طوال حياتهم، لظنهم أنهم إذا حلقوا رءوسهم، فقدوا القدرة على استنزال المطر. وكذلك من كان عليه أن يأخذ بثأر، احتفظ بخصلة من شعره غير محلوقة حتى يتم له أخذ الثأر فيحلقها؛ لأن حلقه إياها قبل أن يثأر يبدد عزيمته. والأمثلة كثيرة على أن قص الشعر يقترن عند الجماعات البدائية بفقدان القوة. وقد أفرد جيمس فريزر لهذه الأمثلة فصلاً كاملاً في كتابه المشهور "الغصن الذهبي". وتروي قصص محاكم التفتيش في العصور الوسطى في أوربا، اضطهاد الساحرات وقص شعورهن ليفقدن القدرة على السحر.

٤- اللبيدو:

فهل يعبر قص الشعر في الحلم عن المغزى الجنسي الخاص أي الخوف من الإخصاء أو من العنة– وهو التفسير المادي. أو يعبر عن فقدان القوة بوجه عام، بالمعنى الذي نجده في تفسير ابن سيرين وفي التوراة في قصة شمشون، وعند الجماعات البدائية– وهو التفسير الوظيفي؟

إن الاختلاف بين التفسير المادي التفسير الوظيفي لقص الشعر في الحلم يعكس بوضوح الخلاف بين فرويد ويونج في فكرة كل منهما عن اللبيدو. عند فرويد اللبيدو هو الشهوة أو الطاقة الجنسية. أما عند يونج فاللبيدو هو الطاقة الحيوية أو الطاقة النفسية بوجه عام.

قص الشعر في الحلم، وفي قصة شمشون الجبار، تفسيره المادي العنة أو الإخصاء. وتفسيره الوظيفي فقدان القوة. ومما يستلفت النظر أن العنة في الأحلام، يرمز لها بفقدان القوة وعدم القدرة. أي أن العنة مضمون كامن. وفقدان القوة مضمون صريح. فهل معنى ذلك أن التفسير المادي– القائل بالعنة– يصل إلى طبقة أبعد غوراً في أعماق اللاشعور مما يصل إليه التفسير الوظيفي– القائل بفقدان القوة؟

لننظر أولاً كيف يُرمز للعنة في الأحلام بفقدان القوة.

٥- العنة في الأحلام:

فيما يلي حلم نموذج لعنّين. والحلم منقول عن شتيكل[٢١]. ويدور حول فكرة محورية هي "عدم القدرة" وهذا نصه:

"أردت أن أقوم بزيارة. فوصلت إلى فيلا محاطة بحديقة بديعة. حاولت أن أفتح الباب، ولكنه بدا مغلقاً بالقفل. وحاولت أن أقرع جرس الباب، بدون جدوى، إذ يبدو أن الجرس قد صدئ. وأخيراً تمكنت من قرع الجرس بصوت خافت متقطع. ثم ظهرت في النافذة امرأة في مقتبل العمر وقالت: "إن الباب مفتوح، اضغط على المقبض بقوة" ففعلت. ولكن الباب لم يفتح. وبدا لي أني إذا طلبت المعونة من أحد، جعلت نفسي موضع سخرية. وعندما قررت أخيراً أن أنادي طالباً المساعدة، لم يخرج صوتي من حلقي إذكان محتبساً من فرط خجلي. ثم ظهر رجل خشن المظهر يبدو أنه صبي جزار. ونظر إليّ باحتقار. ثم ضغط على مقبض الباب وفتحه. فخجلت وصرفت النظر عن القيام بهذه الزيارة، وأسرعت في الانصراف".

وفي هذا الحلم أشير إلى العنة بالكف أو عدم القدرة ثلاث مرات. فهو لا يستطيع أن يفتح الباب، ولا أن يدق الجرس، ولا أن ينادي طالباً المساعدة. ويبين هذا المثال أن المضمون الكامن وهو العنة يفصح عن نفسه ثلاث مرات بعدم القدرة في المضمون الصريح. والتكرار للتأكيد.

ويلقي هذا الحلم ضوءاً على العلاقة "الطبقية" بين التفسير المادي

---

(٢١) W. Stekel: "The Interpretation of Dreams"; Liveright, ١٩٤٣, Vol. I, p. ٣٩.

والتفسير الوظيفي لقص الشعر في الحلم. فالتفسير المادي الجنسي- القائل بالعنة أو الإخصاء- يصل إلى طبقة أبعد غوراً في أعماق اللاشعور. أما التفسير الوظيفي- القائل بعدم القدرة أو بفقدان القوة- فلا يتعدى طبقة ما قبل الشعور. بل إنه بدا ثلاث مرات في المضمون الصريح لحلم هذا العنين. فالتفسير الوظيفي إذن تفسير سطحي. وأكثر منه عمقاً التفسير المادي.

وللعنة ذاتها تفسيران: تفسير علمي، وتفسير شعبي. والتفسير العلمي هو تفسير رجال التحليل النفسي. أما التفسير الشعبي فهو أن العنة نتيجة "للربط"! ويحسن أن نوازن بين هذين التفسيرين.

٦- العنة في ضوء التحليل النفسي:

والفقرات التالية المنقولة عن أتو فنيكل[٢٢] يمكن اعتبارها ممثلة لرأي التحليل النفسي في العنة. يقول: "العنة أساساً من فعل القوى الكابتة للعقل. فالعنين يعتقد لا شعورياً أن النشاط الجنسي خطر. فتتطلب القوى الدفاعية منه الامتناع عن العملية الجنسية، وتتدخل لمنعها. فالعنة تغيير طبيعي ينشأ عن الفعل الدفاعي للأنا، الذي يحول دون إتمام النشاط الغريزي الذي يعتبر خطراً. والجزء من الأنا الذي يقوم بهذا الكف هو بالتأكيد لا شعوري. وهو الجزء الذي يعمل فيه القلق من الإخصاء."

"وتزهد الأنا في اللذة الجنسية إذا ما ساد الظن باقترانها بخطر جسيم. وهذا الخطر هو دائماً الخوف من الإخصاء. فالعنين يخشى لا شعورياً أن يصاب قضيبه بالأذى أو بالبتر وهو في المهبل."

(٢٢) O. Fenichel: Ibid. p. ١٧٠.

"ولما كانت عقدة أوديب هي نواة الجنسية الطفلية، فإن العنة في أبسط صورها تقوم على استمرار التعلق اللاشعوري الحسي بالأم. ويكون الكف نتيجة اعتبار الشريك الآخر صورة بديلة للأم."

ويفهم من هذه الفقرات بوضوح أن العنة نتيجة الخوف من الإخصاء. أو لأن الزوجة تكون رمزاً بديلاً للأم بمقتضى عقدة أوديب.

٧- العنة في التفسير الشعبي:

شاع بين عامة الناس الاعتقاد بأن العنة نتيجة للربط. والربط هو الكتابة أو العمل السحري الذي يؤدي إلى تعطيل الوظيفة الجنسية بشل القدرة على الانتصاب. ويظن أن الساحر إذا حصل على خصلة من شعر الشخص المراد ربطه –أو أي أتر له– وأجرى عليها طقوساً سحرية خاصة، ابتلاه بالعنة. وفي إحدى النسخ الخطية القديمة التي يتناقلها الناس في السر، عثرتن –في باب رباط– على طريقتين تصوران هذا الاعتقاد.

الأولى: تكتب على زعفة. وهي خوص من جريدة خضراء. وهذا ما يكتب: أرمش 2̄ مملوش 2̄ صملوش 2̄ صرعوش 2̄ .

اعقدوا يا خدام هذه الأسماء فلان ابن فلانة عن جميع النساء والبنات. ويخطيها وتوضع في قبر مهجور لا يزار.

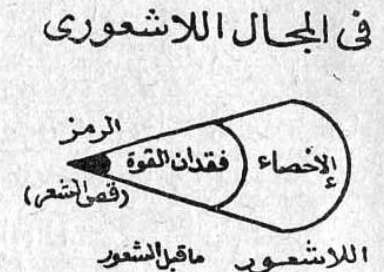
والثانية: تأخذ سير غربال قديم وتعقد عليه سبع عقدات وبعد ذلك تضعه في محل مظلم بعد أن يخطيه المعمول له. والبخور صبر ومر. وهذه العزيمة تقول: عقدت ذكرك يا فلان ابن فلانة عن فرج كذا وكذا

بالسبعة من العفاريت أولهم كهرمان، والثاني كهلمان، والثالث شلوش، والرابع منقوش، والخامس برقان، والسادس ميمون، والسابع زوبعة صاحب الرءوس الأربعة أن تعقدوا ذكر فلان...

٨- القيمة السحرية للشعر:

إن الاعتقاد في إمكان السحر بواسطة خصلة من شعر الشخص أو بقايا أظافره أو قصاصة من ملابسه أو أي "أتر" له ذائع الانتشار في جميع أنحاء العالم. وللشعر قيمة سحرية عند الجماعات البدائية بصفة خاصة. ذلك أن البدائي يعتقد أن الاتصال (الغيبي) يستمر بينه وبين أي جزء ينفصل عنه، وأن ما يصيب الجزء يحل كذلك بصاحبه حتى بعد أن أنفصل الجزء منه. ومن هنا كان لخصلة من شعره، أو قلامة أظافره، أو سنة مخلوعة من أسنانه قيمة سحرية، إذا ما وقعت في يد عدو أو ساحر يستخدمها في أذيته. ويتجه الإيذاء بصفة خاصة إلى الوظيفة الجنسية لتعطيلها. فالشعر يقترن بأحداث العنة أو الربط في الطقوس السحرية.

الشعر يعتبر حينئذ رمزاً مؤاتياً له حتمية في كلا المجالين اللاشعوري والاجتماعي. قص الشعر في الحلم أي في المجال اللاشعوري رمز بديل.





(شكل ٢) يصور التطابق بين القالب السيكولوجي الذي يتضمن الرمز وهو قص الشعر ودلالتيه المادية والوظيفية في المجال اللاشعوري؛ والقالب الاجتماعي الذين يتضمن هذا الرمز ودلاليتيه المادية والوظيفية في مجال الأنثروبولوجيا والميثولوجيا والفولكلور.

والدلالة المادية، دلالة جنسية على الإخصاء– وهي لا شعورية. والدلالة الوظيفية هي فقدان القوة– وهي من طبقة ما قبل الشعور.

للإخصاء. والشعر في المجال الاجتماعي هو "الأتر" الذي يستخدم في الكتابة والسحر، بقصد الربط أي إحداث العنة– وأول وأهم أسبابها الخوف من الإخصاء. هناك إذن نوع من التطابق بين القالب الاجتماعي الذي يتضمن الرمز ودلالته في مجال الطقوس السحرية، والقالب السيكولوجي الذي يتضمن الرمز ودلالته في المجال اللاشعوري، ونعتقد أن هذا التطابق يرجع إليه الفضل في خلود الاعتقاد الشعبي في إمكان "الربط" باستخدام الشعر أو "الأتر". فالعنة تنسب إلى سببية خاطئة هي السحر. فما كانت طقوس السحر لتجدي لولا توافر الدوافع اللاشعورية وفي مقدمتها عقدة الإخصاء أو عقدة أوديب؛ ولولا هذه الرمزية المؤاتية وهي استخدام الشعر في هذه الطقوس لما له من مغزى لا شعوري خاص.

وهذا التطابق بين دلالة الرمز في المجالين الاجتماعي واللاشعوري (شكل ٢) في مستوى التفسير المادي –أي إذا اعتبرنا قص الشعر رمزاً للإخصاء. وهناك تطابقاً آخر بين دلالة الرمز في المجالين الاجتماعي واللاشعوري في مستوى التفسير الوظيفي– أي إذا اعتبرنا قص الشعر رمزاً لفقدان القوة. وهذه الدلالة نجدها في التوراة في قصة شمشون، وفي اعتقادات الجماعات البدائية في أن الشعر مكمن القوة، وأن حلقه يؤدي إلى تبدد هذه القوة– وهذه الدلالة في المجال الاجتماعي. أما في المجال النفسي فإن الدلالة الوظيفية لقص الشعر في الحلم يمثلها قول ابن سيرين بأن ذلك يدل على ضعف البطش وفقدان القوة. وهذه الدلالة من طبقة ما قبل الشعور.

٩- التطير من قص الشعر:

يعتبر الشعر عند بعض الجماعات البدائية المعاصرة من الأمور المحرمة أي "تابو **Tadoo**" والتابو هو الناحية السلبية للسحر. فالسحر عمل إيجابي، بمعنى أن بخصلة من الشعر يعمل العمل السحري. أما التابو فسلبي فهو التطير من قص الشعر خوفاً من استخدامه في السحر.

ويقبل التطير من قص الشعر عند الجماعات البدائية التفسير كذلك على مستويين: المستوى المادي، والمستوى الوظيفي. المستوى المادي مرتبط بالخوف من استخدام الشعر في الطقوس السحرية. فالبدائي يعتبر الشعر "تابو" ويحرص على ألا تقع قصاصات شعره في يد ساحر أو عدو يكيد له. لذلك يتوخى الحرص في التخلص من بقايا الشعر، فيلقي بها في الماء، أو يدفنها في الأرض، أو في مكان مأمون.

وما تزال بقايا هذه الاعتقادات في مجتمعنا الشرقي. وتبدو في حرص نساء الجيل القديم على التخلص من بقايا الشعر المتخلف في المشط بعناية بإلقائه في المرحاض.

أما التفسير الوظيفي للتطير من قص الشعر فيعتبر الشعر مكمن القوة وقصه ينذر بفقدان هذه القوة. وقد يصل التطير من قص الشعر إلى حد عدم قصه على الإطلاق كما روينا عن صناع الأمطار في غرب إفريقية، وكما يروى عن ملوك الفرنجة القدماء، وكما يروي عن رئيس قبيلة في جزر فيجي اعتاد أن يأكل رجلاً!! قبل قص شعره[٢٣] ليعوض فيما يلوح عما سيفقده من قوة نتيجة لقص شعره.

١٠- طقوس قص الشعر:

ينطوي قص الشعر فيما يلوح للبدائي على خطر غيبي. ولذلك تقوم بعض الجماعات البدائية بطقوس معقدة قبل عملية حلق شعر الرأس أو في أثنائها أو بعدها. والغرض من هذه الطقوس اتقاء الخطر الناشئ من قص الشعر. فعند الماوري –سكان نيوزيلند الأصليين– تتلى التعاويذ على سكين الصوان الذي تقطع به الشعر. كما أن كل من يقص شعره يعزل بضعة أيام ويصبح بدوره "تابو". كذلك يعيش الحلاق عندهم في عزلة ويحرّم عليه الاختلاط بالناس ولا يسمح له بلمس طعامه بيديه، لذلك يطعمه غيره ويقوم بطقوس معقدة من وقت إلى آخر لتطهير نفسه.

ويحتفظ شيوخ القبيلة في هذه الجماعات بالشعر المحلوق كرهينة

---

(٢٣) J. Frazer: The Golden Bough; p. ٢٣٣.

عندهم. به يضمنون حسن سير وسلوك الأفراد الذين يصبحون طوع أمر هؤلاء الكبار الذين ملكوا زمامهم فلا تسوّل لهم نفوسهم الخروج على نظم القبيلة وعاداتها. فوظيفة بقايا الشعر المحلوق عند شيوخ القبيلة كوظيفة الأسنان المخلوعة في طقوس تنصيب المراهقين. فهي رهائن يحتفظون بها ويستطيعون بواسطتها التحكم في مصائر الفتيان، لأن خصلة الشعر أو السن بمثابة (الأثر) ومن امتلكها فكأنما امتلك زمام صاحبها إذ يمكنه استخدامها في الأغراض السحرية.

١١- عقاب الذات وتأنيب الضمير:

إن وجه الشبه كبير بين الحلم بقص الشعر والحلم بسقوط السن. فكلاهما نذير سوء ويدعو إلى التطير. وكلاهما يكون مصحوباً بالقلق والجزع وكلاهما رمز للإخصاء. وكلاهما تعبير عن وطأة الضمير (أو الذات العليا) على الذات. ويقترن قص الشعر وخلع السن عند البدائيين بطقوس خاصة، ويحقق غرضاً واحداً. فوظيفة خصلة الشعر كوظيفة السن المخلوع، يستخدم كلاهما في الأغراض السحرية. وإذا كان قص الشعر وخلع السن يحقق غرضاً للسلطة الضابطة في القبيلة البدائية– في المجال الاجتماعي؛ فإن الحلم بحلق الرأس أو بخلع السن في المجال اللاشعوري يحقق نفس الغرض للذات العليا، التي تمتص خصائص السلطة الخارجية، وتسقطها إسقاطاً داخلياً (**Introjection**) على الذات. فالذات العليا تعاقب الذات في الحلم بقص الشعر أو بخلع السن بنفس الطريقة التي يعاقب بها شيوخ القبيلة المراهقين عند تنصيبهم

بتحطيم السن أو بقص الشعر، ولنفس الغرض. ولذلك فلا عجب أن ينتهي الحلم بسقوط السن والحلم بقص الشعر كلاهما بأثر مادي. قد ينتهي الحلم بسقوط السن بأن يستيقظ الحالم فيتناول من فمه سناً مخلوعاً. وينتهي الحلم بقص الشعر بأن يستيقظ الحالم فيجد خصلة من مقدمة رأسه محلوقة، وهو المرض المعروف "بالثعلبة".

١٢- الثعلبة:

من أمراض الشعر وأعراضه تساقط أو تلاشي الشعر في بقعة صغيرة مستديرة في مقدم الرأس. وأعرف شاباً جامعياً أصيب بهذا المرض على أثر سوء تفاهم بينه وبين والده. يقول إن والده غضب عليه، وكان قد وعده بهدية ثمينة ثم أخلف وعده. وفي صبيحة اليوم التالي وجد في مقدم رأسه جزءاً صغيراً خالياً من الشعر. ثم أخذت هذه البقعة تتسع. فذهب إلى الطبيب الذي قرر أنه مرض الثعلبة. ووصف له دواء شرب ومادة كاوية اسمها "مس ثعلبة" ونصحه بعدم الزعل أو النرفزة خوفاً من زيادة المرض. وفي أثناء تعاطي هذا العلاج حلم الحلم التالي:

"حلمت أني أصلع فجزعت جزعاً شديداً. ثم رأيت أني في حمام عين الصيرة، وغطست في الماء عدة مرات. وحين خرجت من الحمام تحسست رأسي، فإذا بالشعر يكسو رأسي مرة أخرى." ثم يقول تفاءلت بهذا الحلم واهتديت به، وصممت على الذهاب إلى حمام عين الصيرة. وفعلاً ذهبت إلى هناك أربع مرات. وكنت في أثناء ذلك أتعاطى الدواء. فتم لي الشفاء بعد ثلاثة أشهر. ولست أدري ما إذا كان شفائي نتيجة

الحلم التنبئي وأثر المياه المعدنية أو نتيجة الدواء." وعلى ضوء هذه الدراسة أحب أن أضيف احتمالاً ثالثاً وهو أن تحسن معاملة والده له قد يكون لها دخل في شفائه.

ويحق لنا أن نتساءل لم لا يكون مرض الثعلبة من الأمراض السيكوسوماتية (أي الأمراض البدنية النفسية) وأنا أشير إلى هذا الاحتمال بمنتهى الحرص وأتمنى لو أن طبيباً متخصصاً تناول هذا الموضوع بالدراسة وعالجه من هذه الزاوية. إن الطبيب الذي عالج صديقي حذره من الزعل والنرفزة ومعنى ذلك أنه يسلم ضمناً بأن العوامل النفسية تؤثر في هذا المرض. (كذلك يقال إن بياض الشعر أو الشيب له علاقة بالأهوال!) ولكن ما هي طبيعة العوامل النفسية التي تؤثر في هذا المرض؟ إن هناك احتمالاً في أن يكون الثعلبة من أعراض عقاب الضمير وشدة وطأة الذات العليا على "الأنا" الأمر الذي يؤدي إلى الحلم بقص الشعر أو بسقوط السن كما يؤدي إلى أن يستيقظ النائم فيتناول من فمه سناً مخلوعة، أو يتحسس شعره فيجد خصلة مفقودة! وأية غرابة في أن ينتهي الحلم بأثر مادي فكلنا يعرف كيف ينتهي الحلم الجنسي بالاحتلام.

ومما يؤيد احتمال أن يكون الدافع اللاشعوري لمرض الثعلبة هو عقاب الضمير أو شدة وطأة الذات العليا على الذات، إن صاحبنا قد انتابه مرض الثعلبة على أثر غضب والده عليه. ورضا الوالدين أو غضبهما يدخل في صميم كيان الذات العليا التي تمتص خصائص السلطة وتتقمصها وتنصب من نفسها على الذات رقيباً يحاسبها ويؤنبها

ويعاقبها ويهددها بالإخصاء كما في الحلم بقص الشعر أو في الحلم بسقوط السن. فالذات العليا هي التي تسبب القلق من الإخصاء، وهي التي تخلع سن النائم فعلاً أو تسقط شعره أو تجثم على صدره وتشل أطرافه وتملؤه ذعراً وهلعاً فتسبب له الكابوس.

١٣- النتائج:

نستخلص من هذه الدراسة أن الدافع اللاشعوري الواحد وهو الخوف من الإخصاء، يفصح عن نفسه برمز واحد في مجالات شتى: في الانحراف المسمى "قص الذؤابة"، وفي العنة، وفي الحلم بقص الشعر، وفي قصة شمشون الجبار، وفي طقوس البدائيين وحرصهم على التخلص من قصاصات الشعر المحلوق، واعتبارهم قص الشعر من الأمور المحرمة أو "التابو" وفي اعتقادهم في قيمة الشعر السحرية لإحداث الربط أو العنة، وفي العرض المرضي المسمى "الثعلبة".

وعلى ضوء هذه العلاقات لا يسعنا إلا القول بأن الحلم بقص الشعر حلم تنبؤي ودلالته ذاتية تخص صاحب الحلم وحده. وليس في هذا الحلم مصادفة. وكون أنه اتخذ هذه الصورة الرمزية بالذات يقضي بوجود حتمية سيكولوجية، فهو يعبر بطريقة موضوعية صادقة عن محتويات اللاشعور. والتطير من الحلم بقص الشعر له ما يبرره، باعتبار أنه ينطوي على دلالة لا شعورية تنتمي للحياة العقلية لصاحب الحلم، وباعتبار أنه نذير سوء وينبئ عما قد يتعرض له الحالم في المستقبل إذا لم يبادر بعلاج نفسه بالتحليل. فقص الشعر في الحلم يصح اعتباره

عرضاً (**Symptom**) ونذيراً. يصح اعتباره عرضاً يدل على الخوف من الإخصاء، أو يدل على شدة وطأة السلطة الداخلية الممثلة للوالد وهي الضمير أو الذات العليا، أو يدل على الوهن... ويصح اعتباره نذيراً وتحذيراً نتيجة توفر هذه الاستعدادات والدوافع. ومن الخطأ أن يقابل هذا الحلم بعدم الاكتراث.

هذا الحلم تنبئ لأن دلالته ذاتية تخص صاحب الحلم، وتدل على شيء مخبأ في سريرة نفسه ينتمي إلى حياته العقلية. على حين أن سقوط السن في الحلم لا يمكن أن يكون تنبئياً، لأن دلالته غيرية.. على وفاة قريب. وأعمار الأقارب لا يمكن التنبؤ بها، فالأعمار بيد الله.

ولتفسير التطير من قص الشعر في الحلم لا بد من الرجوع إلى الحتمية في كلا المجالين الاجتماعي واللاشعوري. فخصلة الشعر تقترن بالسحر في المجال الاجتماعي، فهي بمثابة "الأتر" الذي يستخدم في الأغراض السحرية للربط أو إحداث العنة. ويقترن قص الشعر بمغزى خاص في المجال اللاشعوري وهو أنه رمز بديل للإخصاء، وهو التفسير المادي أو لفقدان القوة، وهو التفسير الوظيفي.

والعلاقة وثيقة بين التفسير الشعبي لقص الشعر في الحلم، والدلالة القديمة في التوراة في قصة شمشون، وطقوس البدائيين واعتقادهم في السحر والتطير، وتفسيرات المحدثين من رجال التحليل النفسي. وهذه العلاقة تبين أن الدلالة الشعبية القديمة إذا كانت قد خلدت في الميثولوجيا والفولكلور وتناقلتها الأجيال، فما ذلك إلا لأن لها وظيفة،

كما تنطوي على فراسة. فالدلالة التنبئية التي يقول بها ابن سيرين وهي قصر العمر أو ضعف البطش أو هتك السر، قد تكون هي ذاتها الدلالة فيما قبل الشعور على فقدان القوة والوهن. فلا يضعف بطشك لأنك حلمت بقص شعرك، وإنما حلمت بقص شعرك لأنك وهنت. وهذا التطابق بين القالب السيكولوجي الذي يتضمن الرمز ودلالته فيما قبل الشعور، والقالب الخارجي الذي يتضمن الرمز ودلالته الشعبية في المجال الاجتماعي في مستوى التفسير الوظيفي. وهناك تطابق آخر بين المجالين الاجتماعي واللاشعوري في مستوى التفسير المادي (شكل ٢) فالدلالة المتوقعة بأحداث العنة نتيجة استخدام الشعر في طقوس السحر، وقد تكون هي ذاتها الدلالة اللاشعورية على الإخصاء وهو أول وأهم أسباب العنة. وكلتا الحالتين نوع من الاستدعاء المتبادل للرمز ودلالتيه المادية والوظيفية بين المجالين الاجتماعي واللاشعوري، بما يشبه الحلقة المفرغة.

ومن يدرينا أن الساحر الذي يقص ذؤابة غيره ليربطه ليس عصابياً يحاول أن يفرض قوانين الحياة النفسية على العالم الخارجي، إيماناً منه بالقدرة المطلقة لفكره، وبأنه يستطيع أن يحدث حدثاً في العالم الخارجي بمجرد تفكيره فيه وتقليده للغرض المطلوب بطقوسه وشعوذته. إن الخوف من الإخصاء يعبر عن نفسه في ظاهرتين إيجابيتين هما، قص الذؤابة، وطقوس السحر. وفي ظاهرتين سلبيتين هما: العنة والتطير من قص الشعر في اليقظة أو في الحلم. وموقف من يقص الذؤابة أو من

يمارس السحر هو موقف الجاني. أما العنين والمتطير فموقفهما سلبي هو موقف المجني عليه. والفرق بين الجاني والمجني عليه في هذه الحالة كالفرق بين المنبسط والمنطوي، وكالفرق بين الهستيري والعصابي القهري... ولكننا لا نحمل الموضوع أكثر مما يطيق.

الفصل الثاني عشر
العثرة وكسر الخاتم

نتناول في هذا الفصل، من بين التفسيرات الشعبية القديمة للأحلام حلمين تنبئيين لهما نظير في الأفعال أو الحركات العرضية (Symptomatic Acts) لنقوم بتحليلهما تحليلاً نفسياً وتحليلاً وظيفياً. وسنبدأ كل مثال بالحركة العرضية.

المثال الأول، للعثرة:

إذا تعثرت أو زلقت، فلهذا الفعل العرضي في رأي رجال التحليل النفسي دلالة ويرمي إلى غرض؛ ودوافعه اللاشعورية هي التردد والإحجام والخوف من الفشل فيما كنت تنوي القيام به وقت تعثرك. فالعثرة لا تحدث اتفاقاً، وإنما يلوح وكأنها مقدرة ومحتمة لا شعورياً، وتنم عن تردد وتوجس للشر، أو تنم عن دوافع أخرى خاصة تنتمي للحياة اللاشعورية لمن تعثر أو زلت قدمه. ويتطير العامة من العثرة، ويعتبرونها نذير سوء ويتوجسون منها الشر. والتطير من العثرة اعتقاد قديم وذائع الانتشار. ومن الأمثلة المشهورة التي يرويها التاريخ لهذا النذير، أن وليم دوق نورماندي عندما وطئت قدمه لأول مرة شاطئ انجلترا، زلت قدمه وتعثر، فتطير من ذلك أتباعه[٢٤]. وما تطيرهم، في رأي التحليل النفسي إلا "سيكولوجياً

---

(٢٤) G. W. Valentine: "The New Psychology of The Unconscious", London, ١٩٣٢, p. ١٤١.

أسقطت في العالم الخارجي" فقد جاء تعثره مطابقاً لما يخالج نفوس أتباعه من رهبة وإشفاق من مصير الحملة المعلق في كفة القدر. ومعنى ذلك بقول آخر هو أن دلالة النذير الخارجية –وهي الإشفاق من الفشل، هي ذاتها الدلالة اللاشعورية– على التردد وتوجس الشر.

وفيما يلي حلم تنبئ ننقله عن ابن سيرين، فيه نفس الدافع، ونفس الرمز، وله نفس الدلالة؛ وهو "من رأي في الحلم انكسار رجله وهو يريد السفر، فليقم ولا يبرح." ص ٩١ ودلالة الرمز واحدة في المضمون الصريح لهذا الحلم وفي العثرة العارضة. فالرمز في كلتا الحالتين من النذر الباعثة على التطير. والدافع اللاشعوري كذلك واحد في كلتا الحالتين؛ بمعنى أن الأفكار الكامنة أفصحت عن نفسها برمز واحد في مجالين مختلفين: في المضمون الظاهر للحلم بكسر الرجل، وفي العثرة العارضة. والأهم من ذلك هو أن الدلالة التنبؤية في كلتا الحالتين، هي ذاتها الدلالة اللاشعورية.

والعثرة أو زلة القدم التي تبدو وكأنها حادث عشوائي أو خطأ غير مقصود، ليست في الواقع ظاهرة اتفاقية بل إن لها معنى أو حتمية وتنطوي على شيء مخبأ في نفس من تعثر أو زلت قدمه، وتنم عن دوافع لا شعورية ومخاوف أو نوايا مكبوتة. فقد تدل على التردد وتوجس الشر من السفر، أو تدل على الرغبة في نيل إجازة. وقد تحقق لفاعلها غرضاً وترمي إلى غاية. فيلتمس بها مغنماً ثانوياً، أو يتخذها ذريعة وعذراً مقبولاً للتخلف– على نحو ما جاء في المقامة الثالثة من مقامات الحريري:

تعارجــت لا رغبــة فــي العــرج ولكـــن لأطــرق بـــاب الفـــرج
وألقـــى حبلـــي علـــى غـــاربي وأســلك مســلك مــن قــد مــرج
فإن لا منى القـوم قلـت اعـذروا فلـيس علـى أعـرج مـن حـرج

وإذا ما عدل المتطير عن السفر لتعثره، وإذا ما عدل الحالم عن السفر لأنه حلم بانكسار رجله؛ فإن كليهما يكون أفضل منا نحن التحليليين! لأن تعثر الأول في حالة الصحو، وانكسار رجل الثاني في الحلم، يدل على وجود شك وتردد وتوجس للشر من السفر، وهو أمر غير مأمون العاقبة لمن كان على سفر. فكثير من حوادث التصادم أو السقوط التي تبدو قضاء وقدراً، لا ترجع للمصادفة، بل يكون لها غالباً دوافع لا شعورية، وتنطوي على حتمية أو سبق إصرار، وتتم طبقاً لخطة موضوعة لا شعورياً. وليس بمستغرب أن تجد من صدر عنه هذا الفعل العرضي، وهو العثرة؛ أو حلم بهذا الحلم وهو كسر الرجل- يسهم بنفسه لا شعورياً في جلب النتيجة المتوقعة.. فإذا حدث له حادث، بدا وكأن التطير من العثرة كان له ما يبرره، وبدا وكأن الحلم نذير.

مثل هذا الحلم -حينئذ- يمكن أن يكون تنبؤياً! لأن دلالته ذاتية تنم عن دواقع لا شعورية تخص الحالم، كأن تدل مثلاً على توجسه الشر من السفر. الذي قد يفصح عن نفسه في العثرة التي تحدث عفواً؛ وفي الحلم بكسر الرجل. وليس بمستغرب أن يؤدي استمرار هذا الدافع إلى ما لا تحمد عقباه، فيقع للحالم حادث يقول الناس فيه إنه قضاء وقدر، مع أنه محتم أو مقدر لا شعورياً. فالدافع اللاشعوري يؤدي إلى العثرة، واستمرار هذا الدافع قد يؤدي إلى حدوث مكروه. ففي حالة الجهل

بالدافع يبدو وكأن التطير من العثرة كان له ما يبرره. وكذلك الحال بالنسبة للحلم، فالدافع يوجد الحلم.. واستمرار وجود الدافع قد يحققه.. ففي حالة الجهل بالدافع، يبدو وكأن الحلم أنبأ بما حدث.

* * *

المثال الثاني، ضياع الدبلة:

لا يخفى على من له دراية بأبسط مبادئ التحليل النفسي مغزى ضياع خاتم الزواج من أحد الزوجين. يعتبر المتطيرون ذلك من النذر الباعثة على توقع الطلاق. ولا يعتبر أصحاب التحليل النفسي هذه الحادثة غير الإرادية مصادفة؛ وإنما لها دوافع لا شعورية وترمي إلى غرض، ومغزاها هو الرغبة في التحرر من هذا القيد، قيد الزواج أو الدبلة. وعلى ذلك فالدلالة الخارجية التي ينسبها المتطيرون لهذه الحادثة العرضية، هي ذاتها الدلالة اللاشعورية.

وبنفس الطريقة التي يعامل بها أصحاب التحليل النفسي مثل هذه الحوادث أو الأفعال العرضية، نعالج الحلم التنبؤي. وإليكم حلماً تنبئياً آخر فيه نفس الدافع، ونفس الرمز، وله نفس الدلالة: "حكى أن رجلاً أتى ابن سيرين فقال رأيت كأن خاتمي انكسر. فقال إن صدقت رؤياك طلقت امرأتك، فلم يلبث إلا ثلاثة أيام حتى طلقها" ص ٢١٤. ولا يستطيع القارئ أن يخفي دهشته وإعجابه بصدق فراسة ابن سيرين في اختبار دلالة الرمز. وهذه الدلالة واحدة في الحادثة العرضية، وهي فقدان الدبلة، وفي رمز الحلم. والدافع اللاشعوري لهما واحد كذلك–

هو الرغبة في التحرر من قيد الزواج. فكان الدافع اللاشعوري الواحد أفصح عن نفسه برمز واحد في مجالين مختلفين: في الحادثة العرضية وهي ضياع الدبلة، وفي المضمون الصريح للحلم بكسر الخاتم. وفي كلتا الحالتين الدلالة التنبئية للرمز هي ذاتها الدلالة اللاشعورية.

وليس بمستغرب أن يشترك في جلب النتيجة المتوقعة فعلاً من صدر عنه مثل هذا الحادث العرضي، ومن كان هذا هو حلمه. وضياع خاتم الزواج أو الحلم بكسره لا يرجع للمصادفة، وإنما يبدو أن هناك نوعاً من الحتمية السيكولوجية في الحركة العرضية، وفي الحلم. فكلاهما اتخذ هذه الصورة الرمزية بالذات لأنه يعبر عن دافع داخلي هو الرغبة في الطلاق. فلو لم يكن أحد الشريكين راغباً في الطلاق، لما أضاع خاتم الزواج– سهواً وبدون قصد؛ أو لما حلم بكسره أو بفقدانه.

ومثل هذا الحلم يمكن أن يكون تنبئياً! فإذا ما عمل الحالم على تحقيقه وأتم الطلاق، بدا وكأن الحلم كانت له دلالة على المستقبل. فالدافع أوجد الحلم.. واستمرار وجود الدافع.. حققه. ففي حالة الجهل بالدافع يبدو وكأن الحلم تنبؤي، أو أنه هاتف تحقق. إذا رغب رجل في طلاق زوجته، ثم حلم برمز يدل على طلاقها، ثم رمى عليها في ساعة من ساعات الغضب يمين الطلاق، بدا وكأن الحلم نذير وتحقق. وعلى ذلك فلن تطلق زوجتك لأن خاتمك انكسر في الحلم، أو لأنك أضعته، وإنما انكسر خاتمك في الحلم أو أضعته لرغبتك في الطلاق.

الفصل الثالث عشر

الضحك والبكاء في الأحلام

تؤول التفسيرات الشعبية القديمة هذه الأحلام بالضد. فالضحك في الحلم... بكاء وحزن. والبكاء في الحلم... فرج وفرح. وطريقة تأويل الأحلام بالضد من الطرق الشعبية المعروفة الواردة في الكتب القديمة لتفسير الأحلام. ومن المحدثين من رجال التحليل النفسي من يأخذ بهذه الطريقة، وفي مقدمتهم فرويد الذي يرى أن هذه الطريقة ممكنة بفضل ميكانيزم "القلب– **Inversion**" وهو حيلة لا شعورية يبدل بها الرقيب المضمون الكامن إلى عكسه في المضمون الصريح. مثل قلب البكاء إلى ضحك. ويأخذ يونج بهذه الطريقة كذلك. إذ يرى أن للأحلام قيمة تعويضية ويتمثل فيها الجانب الذي أغفله الحالم من شخصيته. أما شتيكل فيقول إنه لم يعد يأخذ بطريقة التأويل بالضد، ويرفض الآن أن يقلب ظاهر الأحلام باطناً ليصل إلى مغزاها. وفيما يلي أمثلة للضحك والبكاء في الأحلام.

الضحك في الحلم:

يتفق التحليل النفسي لهذا الحلم مع تأويله الشعبي من حيث دلالة الرمز وباعتبار هذه الدلالة على الدوافع اللاشعورية، لا على القيمة التنبئية.

وفي تفسير ابن سيرين: "الضحك في الحلم، حزن" ص ٨. وفي موضع آخر: "التبسم صالح فإذا خرج إلى القهقهة صار بكاء وحزناً." ص ٢٩٣ وهذا التأويل قديم ذائع الانتشار. وقد ذكرت ماري أرنولد فورستر هذا التأويل: "احلم بالفرح، واستيقظ للحزن[٢٥]" كمثال للتفسيرات الشعبية المنتشرة في الريف الإنجليزي. والظاهر أن توجس الشر من الضحك خرافة قديمة. ألا ترى أن من عادة العامة إذا ما ضحكوا كثيراً، انبرى أحدهم قائلاً: "اللهم اجعله خيراً" حيث إن الإفراط في الضحك، يعقبه فيما يلوح نكد متوقع؛ وكأنما لكل فعل رد فعل مساو له ومضاد في الاتجاه. ومن المشاهد المألوفة كذلك أن ينتهي لعب الأطفال وضحكهم، بالشجار والبكاء.

ويأخذ فرويد بطريقة التفسير بالضد. ويرى أنها ممكنة بفضل الإبدال الذي يقوم به الرقيب. ويوضح فرويد قدرة الرقيب على "قلب" الحالة الوجدانية إلى ضدها في الحلم التالي، وهو لرجل مسن مريض أيقظته زوجته لأنه كان يضحك في نومه بصوت مرتفع. ويروي هذا الرجل الحلم فيقول:

"كنت في فراشي، عندما حضر زائر. وأردت أن أضيء النور، فلم أستطع. وحاولت ذلك مراراً، دون جدوى، وقامت زوجتي لتحاول بدورها إضاءة النور، فلم تستطع هي الأخرى؛ الأمر الذي أخجلها أمام الضيف.

---

(٢٥) Mary Arnold- Forster; "Studies In Dreams"; Allen and Unwin, ١٩٢١, p. ١١٨.

ولما يئست عادت إلى فراشها. وكان هذا مثيراً للضحك. فاستغرقت فيه حتى استيقظت."[٢٦] وقد انتابه الاكتئاب وأحس بالصداع في صبيحة اليوم التالي.

والضحك في هذا الحلم يثير الإشفاق ويدعو إلى الرثاء– وشر البلية ما يضحك. فزائر الليل هو الموت. وعدم قدرته على إضاءة النور ترمز إلى عنته، فشعلة الحياة هي التي لم يستطع إضاءتها. أما الضحك فهو بديل للبكاء.

وفي هذا المثال "قلب" الرقيب الحالة الوجدانية. فالمضمون الكامن بكاء، أبدله الرقيب في المضمون الصريح إلى عكسه وهو الضحك. والتأويل الشعبي للضحك في الحلم هو توقع الحزن والبكاء. ومن الناحية المنهجية، يصح أن ننعم النظر في هذه المعادلة:

حيث إن الدلالة التنبؤية (البكاء) عكس المضمون الصريح (الضحك) .

والمضمون الكامن عكس المضمون الصريح

∴ المضمون الكامن= الدلالة التنبؤية.

وعلى ذلك فالاحتمال كبير في بعض التأويلات الشعبية أن تكون الدلالة التنبئية، دلالة لا شعورية. بمعنى أنك لا تبكي أو تحزن لأنك

---

(٢٦) **Freud: "The Interpretation of Dreams"; Allen and Unwin, ١٩٥٠, p. ٤٣٧.**

ضحكت في الحلم؛ وإنما ضحكت في الحلم من شر ما أنت فيه من بلاء.

البكاء في الحلم:

يقبل هذا الحلم تأويلين: أحدهما تأويل "مادي"، والآخر تأويل "وظيفي".

التأويل المادي: تأويل جنسي. فالدموع رمز بديل للمنى– إذا أخذنا في الاعتبار "الإبدال من أسفل إلى أعلى" وهو حيلة لا شعورية يتخفى بها المغزى الجنسي باستبدال أجزاء في النصف الأعلى من الجسم ليس منها حرج كالدموع، بأجزاء في النصف الأسفل منه. ومن أمثلة هذا الحلم ما رواه لي صديق، رأى أنه: "يقبل خطيبته وهو يبكي."

التأويل الوظيفي: يسترشد بالدلالة الشعبية القديمة ممثلة في تفسير ابن سيرين القائل بأن البكاء في الحلم بشير بالفرج ص ٢٩٣. وليس من محض المصادفة اختيار هذه الدلالة. فهي تتفق تماماً مع الأسطورة المصرية القديمة التي تنسب فيضان النيل إلى الدموع التي تسكبها إيزيس حزناً على زوجها أوزيريس. والأسطورة كما قيل بحق هي "حلم الشعب". وعندما يأتي الفيضان يعم الفرج والرخاء. وسبب هذا الفرج بكاء إيزيس. وظلت الأسطورة القديمة حية في تراثنا الميثولوجي، وبدت في تأويل العامة للبكاء في الحلم بأنه بشير بالفرج.

والبكاء في الحلم تطهير للنفس. وله في النفس وقع كوقع التراجيدا، التي تشاهدها على المسرح ونبكي منها، ومع هذا نشعر

بعدها بالارتياح. وقديماً قال أرسطو إن وظيفة التراجيدا هي تصريف الانفعالات وتطهير النفس. وكذلك البكاء في الحلم تنفيس عن الانفعالات المكبوتة وتفريغ لها، مما يجعل النفس في أحسن الحالات وأكثرها استعداداً لترقب الأشياء السارة والتعرف عليها. أي يجعل النفس تتطلع إلى الفرج.

وقد تكون الدلالة التنبؤية في التأويل الشعبي هي ذاتها الدلالة اللاشعورية بمعنى أنه: لا يحدث الفرج لأنك بكيت في الحلم؛ وإنما بكيت في الحلم لتطلعك إلى الفرج. والميكانيزم أو الحيلة اللاشعورية هنا هي "النكوص **Regression**" أي الارتداد في الحلم إلى مرحلة الطفولة الأولى حينما كان نيل المطالب بالبكاء.

هذه هي الحتمية السيكولوجية التي أدت إلى اختيار دلالة البكاء في الحلم بأنها فرج. أما عن القيمة التنبؤية، فيمكن تفسيرها في ضوء الشرطية. فالبكاء وإن كان تعبيراً عن انفعال الحزن، إلا أننا نبكي أحياناً من شدة وقع الأنباء السارة المفاجئة. وفي هذا المعنى قال الشاعر:

هجم السرور عليّ حتى إنه ... من فرط ما قد سرَّني أبكاني
يا عين قد صار البكا لك عادة ... تبكين من فرح ومن أحزان

ومن الممكن –كما هو معروف– تكوين استجابة مكتسبة شرطية شاذة بالضحك في موقف مؤلم، أو بالبكاء في موقف سار. ومن الطريف أن البكاء عند سكان جزر أندمان (في خليج بنغال شرق الهند) من علامات الفرح. وطريقتهم في التحية والسلام هي البكاء، الذي يقابل

عندنا المصافحة باليد[٢٧]. والأسطورة الفرعونية القديمة التي ترسبت في نفوسنا والتي تكمن وراء أحلامنا تقول إن من دموع إيزيس تفجر فيضان النيل، وكذلك من دموعنا يكون الفرح والفرج. كذلك يستبشر العامة من بكاء الوليد ويتفاءلون به. ويلوح أن اقتران البكاء ودلالته بحوادث المصادفة الخارجية، وتكرار اتفاق المصادفة بأن يأتي اليسر والفرج بعد البكاء في الحلم، يؤدي إلى تثبيت الاستجابة المكتسبة الشرطية.

---

(٢٧) ص **٤٩٣** و**٤٩٩** من كتاب:

Chapple and Coon: "Principles of Anthropology"; Yew York, Holt, ١٩٤٧.

الفصل الرابع عشر

الصعود والسقوط في الأحلام

الحلم بصعود السلالم أو بارتقاء تل... والحلم بالسقوط في هاوية أو بنزول السلالم أو بالهبوط من جبل... من الأحلام الشهيرة التي يحلم بها كثير من الناس. وتقبل هذه الأحلام تفسيرين: أحدهما "مادي"، والآخر "وظيفي".

التفسير المادي: تفسير جنسي، يمثله تفسير فرويد القائل بأن صعود السلالم أو الهبوط عليها تعبير عن العملية الجنسية[٢٨].

أما التفسير الوظيفي: فيسترشد بالدلالات الشعبية التنبئية القديمة التي تعبر الصعود في الحلم.. بأنه رفعة. والسقوط أو الهبوط.. بأنه ينذر بالفشل أو الهزيمة. والتفسير الوظيفي يرى أن الدلالة التنبئية قد تكون هي ذاتها الدلالة اللاشعورية. بمعنى أن الدافع إلى الصعود في الحلم، قد يكون الرغبة في التفوق والرفعة. والدافع للسقوط أو الهبوط في الحلم، قد يكون الخوف من الإخفاق والفشل. والحيلة اللاشعورية في كلتا الحالتين هي "التصوير المسرحي".

وفيما يلي التحليل النفسي والتحليل الوظيفي لهذه الأحلام.

---

(٢٨) S. Freud: "Introductory Lectures On Psycho- Analysis"; Allen & Unwin, ١٩٤٩, p. ١٦٤.

الصعود في الحلم:

التفسير المادي: يؤول فرويد هذا الحلم وفقاً لاتجاهه في تغليب الناحية الجنسية. فيرى أن صعود السلالم تعبير عن الجماع في أغلب الحالات. والحلم التالي يبين كيف تتنكر العملية الجنسية في صورة رمزية هي صعود السلالم.

مدرس أعزب في مدرسة ثانوية للبنات. حلم أنه يصعد السلم الرئيسي في المدرسة الموصل إلى الدور الثاني. وفي نهاية السلم وقفت تلميذة صغيرة في السنة الأولى، لم تكن على شيء من الجمال. وعندما وصل إلى نهاية السلم، استيقظ وهو يحتلم.

يؤيد هذا الحلم صحة المغزى الجنسي لصعود السلالم، بدليل أنه انتهى بالاحتلام. كما يبين أن الموضوع الذي تستهدفه الرغبة الجنسية للحالم، قد يكون أبعد ما يكون عما يشتهيه في حياة اليقظة.

وإذا اصطنعنا طريقة أدلر في تفسير الصعود في الحلم، بدا وكأنه يعبر عن الطموح والرغبة في الرفعة والتطلع إلى السيطرة. وبذلك يقترب من التفسير الوظيفي.

التفسير الوظيفي: يسترشد بالتأويل الشعبي القديم الذي يرى الصعود في الحلم تمثيلاً وتجسيماً للارتقاء والرفعة الذي سيحدث في المستقبل. فقد جاء في الكتاب المصري القديم لتعبير الأحلام عند قدماء المصريين: "من يتسلق سارية سفينة رفع الإله من شأنه." وعند مفكري الإسلام: كل صعود يراه الإنسان إلى جبل أو عقبة أو تل أو

سطح أو غير ذلك ينبئ عن قضاء المطالب والحاجات.. ومن صعد جبلاً نال عزاً ورفعة وشرفاً عظيماً.

وإذا ما نحينا جانباً القيمة التنبؤية للصعود في الحلم، تبينا أن الدلالة في حد ذاتها لا تخلو من فراسة. فقد تكون الدلالة التنبئية القديمة، هي ذاتها الدلالة اللاشعورية. بمعنى: أنك لا تترقى أو ترتفع لأنك صعدت في الحلم، وإنما صعدت في الحلم لطموحك ورغبتك في الرفعة وتطلعك إلى العلا. وليس بمستغرب مع هذا أن يصل الإنسان بطموحه فعلاً، إلى ما كان يحلم به ويتطلع إليه!

السقوط في الحلم:

من الناس من يحس وهو نائم أنه يسقط من شاهق في هوة سحيقة لا قرار لها، ثم ينجو من الارتطام بالأرض بالاستيقاظ فجأة. ويبدو السقوط في الحلم وكأنه أمر واقع فينخلع له قلب النائم ويناله منه ذعر وهلع لا يحس بهوله إلا من يكابده. وقد ينزع هذا الحلم إلى التكرار فيعاود النائم من ليلة إلى أخرى بصورة متشابهة. وهو في العالم حلم قصير. وينتهي دائماً بالاستيقاظ.

وحلم السقوط وإن كان متشابهاً تقريباً في شكله عند مختلف الناس، فمغزاه يختلف من شخص إلى آخر. ويقبل هذا الحلم التأويل على مذاهب شتى: فقد يكرر حلم السقوط حوادث السقوط التي سبق أن تعرض لها الحالم في حياته. وبصفة خاصة الحوادث التي ترجع إلى مرحلة الطفولة. فمن المعروف أن "فقدان السند" من أهم مثيرات الخوف

عند الطفل في المهد. ولذلك فإن حوادث السقوط وما يصاحبها من أحاسيس قد تترك في نفس الطفل في الصغر انطباعات يستدعيها حلم السقوط في الكبر.

التفسير المادي: ويؤول فرويد أحلام السقوط عند النساء وفقاً لاتجاهه في تغليب الناحية الجنسية فيقول إن هذه الأحلام يسهل تفسيرها بالمعنى الرمزي للسقوط الذي يبدو في الإشارة إلى المرأة الساقطة. وبذلك قد يحمل سقوط المرأة في الحلم معنى الرغبة في الاستسلام للإغراء الجنسي، أو الخوف من الزلل الحلقي.

ويؤول أدلر هذا الحلم وفقاً لاتجاهه في تأكيد أهمية دافع الشعور بالقصور والرغبة في التعويض والتطلع إلى السيطرة، فيقول إن حلم السقوط قد يعبر عن الخوف من الهزيمة والفشل في الحياة، أو عن الرغبة في اتقاء الزلل.

والتفسيران الأخيران يعتبران دوافع حلم السقوط في الماضي. وهناك تفسير شعبي قديم يضفي على هذا الحلم دلالة تنبؤ بالمستقبل. ويمثله تفسير ابن سيرين الذي يقول: "إن السقوط من السماء بعد صعودها دل بعد عز... كما يدل على تغير الأمر وتعذر المراد." ونجد هذه الدلالة ذاتها في تفسير أرطميدورس القائل بأن نزول السلالم يدل على الهبوط إلى مستوى طغام الناس.

ويتضح من مقارنة التأويل الشعبي بالتأويل العلمي أن ما ينسبه التأويل الشعبي للخارج وللمستقبل، قد يكون هو نفسه الدافع الداخلي

اللاشعوري. فالدلالة التنبؤية للسقوط قد تكون هي ذاتها الدلالة اللاشعورية. بمعنى أنه لا يتغير الحال ويتعذر المراد لمن سقط في الحلم، وإنما يكون سقوطه في الحلم تمثيلاً وتجسيماً للخوف من الفشل في الحياة أو السقوط في أعين الناس.

ويروي شتيكل حلماً كان يتكرر لأحد مرضاه. وفي هذا الحلم كان المريض يحلم بأنه يصعد سلماً حائطياً، ويشعر في أثناء ذلك بالخوف من السقوط. ويؤول شتيكل هذا الحلم وفقاً لاتجاهه في إيجاد علاقة بين الحلم والمرض النفسي وعملية التحليل النفسي. فالسلم يمثل مراحل في حياة المريض وكل درجة منه تمثل سنة أو مرحلة في حياته. وخوف المريض من السقوط هو الخوف من استعادة ذكريات من مرحلة الطفولة أثناء عملية التحليل النفسي[٢٩]. ومن الطريف أن ابن سيرين أدرك بفراسته هذه الدلالة لنزول الدرج فيقول: "إن الدرج هو أيام العمر التي تنقضي" ص ١٩٣.

ويقول ابن سيرين في موضع آخر: "ومن رأى كأنه سقط من حائط أو سماء أو جبل، دل ذلك على غضب الله تعالى عليه.. لقول الله تعالى ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى." ص ٢١.

التفسير الوظيفي: يوحي إلينا هذا المعنى بتفسير آخر لحلم السقوط وهو أنه قد يكون من فعل الضمير. وقد تعلمنا من دراستنا

---

(٢٩) W. Stekel: "The Interpretation of Dreams"; Liveright, ١٩٤٣, Vol. II. p. ٥٥٥.

للكابوس أن الضمير جبار شديد البأس، وأنه إذا تخلى عن ذات الحالم فإنها تضيع وتعاني من مخاوف غامضة كالخوف من الموت، والخوف من الوحوش الأسطورية، والسير في دوامة أو في متاهة في الأحلام. ويلوح أن للضمير دخلاً كبيراً في حلم السقوط. فإذا ما تخلى ضمير الحالم عن ذاته أثناء النوم فإنها تفقد السند المعنوي، وتهوى في الحلم إلى أسفل سافلين، وتعاني من القلق الشديد، ويستولي عليها الذعر والفزع، ولا تنجو من سوء المصير إلا بالاستيقاظ. فالسقوط في الحلم قد يعبر عن تخلي ضمير الحالم عن ذاته أثناء النوم.

وحيث إن الدلالة التنبئية هي ذاتها الدلالة اللاشعورية.

∴ فالعلاقة بين رمز الحلم ودلالته التنبؤية= العلاقة بين المضمون الكامن والمضمون الصريح للحلم.

وحيث إن العلاقة بين رمز الحلم ودلالته التنبئية هي علاقة التشابه.

∴ فالعلاقة بين المضمون الكامن والمضمون الصريح للحلم هي أيضاً علاقة تشابه.

وفعلاً ينطوي "التمثيل المسرحي" وهو الحيلة اللاشعورية التي تتحول بها الأنكار الكامنة إلى المضمون الصريح للحلم على علاقة التشابه.

* * *

ومن الناحية المنهجية يصح أن نتذكر:

* إن التفسير المادي هو التفسير الجنسي، ويمثله تفسير فرويد.

* إن التفسير الوظيفي لشتيكل يقوم على إيجاد علاقة بين الحلم والمرض النفسي وعملية التحليل النفسي.

* أما التفسير الوظيفي –كما نستخدمه هنا– فيتخذ نقطة البدء التفسير الشعبي القديم للحلم، ويعني بإيجاد العلاقة بين رمز الحلم ودلالته القديمة من ناحية، ودلالة هذا الرمز في الأديان أو الأساطير أو الطقوس... من ناحية أخرى.

* معنى "الوظيفة" عند شتيكل هو العلاقة بالعصاب أو المرض النفسي– أما "الوظيفة" عندنا فهي العلاقة بالتراث الميثولوجي.

* التحليل النفسي يعني بدلالة الرمز في المجال اللاشعوري.

أما التحليل الوظيفي –كما نستخدمه– فيعني بدلالة الرمز في المجال الاجتماعي.

* التحليل النفسي يعني بالمضمون الكامن للحلم.

أما التحليل الوظيفي فيعني بالمضمون الصريح للحلم، وبأثر الضمير في صورته الأخيرة.

* أما التحليل النفسي يصل إلى المغزى اللاشعوري.

أما التحليل الوظيفي فقد لا يصل إلا إلى الدلالة الواقعة في طبقة ما قبل الشعور.

الفصل الخامس عشر

الميلاد والموت

"منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى."

قرآن كريم

الميلاد حدث يمر به البشر جميعاً. والانتقال من حياة الجنين إلى حياة الوليد يصحبه من الألم والتغيرات الفسيولوجية والبيئية الحادة، ما يترك في نفس الوليد أثراً عميقاً باقياً. فالجنين ينعم في الرحم بالدفء والراحة والهدوء، ويجد كل احتياجاته... ثم يتعرض الوليد أثناء عملية ولادته لخبرة مؤلمة، ويخرج إلى عالم يختلف كل الاختلاف عن الوسط الذي كان يعيش فيه. وهذه الخبرة المؤلمة التي يتعرض لها الوليد أثناء ولادته يسميها علماء التحليل النفسي "صدمة الميلاد- **Birth Trauma**" فالميلاد أول صدمات الحياة. وتعتبر صدمة الميلاد النموذج الأول الذي على صورته تكون ضروب الحصر أو الاستجابات القلقية التي تصاحب صدمات الحياة التالية.

وتعبر صدمة الميلاد عن نفسها في نوعين من الأحلام هما: أحلام الميلاد، وأحلام الموت- برموز خاصة أهمها:

أحلام الميلاد	}	١- الخروج من الماء. ٢- المرور في نفق ضيق.
أحلام الموت	}	٣- الدفن حيا. ٤- وحوش الأعماق.

أحلام الميلاد

للأحلام والكوابيس التي تعبر عن صدمة الميلاد طابع خاص ينم عنها. ومن أهم الرموز التي تعبر عن صدمة الميلاد في الأحلام: الخروج من الماء، والمرور في نفق ضيق.

١- الخروج من الماء:

"وجعلنا من الماء كل شيء حي"

قرآن كريم

الميلاد في الأحلام له علاقة بالماء. فالخروج من الماء أو السقوط فيه رمز لعملية مولد الحالم. وكذلك الغرق أو النجاة من الغرق في الأحلام له دلالة الميلاد. ومن الأدلة على هذه الدلالة وجود الجنين في الرحم في وسط مائي هو السائل الأميني. فالماء أو البحر رمز للرحم، أو رمز للأم. وفي اللغة الفرنسية كلمتا (Mère) بمعنى البحر (Mer)

بمعنى الأم. والخروج من الماء له في العقائد والأساطير دلالته الميلاد. فكثيراً ما يقترن مولد الأبطال في الأساطير والأديان بالخروج من الماء كما في قصة ميلاد حوريس الذي ربته أمه إيزيس في الخفاء بين أعشاء مستنقعات الوجه البحري. ومولد فينوس التي خرجت من المحيط في إحدى الأصداف. ومولد موسى النبي إذ التقطته امرأة فرعون من صندوق طاف على وجه الماء. وتروي الأساطير كذلك أن كل من تنجي طفلاً من الغرق تصبح في منزلة أمه؛ لأن إخراجها الطفل من الماء بمثابة ولادته. لذلك انعقد إجماع المشتغلين بتحليل الأحلام على أن الماء في الأحلام له علاقة بالميلاد. ومن الطريف أن ابن سيرين أدرك هذه العلاقة، فهو يقول: "والماء في قدح زجاج ولد، فإن انكسر القدح وبقي الماء ماتت الأم وبقي الولد. وإن ذهب الماء وبقي القدح مات الولد وبقيت الأم." ص ٢٢١. ولا يعنينا من هذا التفسير القيمة التنبئية له عمن يموت وعمن يبقى. وإنما الذي يعنينا هو دلالة التأويل –أي علاقة الولادة بالماء– وهي لا تخلو من فراسة.

٢- المرور في نفق ضيق:

ومن أهم الرموز التي تعبر عن صدمة الميلاد في الأحلام المرور في نفق ضيق، أو ممر مظلم، أو طريق مقبي. ويجاهد الحالم لكي يخلص نفسه من خلال هذه الأنفاق أو الفتحات الضيقة، ويشعر أثناء ذلك بحصر وقلق شديد. وهذا النوع من الأحلام ينتاب العصابيين الذين يعانون من الخوف من الأماكن المغلقة (**Claustrophobia**) بصفة

خاصة. وقد ذكرنا كثيراً من أمثلة هذه الأحلام في كتاب "الكابوس".

والكابوس التالي لعصابي يعاني من الخوف من الأماكن المغلقة يقول: "اعتدت أن أحلم بطريق مظلم ضيق كالنفق، ازحف فيه على بطني، واعتصر نفسي بجهد كبير لأنفذ من خلاله."

وجهاد الحالم للخروج من الفتحة الضيقة تصوير لعملية مولده. والنفق رمز للرحم.

ومن الغريب أن رمزية الميلاد هذه تظهر للذين يشرفون على الموت، ثم يسعفون بحقنهم بالإدرنالين. فهم يتذكرون أنهم أثناء غيبوبة الموت يشعرون وكأنهم مسيرون في نفق مظلم، ينتهي طرفه بفتحة باهرة الضوء. وهذه الصورة التي ترمز إلى الميلاد، تتفق تماماً مع ما يعانيه الوسطاء الروحيون أثناء الغيبوبة. وتتفق مع ظهور رمزية الميلاد في أحلام الموت.

أحلام الموت

والأحلام المزعجة التي يعاني فيها الحالم الخوف من الموت ويبدو له وكأنه يشرف على الموت ويعاني غيبوبته وسكراته من نوع الكابوس الذي يجثم على الصدور وتنخلع من هوله القلوب. ومن أمثلتها أحلام الدفن حياً في تابوت مغلق أو في قبر أو كهف. وأحلام الشنق والاختناق. والأحلام التي يبتلع الحالم فيها وحش من وحوش الأعماق كالحوت، أو التي يلف فيها إخطبوط أطرافه حول الحالم ويغوص به في الماء.

والموت في هذه الأحلام غالباً ما يكون رمزاً للميلاد. فالتابوت أو

القبر أو الكهف أو الحجرة قد تكون رمزاً للرحم. ومثلها كمثل الأنفاق والفتحات الضيقة، وكمثل الماء والبحر، وكمثل وحوش الأعماق كلها رموز للرحم. وعلى ضوء دراستنا لهذا النوع من الأحلام في كتاب "الكابوس" بينا أن كابوس الموت سواء بالدفن حياً في تابوت أو قبر أو كهف، أو بالشنق أو الاختناق، أو بابتلاع أحد وحوش الأعماق للحالم– يقبل تفسيرين: أحدهما تفسير مادي على أساس صدمة الميلاد، والآخر وظيفي على أساس تخلي ضمير الحالم عن ذاته وعقابه لها أثناء النوم، وسنكتفي بذكر مثالين من هذه الأحلام[٣٠].

٣- الدفن حياً في تابوت مغلق:

سيدة في نحو الخمسين من عمرها انتابها الكابوس التالي، رأت:

"كأنها ميتة ومسجاة في تابوت مغلق، ولكنها لا تزال على قيد الحياة." وشعرت أثناء ذلك برعب هائل وقلق شديد وانتفضت من نومها فزعة مذعورة.

والمضمون الصريح لهذا الكابوس هو تمثيل الموت ومعاناة الحصر الشديد من هوله. أما المضمون الكامن فهو الميلاد. فالحي في التابوت المغلق، هو الجنين في الرحم. فالدفن حياً في تابوت مغلق تعبير عن صدمة الميلاد. ويؤيد هذا التفسير أقدم الاعتقادات على الإطلاق، كما تبدو في عادات الدفن في عصور ما قبل التاريخ. فقد كان الميت يوضع

(٣٠) انظر أمثلة كوابيس الدفن في القبر، والدفن في كهف، والشنق، والاختناق، والإخطبوط في كتاب "الكابوس".

في القبر في وضع "مقرفص" يشبه وضع الجنين في بطن أمه، حتى يبعث حياً ويولد في الحياة الآخرة. وفي طقوس تصيب المراهقين عند الجماعات البدائية، يوضع الفتى في تابوت أثناء هذه الطقوس. وهذا تمثيل رمزي لوفاته وإعادة بعثه. وفي الرهبنة المسيحية يوضع الراهب عند تنصيبه في تابوت، ويصلي عليه صلاة الموتى، ليموت عن العالم الدنيوي، ويبعث في عالم أفضل. فالموت رمز الحياة. ومن الطريف أن هذه الدلالة تتفق مع التأويل الشعبي القائل بأن: "من يمت في الحلم يكتب له عمر جديد." وهذه الدلالة مذكورة في تفسير ابن سيرين. فهو يقول: "من مات في الحلم من غير مرض ولا هيئة من يموت فإن عمره يطول." ص ٤٤ وهذه الدلالة قديمة وكانت معروفة عند قدماء المصريين. فجاء في الكتاب المصري الحقيقي للأحلام، "من يرى نفسه ميتاً، فهو يعيش حياة طويلة".

٤- وحوش الأعماق:

تتكرر رمزية الميلاد والموت في الكوابيس والأحلام التي تظهر في صورة وحش من وحوش الأعماق، كالحوت أو الإخطبوط.

فإذا رأى النائم أن حوتاً كبيراً ابتلعه في جوفه أو لفظه من جوفه، فإن دلالة هذا الحلم –كما في قصة يونس في جوف الحوت– هي تكرار صدمة الميلاد. فالخروج من جوف الحوت، كالخروج من الماء تعبير عن الميلاد. وهذا هو التفسير المادي.

أما التفسير الوظيفي فلا يعتبر صدمة الميلاد نهاية التحليل بالنسبة

لكابوس وحوش الأعماق. ويرى أن هناك سبباً دفيناً ودافعاً كامناً يؤدي إلى تكرار معاناة الحصر الذي سبق أن عانته الذات أثناء الميلاد. وهذا الدافع هو شدة وطأة الضمير على الذات. فيتقمص الضمير صورة الحوت الذي يبتلع الذات فيذيقها الموت، أو يلفظها من جوفه فيكرر ميلادها. وهذا هو التفسير الوظيفي لقصة يونس في جوف الحوت، وللحلم المزعج الذي يبتلع فيه الحالم حوت أو يلفظه فيه من جوفه.

ويبدو أن هذا هو نفس الدافع في قصة "موبي ديك– **Moby Dick**" وهو اسم حوت أبيض كبير. فقد صنع أحد البحارة تابوتاً من الخشب كان له الفضل في نجاة بطل الرواية –الذي تروى القصة عن لسانه– حين أغرق الحوت السفينة وأهلك جميع بحارتها، عدا راوي الرواية وبطلها الذي تعلق بالتابوت عندما طفا على وجه الماء.

وتحمل الرموز في هذا الجزء من القصة دلالة الميلاد والموت. فنجاة البطل من الحوت وخروجه من الماء تعبير رمزي عن ميلاده ونجاته. والتابوت رمز الموت هو وسيلة النجاة والحياة والخروج من الماء وكأنما ولد من جديد أو كتب له عمر جديد.

الميلاد والموت

وإذا كان الموت في الحلم يرمز للميلاد، فإن عكس ذلك لا يحدث. فلا تظهر في أحلام الميلاد رموز تعبر عن الموت، لأن علم الساعة عند الله وحده، لم يطلع عليه أحد جهراً، ولا بالرموز. فليس هناك حلم تنبئ ينذر بالموت.

والميلاد والموت قطبا الحياة يبدوان في الأحلام، وفي طقوس الدفن في فجر التاريخ، وفي طقوس تنصيب المراهقين عند البدائيين، وفي الرهبنة المسيحية وفي العقائد، وفي التأويل الشعبي منذ قدماء المصريين القائل بأن من يمت في الحلم يكتب له عمر جديد.. مثل هذه العلاقات تحملنا على الاهتمام بالدلالات القديمة للأحلام، وعدم استبعادها بدعوى أنها خرافات.

الفصل السادس عشر

وفاة الأهل في الأحلام

"وأعداء الإنسان أهل بيته"

"إنجيل متى– الإصحاح العاشر، فقرة ٣٦"

الحلم بوفاة أحد أفراد العائلة: الأب أو الأم أو الأخ أو الأخت أو الابن أو أحد الأقارب من الأحلام التي تدعو إلى الدهشة والتطير ويحلم بها كثير من الناس. وقد بدأت دراسة هذه الأحلام في كتاب "الكابوس" باعتبارها أحلاماً مزعجة. ورأيت أن أواصل دراسة هذه الأحلام في هذا الكتاب، باعتبارها أحلاماً نموذجية ذات دلالات تنبئية، وتقبل تأويلات مادية وأخرى وظيفية.

يميز فرويد[٣١] بين طائفتين من هذه الأحلام. في الطائفة الأولى لا يتأثر الحالم على وفاة قريبه في الحلم ولا ينفعل انفعالاً يذكر. وفي الطائفة الثانية يشعر الحالم بحزن عميق على وفاة الشخص المحبوب في الحلم، حتى إنه يبكي وينتحب في نومه. ويعتبر فرويد هذه الطائفة من الأحلام النموذجية ويرى أنها تنم عن رغبة لا شعورية مكبوتة في وفاة هذا القريب. ولا يشترط أن تكون هذه الرغبة قبيل حدوث الحلم. فقد تكون رغبة قديمة مكبوتة ترجع إلى مرحلة الطفولة. وتمتاز هذه الطائفة من

---

(٣١) S. Freud: The Interpretation of Dreams"; pp. ٢٤٢- ٢٦٠.

الأحلام بخاصية فريدة في بابها وهي أنها تظهر سافرة دون قناع. فالرغبة اللاشعورية المكبوتة في وفاة القريب تفلت من الرقيب وتفصح عن نفسها كما هي بدون تغيير. أما الطائفة الأولى غير المصحوبة بانفعال، فلم يذكر فرويد لها إلا مثالاً واحداً، ثم أغفل هذه الطائفة لأنها غير نموذجية. أو لعله أغفلها لأنها لا تقبل التأويل على أساس العقد. وقد استوقف نظرنا هذا المثال، واستطعنا تفسير مجموعة كبيرة من الأحلام بوفاة الأقارب مهتدين بتفسير فرويد لهذا المثال. وهو حلم عرضته فتاة على فرويد متحدية به قوله إن الحلم يعبر عن رغبة مكبوتة. وكانت هذه الفتاة تعيش مع أختها المتزوجة الأكبر منها. وأشرفت على تربية ابني أختها: أوتو وشارل. وقد توفي أوتو من مدة. حلمت هذه الخالة "إن ابن أختها الوحيد شارل ميت ومسجى في تابوت وحوله الشموع، كما حدث تماماً عند وفاة أوتو" روت الفتاة هذا الحلم لفرويد وقالت له: هل تظن أنه بلغ بي السوء أن أتمنى وفاة ابن أختي العزيز؟

وبالتداعي الحر اتضح أن الحلم لا يعني أنها ترغب في موت ابن أختها شارل، وإنما يخفي الحلم رغبة أخرى هي رؤية الرجل الذي تحبه مرة ثانية، بعد أن حرمت مدة طويلة من مقابلته. وكان هذا الرجل قد حضر عند وفاة الطفل الأول (أوتو) وكانت جنازته هي المناسبة التي رأته فيها. فالحلم بوفاة (شارل) يكرر هذه المناسبة، فيحضر هذا الرجل مرة أخرى. فالحلم يفصح عن رغبتها في رؤية من تحب، وهذه الرغبة في المضمون الكامن لا تدعو إلى الحزن، ولذا كان الحلم غير مصحوب بانفعال.

ولنأخذ في الاعتبار -من هذا المثال- اقتران الوفاة بمغنم ثانوي يعود على الحالم من الوفاة. وباصطناع الطريقة المستخلصة من هذا المثال، أمكننا تفسير ما تجمع لدينا من أمثلة الأحلام بوفاة الأقارب، سواء أكانت مصحوبة أو غير مصحوبة بانفعال.

الحلم بوفاة الأخ

ليس هناك ما يدعو إلى افتراض أن العلاقة بين الإخوة والأخوات لا تنطوي إلا على الحب. فأمثلة العداء والكراهية بين الإخوة والأخوات مألوفة للجميع. وقد بين التحليل النفسي أن شعور الطفل نحو إخوته متناقض من الناحية الوجدانية فهو ينطوي على الحب والكراهية في آن معاً. ويكون الحب في الشعور الظاهر، وتكبت الكراهية في اللاشعور. وتفصح هذه الكراهية المكبوتة عن نفسها في الأحلام والعقائد والأساطير. ومنشأ هذه الكراهية هو ما يحس به الأطفال من الغيرة من بعضهم البعض لاشتراكهم جميعاً في حب الأم، فكل طفل منهم يود أن يستأثر بحب أمه دون سائر إخوته. والطفل في مرحلة الطفولة المبكرة أناني ويتمركز شعوره حول ذاته، والطفل الأكبر ينظر إلى أخيه الأصغر على أنه دخيل على العائلة، وأنه يقاسمه حب والديه، وأن عناية الوالدين ومحبتهما قد انصرفت إليه. أما الطفل الثاني فيثيره ما يتمتع به أخوه الأكبر من مميزات سبق أن نالها قبل أن يولد هو.

وعلى ضوء هذا الموقف يمكن تفسير العداء بين الإخوة الذي ذكرته الكتب المقدسة. فقصة مقتل هابيل الابن الأصغر بيد أخيه قابيل

تؤول على أنها ترمز إلى ما يتمتع به الأخ الأصغر في العادة بعد ولادته من حب والديه، وانصراف الأم إلى الاهتمام به وبالتالي حرمان الأخ الأكبر من ذلك الحب والاهتمام مما يولد في نفسه شعور الغيرة والكراهية نحو أخيه الأصغر، وهو ما يعرف في التحليل النفسي "بعقدة قابيل". ونفس هذا الدافع، وهو اعتقاد الابن الأكبر في إيثار والديه لأخيه الأصغر يظهر في التوراة في قصة يعقوب وعيسو. فعندما انتهى التنافس بينهما إلى سبق يعقوب وفوزه بعطف أبيه، ضاق أخوه الأكبر عيسو ذرعاً بذلك، وتنازل عن حقوقه كلها تخففاً من الضيق الذي أزهق أنفاسه.

وقياساً على ذلك يمكن تفسير حلم الأخ الأكبر بوفاة الأخ الأصغر –ولا سيما إذا كان الحلم مصحوباً بانفعال عنيف– بأنه ينم عن رغبة لا شعرية في موته، ظهرت سافرة دون إقناع، ويعبر عن "عقدة قابيل" وهي العقدة التي تتكون في نفس الطفل الأكبر نحو أخيه الأصغر.

وبنفس الطريقة يمكن تفسير حلم الأخ الأصغر بوفاة الأخ الأكبر بأنه تعبر عن "عقدة ست" وتروي الأسطورة المصرية القديمة أن ست قتل أخاه الأكبر أوزيريس بدافع الغيرة والحسد لما وصل إليه من مجد وسؤدد. وهذا تمثيل لما يحس به الأخ الأصغر في العادة من رغبات انفعالية عدائية نحو أخيه الأكبر، لما اختص به من امتيازات دونه. وقياساً على تفسير هذه الأسطورة يمكن تفسير حلم الأخ الأصغر بموت الأخ الأكبر بأنه ينم عن رغبة لا شعورية في موته، ويفصح عن "عقدة ست" وهي العقدة التي تتكون في نفس الطفل الأصغر نحو أخيه الأكبر.

وفيما يلي حلمان لشخصين مختلفين، كلاهما الأخ الأصغر، وكلاهما حلم بوفاة أخيه الأكبر.

الحلم الأول: ثلاثة إخوة (رجلين وامرأة) توفي والدهما عن ثروة كبيرة. وكانوا في نزاع دائم بخصوص الميراث. وكلهم متزوجون.

حلم الأخ الأصغر أن أخاه الأكبر في أثناء يوم العيد مات. ويجاور منزلهم منزل حما المتوفى الذي حضر وأبدي أسفه لأن خططه المتعلقة بالميراث قد انهارت. أما الأخت فلم يبد عليها أي أثر للحزن واستمرت في أعمالها العادية وفي ترتيب فساتين العيد الجديدة لبناتها. ولم يذرف عليه أحد دمعة واحدة. وكذلك الأخ صاحب الحلم لم يتأثر مطلقاً، حتى إن الجنازة سارت ولم يشترك فيها بل وقف على ناصية الشارع يرقبها وهي تسير.

التفسير المادي: يهتم بالمضمون الكامن للحلم، فيعبره على أساس "عقدة ست" أن يعتبره إفصاحاً عن الرغبة من موت الأخ الأكبر المكبوتة في لا شعور الأخ الأصغر.

التفسير الوظيفي، يعني بالمضمون الصريح للحلم، ويرى أن الملابسات المصاحبة للوفاة في الحلم غريبة وتحتاج إلى تأويل: فجنازة الأخ يوم عيد. وهي جنازة فاترة. ولم يذرف عليه أحد دمعة واحدة. وانصرفت الأخت إلى تجهيز فساتين العيد لبناتها. ولم يشترك الأخ في جنازة أخيه. فليست الوفاة هي العنصر الهام في الحلم، بل إنها قد تخفي رغبة أخرى هي الرغبة في الإقلال من شأن الأخ، وإثبات أنه ليس محبوباً من أحد. وأن أحداً لا يبكي عليه إذا مات ويخفي كذلك الطمع في الميراث.

الحلم الثاني: غريب فلاح أمي ساذج من صميم الريف في نحو الخامسة والعشرين من عمره، ويميل إلى المرح والدعابة. وهو الأخ الأصغر. حلم "أن عليا أخاه الأكبر مات، ولابس الجلابية الحرير – واستغرب في الحلم هل يظل من يموت بملابسه بدون كفن– ثم حملوه في نعش وسارت الجنازة حتى الطرب. ثم أنزلوا النعش. وبينما هم يفتحون المقبرة، جلس الميت! وقال: أنتم حاتدفنوني، دانا باضحك عليكم! ناولني يا واد يا غريب سيجارة."

التفسير المادي لهذا الحلم هو أنه تعبير عن "عقدة ست" أي عن رغبة غريب الأخ الأصغر اللاشعورية في موت أخيه الأكبر.

أما التفسير الوظيفي فينصب على المضمون الظاهر للحلم. ويعتبر الملابسات المصاحبة للوفاة أهم من الوفاة ذاتها. ويتضح ذلك من التداعي الحر، فقد اعتاد غريب أن يلبس ما يضيق من هدوم علي. ويصور هذا الحلم دافع الطمع في جلابية على الحرير –التي كانا يتناوبان لبسها– والرغبة في الاستئثار بها. كما أن غريب كان يضيق من تكرار أخذ على السجائر منه دائماً. فوفاة الأخ قد لا تكون مقصودة لذاتها، وإنما للمغنم الثانوي الذي يعود على الحالم من وراء ذلك. وفي الشطر الأخير من الحلم، لا الجلابية الحرير طالها، ولا عتقه على عن طلب السجاير منه حتى وهو على الموت. وليس بمستغرب أن يفضل الحالم التفسير الوظيفي. فهو يطع حقاً في الجلابية الحرير، ولكنه يرفض أن يعترف بأنه يتمنى لأخيه الموت. وقد يكون هذا التفضيل منه، نوعاً من المقاومة.

ويمكن القول بأن الملابسات المصاحبة لكل من الحلمين السابقين، والتي عنى بها التفسير الوظيفي، وهي الطمع في الميراث والرغبة في التصغير من شأن الأخ الأكبر في الحلم الأول، والطمع في الجلابية الحرير... في الحلم الثاني- هذه الملابسات يمكن أن تحيي العقد اللاشعوري فهي بمثابة بواعث إيجابية يمكن أن تساعد على إثارة هذه العقد من مكمنها. بمعنى أن الأفكار المتعلقة بالمغنم الثانوي والموجودة في طبقة ما قبل الشعور تتدعم بدوافع من أعماق اللاشعور. وبذلك تكون الوفاة في المضمون الظاهر للحلم نتيجة اندماج فكرتان بفضل ميكانيزم التكثيف: إحدى الفكرتين من أعماق اللاشعور هي النزعات المكبوتة في "عقدة ست"- وهي الدلالة المادية. والفكرة الأخرى من طبقة ما قبل الشعور، وتتضمن الملابسات الغريبة في المضمون الصريح للحلم، والمغنم الثانوي الذي يعود على الحالم من وفاة أخيه- وهي الدلالة الوظيفية (شكل ٣).

الحلم بوفاة أحد الوالدين

غالبية الأحلام بوفاة أحد الوالدين تشير إلى الوالد الذي من نفس جنس الحالم. فغالباً ما يكون حلم الولد بوفاة الأب، وتحلم البنت بوفاة الأم. ويفسر فرويد حلم الولد بوفاة الأب على أساس "عقدة أوديب"، وحلم البنت بوفاة الأم على أساس "عقدة الكترا" وللعقدتين نظائر في الأساطير اليونانية القديمة.

وتتلخص أسطورة أوديب بن لايوس ملك طيبة وجوكستا في أن

العرافة تنبأت له بأنه سيقتل أباه ويتزوج أمه. وقد حقق هذا المصير دون أن يعلم. فقابل الملك لايوس واشتبك معه في عراك وقتله. ثم ذهب إلى طيبة حيث حل لغز الأسفنكس وهو: ما هو الشيء الذي يسير على أربع، فإذا كبر سار على قدمين، فإذا كبر سار على ثلاث. فعرف أوديب أنه الإنسان... وبعد أن قتل الأسفنكس انتخبه أهل طيبة ملكاً عليهم. وتزوج جوكستا وأنجب منها. وحكم مدة طويلة... إلى أن انتشر وباء في طيبة، فاستشار أهلها الهاتف فأجاب بأن الوباء ينقطع إذا عوقب قاتل الملك لايوس... وما إن عرف أوديب أنه قتل أباه وتزوج أمه حتى أعمى نفسه.

وهذه الأسطورة تقابل عقدة لا شعورية يمر بها الطفل. فيوجه نزعاته الجنسية الأولى نحو والدته، ونزعاته العدائية نحو والده. وتظهر هذه العقدة بصفة خاصة لدى بع العصابيين. ويمكن القول بأنه كما في الأسطورة وفي العصاب كذلك في الأحلام. فحلم الولد بوفاة الأب قد يكون تعبيراً عن "عقدة أوديب" أي عن رغبة الابن اللاشعورية المكبوتة في موت الأب للاستئثار بكامل عطف الأم وحبها.

أما حلم البنت بوفاة الأم فيمكن تفسيره على أساس "عقدة الكترا" نسبة إلى الكترا التي ساعدت أخاها أورستس على قتل أمهما انتقاماً لقتلها أبيهما أجا ممنون. والعلاقة بين البنت والأم تنطوي على تناقض من الناحية الوجدانية أي تنطوي على الحب والكراهية في آن معاً. ففي الشعور الظاهر تحب البنت أمها، أما الكراهية فتكبت في اللاشعور. وتنشأ الكراهية نتيجة لتعلق عاطفة الحب الأولى للبنت بأبيها، واعتبارها

أمها غريماً ومنافساً لها في موضوع حبها، بحيث ترغب لا شعورياً في التخلص منها لتحل محلها في قلب الأب.

حلم الابن بوفاة أبيه

رجل طيب مثقف في سن الخامسة والخمسين روى هذا الحلم مدللاً به على أن الحلم قد ينبئ عن الواقع بالتخاطر. ويذكر هذا الحلم جيداً منذ أن كان في سن الخامسة عشرة. رأى "إن رأس والده مقطوعة في طبق كبير" فانزعج وتطير وسافر إلى البلد، فوجد أن والده قد أجريت له جراحة في رقبته.

استمعت إلى هذا الحلم مع نفر من الحاضرين وحدست مغزاه بوجه عام ولكني لم أشأ أن أعبره في حضورهم. وهذا الحلم يعبر عن عقدة أوديب التي تتمثل في عداء الطفل لأبيه ورغبته اللاشعورية في موته. كما يعبر كذلك عن عقدة الإخصاء. ويذكرنا هذا الحلم بأسطورة كرونوس الذي خصى أباه أورانوس[٣٢] كما يذكرنا بقطع برويسيوس لرأس الميدوزا، وهو رمز لعملية الإخصاء. فهذا الحلم تكثيف لرغبتين لاشعوريتين إحداهما الرغبة في رؤية أبيه مخصياً، والأخرى هي الرغبة في موته. فهو يجمع بين "عقد الإخصاء" و"عقدة أوديب" صورة في رمزية واحدة مفعلمة بالمعنى.

---

(٣٢) تروى الأسطورة اليونانية القديمة أن أورانوس (إله السماء) تزوج من جيا **Gaea** (إلهة الأرض) وأنجب منها أبناء كثيرين أصغرهم كرونوس. وبينما كان أورانوس يجامع امرأته ذات ليلة جاء كرونوس على غفلة منهما وقطع أعضاء أبيه التناسلية من خلف.

أما تطيره وانزعاجه من الحلم، واهتمامه المبالغ فيه بصحة والده، وسفر ليطمئن عليه، فقد يكون رد فعل للرغبة اللاشعورية في موته. أما كون والده عملت له عملية جراحية في رقبته، فهذه مسألة أخرى.

حلم البنت بوفاة أمها:

سيدة متعلمة في مقتبل العمر لها طفلين ولد وبنت. طلقت من زوجها، فعادت إلى عملها وأقامت مع أخيها. وتركت أولادها في رعاية والدتها في الريف. حلمت "بأنها ذهبت لزيارة والدتها، ففوجئت بأنها ماتت، ورأتها قبل أن تدفن، فبكت بكاء مراً."

التفسير المادي لهذا الحلم يعبره على أساس "عقدة الكترا" أي يعتبر إفصاحاً عن الرغبة في وفاة الأم المكبوتة في لا شعور البنت. ولما كان هذا الحلم مصحوباً بالانفعال والبكاء، فإن الرغبة اللاشعورية المكبوتة في وفاة الأم هي المضمون الكامن الذي أفصح عن نفسه في الحلم دون تقنع.

أما التفسير الوظيفي فنتبين منه أو وفاة الأم في هذا الحلم تخفي رغبة أخرى –اتضحت من التداعي الحر– هي الرغبة في إحضار ولديها للإقامة معها؛ الأمر الذي لا مفر منه إذا ما أصاب والدتها مكروه. فوفاة والدتها في الحلم تقترن بمغنم ثانوي هو إحضار ولديها للإقامة معها.

وقد يسهم هذا المغنم الثانوي في إحياء القعدة اللاشعورية وإثارتها من مكمنها. وبذلك تكون وفاة الأم في المضمون الظاهر نتيجة تكثيف دلالتين إحداهما لا شعورية، هي النزعات المكبوتة في "عقد الكترا" وهي

الدلالة المادية؛ والدلالة أخرى هي المغنم الثانوي، أي الرغبة في إحضار ولديها للإقامة معها، وهي الدلالة الوظيفية، وهي من طبقة ما قبل الشعور واتضحت من التداعي الحر.

الحلم بوفاة أحد الأبناء

"إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فأحذروهم"

"سورة التغابن"

الأقرب إلى الاحتمال أن يحلم الأب بوفاة الابن، وتحلم الأم بوفاة البنت لأنه يلوح أن هناك نوعاً من التفضيل من جانب الوالدين يتمشى مع النزعات المكبوتة في لا شعور الأبناء بمقتضى "عقدة أوديب" و"عقدة الكترا" ويزيدهما تأكيداً. فالأم عادة أكثر عطفاً على الولد منها على البنت. والرجل أكثر ميلاً إلى تدليل البنت منه إلى تدليل الولد. وقد ذكر فرويد مثالين؛ أحدهما لحلم الأم بوفاة البنت، والآخر لحلم الأب بوفاة الابن مدللاً بهما على أن الرغبة المكبوتة في موت الابن قد تكون قديمة. وإليك المثالين(٣٣):

امرأة حلمت أن ابنتها الوحيدة –وكان عمرها وقتئذ سبعة عشر عاماً– ماتت. وقد تذكرت في أثناء التحليل أنها فعلاً تمنت موتها قبل أن تولد. فقد حملت هذه الطفلة نتيجة زواج غير موفق انتهى بالطلاق. وتذكرت أنها تشاجرت ذات مرة مع زوجها، وقت أن كانت حاملاً في هذه الطفلة، وفي

(٣٣) S. Freud: Introductory Lectures, pp. ١٧٠- ١٧١.

سورة الغضب ضربت بطنها بقبضتي يديها لتقتل الجنين الذي حملته منه.

والحلم الآخر لوالد حلم أن أبنه الأكبر مات. وعندما فسر له الحلم بأنه ينم عن رغبته اللاشعورية في موت ابنه، تذكر أنه مضى عليه فعلاً حين من الزمن كانت هذه الرغبة في خاطره. فلم يكن زواجه موفقاً، وتمنى لو أن هذا الطفل الذي لم يكن –وقتئذ– يعني شيئاً بالنسبة له، مات في مهده، حتى ينعم هو بحريته.

ويفسر فرويد هذين الحلمين تفسيراً مادياً على أساس الرغبة في وفاة البنت المكبوتة في لا شعور الأم في الحلم الأول، والرغبة في وفاة الابن المكبوتة في لا شعور الأب في الحلم الثاني. ومن الممكن تفسير هذين الحلمين تفسيراً وظيفياً على أساس أن موت البنت وموت الابن في كلا الحلمين غير مقصود لذاته، وإنما يخفي أغراضاً ورغبات أخرى أو مغانم ثانوية، كالرغبة في الطلاق والرغبة في التحرر. وفي تفسير ابن سيرين. "ومن رأى كأن ابنه مات تخلص من عدوه" ص ٤٥. ولا يعنينا من هذا التأويل القيمة التنبئية له، وهي التخلص من عدو. وإنما تعنينا الدلالة فحسب، وهي ذاتها الدلالة اللاشعورية. فالابن عدو لأنه أحياناً يكون عقبة في سبيل تحقيق أغراض ورغبات.

ذبحت حفيدتها

في أول الليل غفلت عيني، فرأيت "أني أذبح فرخة. وقلت لمن تمسكها أمامي: أمسكي كويس حتى أورد عليها. وبعد أن ذبحتها لاحظت أن دمها أزرق. وبينما كنت أقلب في الفرخة المذبوحة وجدت

أنها سنية. فارتعت وصرخت وقمت من نومي مذعورة."

صاحبة هذا الحلم سيدة كبيرة في السن تقيم معها ابنة بنتها سنية، وهي طفلة عمرها سبع سنوات. وابنة هذه السيدة، وهي والدة هذه الطفلة، طلقت من زوجها بعد أن رزقت بهذه الطفلة. وكان هناك مشروعاً لزواجها. وتقدم عريس مليح لخطبتها. وتم الاتفاق تقريباً. غير أن هذا العريس انقطع بعد ذلك عن زيارة خطيبته. ولعل هذه الطفلة كانت أهم عقبة... والجدة في هذا الحلم تزيل العقبة في زواج ابنتها، أو تحقق رغبتها اللاشعورية المكبوتة في موت حفيدتها. والطيور في الأحلام ترمز للأطفال. وقد قام الرقيب بحيلة لا شعورية هي عملية إبدال الطفلة بالفرخة. وفي بدء الحلم سمح الرقيب بالذبح طالما أن المذبوح فرخة. فما الذي أعاد إبدال الفرخة إلى الطفلة؟ سألت صاحبة الحلم وهي من حفظة التراث الميثولوجي، ما دلالة ذبح الفرخة في الحلم؟ قالت: "أحد الأقارب يموت، ولكن إذا سال الدم، فالحلم يفسد أي لا يتحقق." ومن المرجح أن إدراك الحالمة لدلالة الرمز في الحلم أفسد التنكر وفضح حقيقة الفرخة. وبذلك لم تنطل حيلة الرقيب على هذه العجوز، فأدركت أن الفرخة هي الطفلة. فكأنها فسرت الحلم أثناء الحلم– الأمر الذي يرجح أن هذه الدلالة من طبقة ما قبل الشعور، وخصوصاً وأن الحلم حدث في أول الليل قبيل الاستغراق في النوم. وما إن تكشفت حقيقة الحلم حتى ارتاعت وذعرت واستيقظت.

* * *

نستخلص من الأمثلة السابقة أن الحلم بوفاة أحد أفراد العائلة

يقبل تفسيرين؛ أحدهما مادي، والآخر وظيفي (شكل ٣).

التفسير المادي، يستند إلى العقد: فحلم الابن بوفاة أبيه تعبير عن "عقدة أوديب" وحلم البنت بوفاة أمها تعبير عن "عقدة الكترا" وحلم الأخ الأكبر بوفاة الأخ الأصغر تعبير عن "عقدة قابيل" وحلم الأخ الأصغر بوفاة الأخ الأكبر تعبير عن "عقدة ست". فالحلم بوفاة أحد أفراد العائلة أو أحد الأقارب ينم عن رغبة لا شعورية مكبوتة في موته، وبصفة خاصة إذا كانت الوفاة في الحلم مصحوبة بانفعال وبكاء. وهذه الرغبة اللاشعورية في الموت في المضمون الكامن. وتظهر هذه الرغبة كما هي في المضمون الصريح بدون تقنع. والتفسير المادي لهذه الأحلام على أساس العقد والتمنيات اللاشعورية الشريرة، يبدو كفكرة موجهة مسلم بها مقدماً ومستخلصة من أحلام العصابيين.

أما التفسير الوظيفي فيعني بالمضمون الصريح للحلم، وبالتداعي الحر من صاحب الحلم، ويتعرف منهما على رغبات أخرى –غير الرغبة في الوفاة– وعلى ملابسات هي بمثابة المغنم الثانوي الذي يعود على الحالم من وفاة قريبة. وهذا المغنم الثانوي الذي يقترن بالوفاة في الحلم من طبقة ما قبل الشعور. فالحلم يهدف من حلمه بوفاة قريبة إلى غاية:

ففي المثال الذي ذكره فرويد لحلم سيدة بوفاة ابن أختها، حضر الرجل الذي تحبه في وفاة أوتو. ولما كانت الحالمة ترغب في رؤية هذا الرجل مرة ثانية، فقد حلمت بوفاة شارل.

وفي حلم غريب بوفاة أخيه الأكبر علي، يفوز غريب بالجلابية

الحرير إذا مات علي، كما يتخلص من إلحاحه في طلب السجاير. ولما كان غريب بخيلاً وفقيراً، ويطمع في الجلابية الحرير، فقد حلم بوفاة أخيه علي.

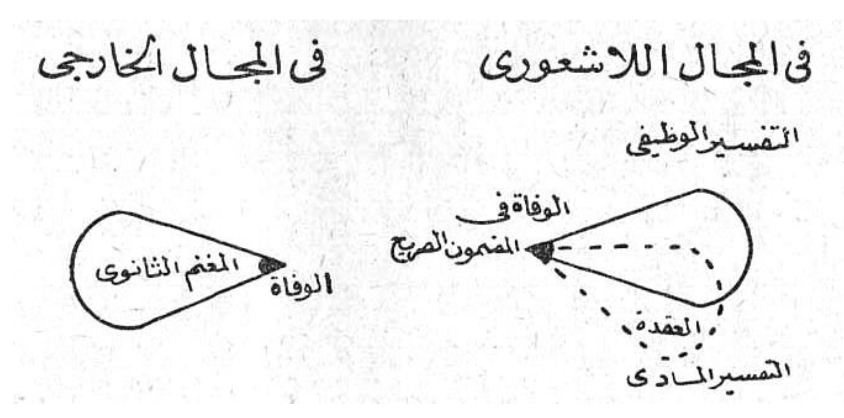
وفي المثالين اللذين ذكرهما فرويد لحلم الأب بوفاة الابن، وحلم الأم بوفاة ابنتها؛ لم تكن الوفاة مقصودة لذاتها، وإنما كانت تخفي رغبة أخرى هي الرغبة في الطلاق والتحرر.

وفي حلم السيدة بوفاة والدتها، يحضر والداها للإقامة معها إذا ماتت والدتها، وهي ترغب في إحضار والديها وتتمنى أن يقيما معها، فحلمت بوفاة والدتها.

وفي حلم الجدة التي ذبحت حفيدتها، يتم زواج ابنتها لولا عقبة هي الطفلة سنية. ولما كانت الحالمة ترغب في أن يتم زواج ابنتها، فقد عملت على أن تزيل العقبة، فذبحت الفرخة.

وفي جميع هذه الأمثلة لا يكفي التفسير المادي وحده، الذي يعتبر المضمون الكامن للحلم هو العقدة أو الرغبة اللاشعورية في وفاة القريب. ولا غنى عن التفسير الوظيفي الذي يأخذ في الاعتبار الملابسات التي تقترن بالوفاة في المضمون الصريح، والغاية التي يهدف إليها الحالم من حلمه، والمغنم الثانوي الذي يعود عليه من وفاة قريبه. والواقع أن كلا الاتجاهين المادي والوظيفي في تفسير هذا النوع من الأحلام مكمل للآخر وليس بينهما تعارض. ومن الممكن أن يكون الحلم بوفاة القريب تكثيفاً للدلالتين المادية (اللاشعورية) والوظيفية (وهي

من طبقة ما قبل الشعور).



(شكل ٣)

المضمون الكامن للحلم بوفاة أحد أفراد العائلة قد يكون إحدى العقد، أي الرغبة اللاشعورية المكبوتة في وفاته– وهو التفسير المادي؛ وقد يكون الرغبة في المغنم الثانوي الذي يعود على الحالم كالمطمع في الميراث مثلا– وهو التفسير الوظيفي– وقد يكون المضمون الكامن نتيجة تكثيف الدلالتين المادية والوظيفية.

ولم يكن لأي حلم من هذه الأحلام دلالة على المستقبل. فالأشخاص الذين ماتوا في هذه الأحلام، أحياء كلهم يرزقون. ولكن هب أن أحدهم قضى نحبه، فهل يعني ذلك أن الحلم أنبأ بموته؟ أو أن صاحب الحلم مكشوف عنه الحجاب؟ من السهل في هذه الحالة القول باتفاق المصادفة. ولكن بدلاً من محاولة إيجاد علاقة بين الحلم بوفاة أحد أفراد العائلة وموته فعلاً– وهو قضاء لا سبيل إلى التنبؤ به؛ أولى بنا أن نوجد علاقة بين الحالم وحلمه، وهو ما بيناه بالتحليل المفصل،

فوجدنا أن هذه الأحلام لم تكن وليدة الصدف بل كانت محتمة، وبينا دوافعها اللاشعورية. فعلى حين تبدو المصادفة الحقيقية في الحوادث الخارجية– كانتهاء الأجل الذي ليس إلى التنبؤ به من سبيل؛ تبدو الحتمية في الدوافع الداخلية اللاشعورية التي أدت إلى هذه الأحلام.

الفصل السابع عشر

المشي أثناء النوم

من الظواهر الغريبة التي أثارت حيرة الناس ودهشتهم المشي أثناء النوم (Somnambulism) وهو نوع من الأحلام. فالنائم الذي يمشي يحلم؛ وإذا كنا في الأحلام نتخيل أننا نتحرك ونؤدي أعمالاً معينة بطريقة وهمية، فإن الحالم الذي يمشي وهو نائم يسعى لأن يقوم فعلاً بهذه الأعمال التي يحلم بها. ويبدو من يمشي وهو نائم وكأنه مسير بإرادة خارجية، أو مجذوب بقوة غيبية؛ بينما هو في الواقع مدفوع بقوة داخلية لا شعورية.

فما هي الظروف التي تجعل من الممكن استخدام النشاط الحركي أثناء النوم؟ ليس النوم حالة سلبية بحتة. ومن المعروف أن مستوى النشاط الحركي والذهني ينخفض كثيراً أثناء النوم، ولكنه لا ينعدم. ولا تكون العضلات في حالة ارتخاء تام، بل تظل محتفظة بشيء من التوتر، والدليل على ذلك أننا نغير من أوضاعنا ونتقلب مرات عديدة أثناء النوم من غير شعور منا. كما أن بعض الأحلام المفزعة تنتهي بحركة شديدة مفاجئة تؤدي إلى الاستيقاظ. وقد ذكرت في كتاب "الكابوس" أمثلة كثيرة لهذه الظاهرة. وأوضح هذه الأمثلة الحلم بالثعبان، الذي يرتاع منه الحالم ويقفز من نومه مذعوراً. والحلم بالكلب العقور الذي يؤدي بالحالم إلى رفص اللحاف برجله بأقصى قوته ليضرب الكلب الذي ينهش ثيابه. ومعنى ذلك أن شدة وطأة الشحنة الانفعالية المصاحبة للحلم قد تؤدي إلى الحركة.

وتشبه حركة النائم أثناء الحلم الحركات التي يقوم بها الشخص الذي ينوم تنويماً مغناطيسياً فيستجيب للتعليمات التي يصدرها له المنوم المغناطيسي ويتحرك طبقاً لها وهو مسلوب الإرادة. ولكن الذي يمشي أثناء النوم لا يكون مستجيباً لعوامل أو مؤثرات خارجية، بل يكون مدفوعاً بعوامل داخلية لا شعورية. وهو في ذلك كأنما يمثل الحلم تمثيلاً مسرحياً وهو نائم، ويحقق التوجيهات الصادرة له من أعماق نفسه. فليس المشي أثناء النوم حلماً فحسب بل هو "تمثيل مسرحي" للحلم، ولذلك فإنه يصلح للتحليل والتأويل.

ويبين تحليل حالات المشي أثناء النوم أن الحالم يكون مدفوعاً بدافع قوى ويهدف من مشيه إلى غاية. وتتنوع هذه الدوافع وتلك الغايات بتنوع الحالات. كما أنها تختلف عند الصغار عنها عند الكبار. ولكنها دائماً دوافع قوية.

والجوال النومي عند الأطفال ظاهرة تستوقف النظر وتستأهل العناية. فهو ينم دائماً عن مشكلة أو صعوبة تشوب الحياة النفسية للطفل وتدفعه إلى المشي أثناء نومه. ومن الأمثلة على ذلك حالة طفلة صغيرة كان والدها يضربها ويسيء معاملتها، إلى حد أنها ضاقت بحياتها وشعرت بأنها لا بد أن تهرب من هذه القسوة التي لا تحتمل. ونظراً لصغرها وقلة حيلتها لم تستطع الهرب، واضطرت إلى كبت هذه الرغبة. وفي نومها لم تقتصر على الحلم بالهرب، بل قامت فعلاً ومشت وهي نائمة وشرعت في النزول من حجرة نومها واتجهت نحو الباب الخارجي،

لتحقق هذه الحاجة الملحة. وقبل أن تصل إلى الباب وقفت بجوار الحائط واستيقظت، وهي لا تدري -لأول وهلة- أين هي؟ وما الذي أتى بها إلى هذا المكان؟ ولماذا قامت ومشت؟

والدافع إلى المشي أثناء النوم في هذه الحالة هو الهرب من القسوة وسوء المعاملة. وأحياناً يرمي المشي أثناء النوم إلى غرض إيجابي. فهناك أنواع من النشاط يكون قد عاش في جوها الطفل أثناء النهار، ولكنه لم يعش فيها بحيث يشبع رغبته كاملة منها، فيعيش فيها أثناء الليل. ومن أمثلة ذلك طفلة في سن السابعة كانت تسكن قرب شاطئ البحر في مدينة السويس. وكانت تقضي معظم يومها في اللعب على شاطئ البحر بجمع القواقع الصغيرة المسماة "الوردان" واستولت هذه الهواية على قلبها وعقلها وأصبحت الشغل الشاغل لها. وفي ذات ليلة قامت وهي نائمة ومشت إلى الباب الخارجي وفتحته وخرجت متجهة نحو البحر.. وقد تنبه أهل المنزل وأدركوها وهي في منتصف الطريق فأعادوها.. واهتموا بعد هذا الحادث بغلق الباب الخارجي بالمفتاح في الليل.

ومن أهم الأغراض التي تدفع الأطفال إلى المشي أثناء النوع الرغبة في المشاركة في الحياة الليلية للكبار! ولذلك فإن الهدف النموذجي الذي يستهدفونه هو حجرة نوم الوالدين، باعتبارها المكان الذي يمكن فيه مشاهدة الأسرار الجنسية أو الحيلولة دون وقوعها؛ أو باعتبارها الملاذ الذي ينشد فيه الطفل الأمان والحماية من وطأة الأحلام المزعجة. وقد بينت في كتاب "الكابوس" أن صور الحيوانات والوحوش في الأحلام

المزعجة التي تنتاب الأطفال قد تكون رموزاً بديلة للوالدين. باعتبارهما يمثلان السلطة، فضلاً عن كونهما موضوعات تستهدفها رغباتهم الجنسية المحرمة بمقتضى عقدة أوديب. وقد يكون نوم الطفل مع والديه في سرير واحد، أو في حجرة واحدة ومشاهدته أو سماعه لما يحدث بينهما من بين أسباب الكابوس الذي ينتابه والذي قد يلازمه في الكبر. ومما له مغزى بعيد أن الطفل حين يستولي عليه الكابوس ويهب من نومه مذعوراً، يقصد تواً إلى مخدع والدته ليقص عليها حلمه. وقد يرفض العودة إلى النوم في سريره، ويلحف في البقاء.. وما إن يفوز بالنوم في سرير والدته حتى يعود إلى هدوءه، مما يدل على أن الكابوس يحقق للطفل غرضاً، كالغرض الذي يحققه مشيه أثناء النوم وتوجهه إلى مخدع والدته.

ويروي إميل جوثيل(٣٤) حالة شاب عصابي اعتاد أن يترك فراشه ليلاً وهو نائم، ويمشي إلى حجرة نوم والدته ويضيء النور. وتؤدي إضاءة النور إلى استيقاظه. وكشف تحليل أحلام المشي أثناء النوم، وأحلامه الأخرى العادية عن ارتياب هذا الشاب في مسلك والدته، وهي أرملة، وتوجسه من أن يكون لها عشيقاً في الظلام. ولذلك فهو يرقب سلوكها أثناء الليل فيمشي إلى مخدعها ليتأكد من عدم حدوث شيء مريب.

والجوال النومي عند الكبار يكون كذلك مدفوعاً بدافع ويهدف إلى غاية. وقد يكون هذا الدافع هو الهرب من خطر مزعوم كما في الكابوس، أو الهرب من الفراش الذي يعتبره النائم مكاناً للإغراء أو

---

(٣٤) Emil Gutheil: Ibid, p. ٣٣٣.

الاستثارة. ولكن، غالباً ما يكون للنائم الماشي غايات إيجابية يسعى إليها ويعمل على تحقيقها، فيستهدف مكاناً ينشد فيه إشباع نزعاته اللاشعورية، أو يستهدف مكاناً آمناً يضمن فيه وقاية نفسه من وطأة هذه النزعات وإلحاحها. فالمشي أثناء النوم قد يعني الهرب من خطر مزعوم أو من الإغراء، أو الهرب نحو الأمان أو الإشباع، أو كلا الأمرين معاً.

وقد يكون الدافع للمشي أثناء النوم النزعات غير الخلقية وغير الاجتماعية القوية. ومن أمثلة ذلك حالة مريض كان يعاني من نزعات إجرامية لا شعورية قوية ضد إخوته، اعتاد أن يقوم من سريره وهو نائم ويمشي نحو سرير إخوته في الليل فيقف متردداً وهو يرفع يديه كمن يهم بأن يخنق شخصاً. وكانت كراهيته الشديدة لأخوته تجعله يجز على أسنانه في أحلامه، ويلوح بقبضة يده كمن يتهدد ويتوعد.

ومن الأمثلة الخالدة للمشي أثناء النوم حالة "مكبث" التي صورها شيكسبير ببراعة. فقد استولى عليها الشعور بالإثم والخطيئة، وهي تحاول سدى أن تغسل بقعة الدم التي لطخت يدها. وهذه المحاولات من قبيل الأفعال المتسلطة التي يسببها تأنيب الضمير.

وهناك حالة امرأة بدأت تمشي في نومها منذ أن كان والدها مريضاً وكانت تعني به وتقوم من حين لآخر لترى هل هو بخير. ولما مات استمرت عادة المشي أثناء النوم. ولم تكن مشكلتها مجرد تكرار لعادة العناية بوالدها المريض، بل كانت تتناول صراعاً يضطرب في نفسها: فلم تكن تريد أن تفقد والدها، ولكنها كانت تعلم أن موته يعود عليها بثروة

كبيرة، وينهي متاعب زوجها المالية. فهي مدفوعة بدافعين دافع العناية بوالدها المريض، ودافع التأكد مما إذا كان قد مات أم لا يزال حياً[٣٥].

ومن الحالات النادرة، حالة غلام كان يقوم بالليل، ويلبس ملابسه ويخرج من غرفة نومه ويفتح الأبواب ويمشي. وكان يقطع ما يقرب من الميلين، إلى أن يصل إلى المقابر حيث دفن والده؛ وهناك يركع ويتلو عليه أدعيته وصلواته، ثم يعود إلى منزله وينام في سريره. وحالة أخرى لبنت كانت تقوم من سريرها وتذهب للمطبخ وتوقد "شمعداناً" وتمسك به وتمشي إلى الباب الرئيسي للمنزل وتقف "بالشمعدان" في يدها وظهرها ملصق بالباب وكان محور حالة هذه البنت أنها كانت تخاف اللصوص، فكانت بعملها هذا كأنها تحرس المنزل منهم[٣٦].

وهناك جانب مشرق لهذه الظاهرة يصوره سليمان الحكيم في سفر "نشيد الإنشاد" وهذا السفر عبارة عن أغنية أو قصيدة زفافية يعبر فيها عن المحبة المتبادلة بين الكنيسة ويرمز لها بالعروس، والسيد المسيح عليه السلام ويرمز له بالعريس. وكلام هذا السفر استعارة، ومغزاه ديني، وإن بدت عباراته لأول وهلة وكأنها غزل صريح. فهذا السفر أقرب شيء إلى الغزل الصوفي، –أو بلغة كتابنا هذا– يقبل تأويلين، تأويل مادي

---

(٣٥) هذا المثال مأخوذ من كتاب **Hadfield: Dreams and Nightmare, p. ٨٠** وهو يتفق مع الأحلام التي يموت فيها أحد أفراد العائلة من ناحية أن الدافع الأساسي الذي ظهر من تحليل هذه الأحلام هو الرغبة في المغنم الثانوي الذي يعود على الحالم من وفاة قريبه (انظر الفصل السادس عشر).

(٣٦) الدكتور عبد العزيز القوصي: "أسس الصحة النفسية"– مكتبة النهضة، ١٩٤٨ ص ٢٧٠.

(جنسي)، وتأويل وظيفي (ديني). يصور سليمان الحكيم حالة من حالات العشق الصوفي الرمزي تصويراً شائقاً في أسلوب يشبه لغة الأحلام في هذه الآيات:

"في الليل على فراشي طلبت من تحبه نفسي، طلبته فما وجدته* إني أقوم وأطوف في المدينة في الأسواق وفي الشوارع أطلب من تحبه نفسي، طلبته فما وجدته* وجلس الحرس الطائف في المدينة فقلت أرأيتم من تحبه نفسي* فما جاوزتهم إلا قليلاً حتى وجدت من تحبه نفسي، فأمسكته ولم أرخه حتى أدخلته بيت أبي وحجرة من حبلت بي* أحلفكن يا بنات أورشليم بالظباء وبايائل الحقل ألا تيقظن ولا تنبهن الحبيب حتى يشاء" الأصحاح الثالث.

"أنا نائمة وقلبي مستيقظ. صوت حبيبي قارعاً، افتحي لي يا أختي يا حبيبتي يا حمامتي يا كاملتي لأن رأسي امتلأ من الطل وقصصي من ندى الليل* قد خلعت ثوبي فكيف ألبسه. قد غسلت رجلي فكيف أوسخهما* حبيبي مد يده من الكوة فأنت عليه أحشائي* قمت لأفتح لحبيبي ويداي تقطران مراً وأصابعي مر قاطر على مقبض القفل* فتحت لحبيبي لكن حبيبي تحول وعبر. نفسي خرجت عندما أدبر. طلبته فما وجدته دعوته فما أجابني* وجدني الحرس الطائف في المدينة. ضربوني جرحوني. حفظة الأسوار رفعوا إزاري عني* أحلفكن يا بنات أورشليم إن وجدتن حبيبي أن تخبرنه بأني مريضة حباً." الأصحاح الخامس.

ومن الاعتقادات الشعبية الشائعة الاعتقاد في وجود علاقة بين

المشي أثناء النوم وضوء القمر. وقد ترجع هذه الخرافة القديمة في جزء منها إلى الغموض الذي أحاط بالقمر، وإلى الأساطير والقصص التي نسجت حوله عند كثير من الشعوب القديمة والشعوب البدائية. وقد أضفى القدماء على القمر قوة خارقة هي نوع من الجاذبية التي تبدو في كلمة "مجذوب" و"مجاذيب" ونسب الجنون إلى القمر من قديم الزمن. واشتق اسم الجنون (**Lunacy**) من القمر. وبذلك أطلق على مستشفى المجاذيب (**Lunatic asylum**) وكانت آلهة القمر في أساطير الرومان هي ديانا أو لونا (**Luna**) وفي ديانة قدماء المصريين وأساطيرهم كانت هاتور زوجه رع هي آلهة القمر، وترمز للحب والخصوبة.. وكانت تخلب الباب الرجال، وتسوقهم إلى الجنون.. ووضع رع حداً لمجونها بأن سقاها خمراً أفقدها وعيها. وقد بين التحليل النفسي أن القمر رمز للأم، كما يبدو في حلم يوسف: "إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين* قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً" (سورة يوسف ٤، ٥) والشمس أبوه والقمر أمه والكواكب أخوته. هذا بالإضافة إلى القيمة الانفعالية للقمر، فهو يجمع بين الضوء والظلام في وقت واحد وبذلك فهو رمز مؤات للتعبير عن الجنسية الطفلية والمشاهد الجنسية.

ومما يدعو إلى كثير من التأمل أن الاعتقادات الشعبية القديمة قد أسقطت قوانين الحياة النفسية في الخارج؛ فجاء التحليل النفسي وأعاد هذه القوانين إلى مصدرها الأصلي اللاشعوري، وقلب ظاهر هذه

الاعتقادات باطناً، وبين أن ما ينسبه القدماء للخارج وللغيب يرجع غالباً إلى الدوافع الداخلية اللاشعورية. فقد اعتقد القدماء أن من يمشي أثناء النوم يكون مجذوباً بقوة خارجية، فبين التحليل النفسي أنه يكون مدفوعاً بدوافع داخلية. ونسبوا إلى القمر المشي أثناء النوم كما نسبوا إليه الجذب والجنون، فبين التحليل النفسي أن القمر رمز للأم وأن مخدع الأم أهم مكان يستهدفه النائم الماشي، وأن علاقة الطفل بأمه من أهم أسباب الأمراض النفسية العقلية.

الفصل الثامن عشر
رؤى يوسف وفرعون

وما دمنا بصدد دراسة الأحلام التنبئية، فحرى بنا أن ننعم النظر في أقدم وأروع الأحلام التنبئية على الإطلاق، وهي الرؤى في قصص التوراة تلك الرؤى التي أولت تأويلاً يتميز بالمهارة والفطنة. ونختار في هذا الفصل رؤى يوسف وفرعون التي بهرنا اتفاق تأويلها مع تفسيرات المحدثين من رجال التحليل النفسي. ولن نعيد تأويل هذه الرؤى. فلا تأويل لها إلا ما ورد في النصوص الدينية. وهذا التأويل هو ما نتناوله في الواقع بالشرح والتفسير على ضوء مكتشفات التحليل النفسي، التي تؤيده وتتمشى معه على طول الخط. وقد اخترنا النصوص الواردة في التوراة لأنها تشتمل على تفاصيل أوفى من النصوص الواردة في القرآن الكريم.

رؤى يوسف:

كان يوسف أصغر إخوته. وأحبه أبوه يعقوب أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته فصنع له قميصاً ملوناً. فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكبر من جميع إخوته أبغضوه وحسدوه.

"وحلم يوسف حلماً وأخبر إخوته، فازدادوا أيضاً بغضاً له. فقال لهم اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت. فها نحن حازمون حزماً في الحقل. وإذ حزمتي قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتي. فقال

له أخوته ألعلك تملك علينا ملكاً أم تتسلط علينا تسلطاً. وازدادوا أيضاً بغضاً له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه." التوراة– سفر التكوين، الأصحاح السابع والثلاثون.

وفي تفسير ابن سيرين نص آخر لنفس هذه الرؤيا وتعبيرها. ولا نرى بأساً من أن نذكره. "رأى يوسف رؤيا وهو يومئذ صبي نائم في حجر أحد إخوته. وبيد كل رجل منهم عصا غليظة يرعى بها ويتوكأ عليها ويقاتل بها السباع عن غنمه وليوسف عليه السلام قضيب خفيف دقيق صغير يتوكأ عليه ويقاتل به السباع عن غنمه ويلعب به وهو إذ ذاك صبي في الصبيان. فلما استيقظ من نومه وهو حجر أحد إخوته قال ألا أخبركم يا أخوتي برؤيا رأيتها في منامي هذا. قالوا بلى فأخبرنا قال فإني رأيت قضيبي هذا غرز في الأرض ثم أتى بعصيكم كلها فغرزت حوله فإذا هو أصغرها وأقصرها فلم يزل يترقى في السماء ويطولها حتى طال عصيكم فثبت قائماً في الأرض وتفرشت عروقه من تحتها حتى انقلعت عصيكم فثبت قائماً وسكنت حوله عصيكم. فلما قص عليهم هذه الرؤيا قالوا يوشك ابن راحيل أن يقول لنا أنتم عبيدي وأنا سيدكم." ص ١٥.

"ثم حلم أيضاً حلماً آخر وقصه على إخوته. فقال إني قد حلمت حلماً أيضاً وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي. وقصه على أبيه وعلى إخوته. فانتهره أبوه وقال له ما هذا الحلم الذي حلمت. هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض. فحسده إخوته. وأما أبوه فحفظ الأمر." تكوين– الأصحاح السابع والثلاثون.

وبذلك أدرك يعقوب تعبير هذه الرؤيا: فالشمس أبوه، والقمر أمه، والكواكب إخوته. وأدرك إخوته كذلك تعبير الرؤيا الأولى كما بدا في قولهم له: "ألعلك تملك علينا ملكاً أم تتسلط علينا تسلطاً." أو قولهم: "يوشك ابن راحيل أن يقول لنا أنتم عبيدي وأنا سيدكم."

وهذا الفهم الصحيح لتعبير هاتين الرؤيين يتفق مع ما تواضع عليه المحدثون من رجال التحليل النفسي. فالرؤييان موضوعهما واحد. والتكرار للتأكيد. ويعبر كلاهما عن دافع الطموح والتطلع إلى السيطرة. ولقد كان يوسف أصغر إخوته. ومركز الطفل في الأسرة وترتيبه فيها يلعب دوراً كبيراً في تحديد شخصيته وتكييف أسلوب حياته- كما يقول أدلر صاحب مدرسة علم النفس الفردي. والطفل الأصغر في الأسرة يتمتع بفترة طفولة طويلة. ولا ينازعه في حجر أمه غيره. ويؤثره والداه بالحب والعطف، ويخصانه بالرعاية والتدليل. غير أنه يشعر بأنه أضعف إخوته. وهذا الشعور بالقصور يدفعه إلى التعويض وإلى الطموح والتطلع إلى السيطرة كما يبدو بوضوح في هاتين الرؤيين.

وقد كانت رغبة يوسف الملحة في سبق إخوته والتفوق عليهم، كما كان إيثار والديه له باعتباره الابن الأصغر، مما أثار غيرة إخوته منه وحسدهم له؛ حتى إنهم كانوا إذا ما أبصروه من بعيد قادماً نحوهم "قال بعضهم لبعض هو ذا صاحب الأحلام قادم." ولقد فهم إخوته تطلعه إلى السيطرة عليهم، وكادوا له، وباعوه إلى القافلة الذاهبة إلى مصر. وهنا استطاع يوسف بطموحه وذكائه وعفته وأمانته وفراسته في تأويل رؤى

فرعون، أن يتبوأ منصباً من ارفع المناصب هو وزير مصر والأمين على خزائن فرعون... وتألق نجمه، وانحنت له الهامات.

وتبدو "الحتمية" في رؤى يوسف في طموحه، وفي مركزه وترتيبه في أسرته– أي في دوافع الحلم، وهذه جذورها في الماضي. وتبدو "الاحتمالية" بدرجة كبيرة في تحقيق الحلم في المستقبل. فليس بمستغرب أن يصل يوسف بطموحه وخصاله وكفايته إلى المجد المؤثل والمقام الرفيع الذي كان يتطلع إليه ويحلم به.

رؤى فرعون:

"فقال فرعون ليوسف حلمت حلماً وليس من يعبره... إني كنت في حلمي واقفاً على شاطئ النهر* وهو ذا سبع بقرات طالعة من النهر سمينة اللحم وحسنة الصورة* فارتعت في روضة* ثم هو ذا سبع بقرات أخرى طالعة وراءها مهزولة وقبيحة الصورة جداً ورقيقة اللحم* لم أنظر في كل أرض مصر مثلها في القباحة* فأكلت البقرات الرقيقة والقبيحة البقرات السبع الأولى السمينة* فدخلت أجوافها ولم يعلم أنها دخلت في أجوافها* فكان منظرها قبيحاً كما في الأول* واستيقظت* ثم رأيت في حلمي وهو ذا سبع سنابل طالعة في ساق واحد ممتلئة وحسنة* ثم هو ذا سبع سنابل يابسة رقيقة ملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها* فابتلعت السنابل الرقيقة السنابل السبع الحسنة* فقلت للسحرة ولم يكن من يخبرني*".

"فقال يوسف لفرعون حلم فرعون واحد* قد أخبر الله فرعون بما هو صانع. البقرات السبع الحسنة هي سبع سنين* والسنابل السبع

الحسنة هي سبع سنين* هو حلم واحد* والبقرات السبع الرقيقة القبيحة التي طلعت وراءها هي سبع سنين* والسنابل السبع الفارغة الملفوحة بالريح الشرقية تكون سبع سنين جوعاً* هو الأمر الذي كلمت به فرعون* قد أظهر الله لفرعون ما هو صانع* هو ذا سبع سنين قادمة شبعاً عظيماً في كل أرض مصر* ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعاً* فينسى كل الشبع في أرض مصر* ولا يعرف الشبع في الأرض من أجل ذلك الجوع بعده* لأنه يكون شديداً جداً* وأما عن تكرار الحلم على فرعون مرتين فلأن الأمر مقرر من قبل الله والله مسرع ليصنعه*" التكوين- الأصحاح الحادي والأربعون.

لقد أصبح من أصول التأويل المعترف بها بين المشتغلين بتفسير الأحلام، أن الأحلام التي ترى في ليلة واحدة تكرر نفس الدافع، أو يكمل أحدها الآخر. لذلك ينبغي تفسيرها معاً. ورؤى فرعون -كما قال يوسف- موضوعها واحد. وتكرارها للتأكيد. ولا سبيل إلى تذوق الفراسة في تعبير هذه الرؤى إلا إذا أخذنا في الحسبان شخصية الحالم، ورموز الحلم، وزمان الحلم ومكان الحلم. وهذان الحلمان لفرعون. فلا يصح أن نتوقع من واحد من عامة الشعب أن يحلم بمثل هذين الحلمين، وإلا كان تأويل حلمه مختلفاً جداً وكان فرعون مقدساً عند قدماء المصريين. واعتبروه ظل الإله على الأرض. كما اعتبروا أحلامه وكأنه صدى لصوت الإله. ويحق لنا أن نفترض أن من أهم ما كان يشغل بال فرعون التفكير في شئون الرعية، والإشفاق مما قد تتعرض له البلاد في سني الجدب. وهذا بالإضافة إلى أن الجدب والرخاء

كان ينسب إلى شخصه، ويعتبر دليلاً على مدى رضا لآلهة عنه وعن حكمه. وقد عبر هذان الحلمان عن هذا الدافع برموز قديمة كانت معروفة في ديانة قدماء المصريين وأساطيرهم، وهي البقر والقمح ورقم ٧. فقد تخيل المصريون القدماء السماء على هيئة بقرة. واختصوا بقرة السماء الآلهة "حاتحور" بقدسية دائمة. كما أن من أشهر معبوداتهم عجل أبيس. وإله القمح عند الفراعنة هو أوزيريس الذي علم الناس الزراعة. والبقر والقمح يقترن كلاهما بالخصوبة ويعتبران من أحسن الرموز الدالة على الخصب أو الجدب، والشبع أو الجوع. أما رقم ٧ فيدل على الأوقات والأيام والسنين. فقد خلق الله العالم في سبعة أيام. والأسبوع سبعة أيام. وفي حياة الإنسان دورات من سبع: فالجنين يكتمل بعد سبعة أشهر. ويعطي الوليد اسماً في "السبوع". وتنبت أسنانه بعد سبعة أشهر. ويبدل أسنانه بعد سبع سنوات. ويرمز رقم ٧ في الميثولوجيا والفولكلور إلى أشياء أخرى كثيرة مما يتفاءل به الناس أو يتشاءمون. فدلالته بالتيمن أو التطير نسبية تختلف باختلاف الأشخاص والأوقات. ومما تجب ملاحظته أننا لم نذكر هنا من دلالات رقم ٧ الكثيرة، إلا ما رجحنا أنها كانت معروفة قبل أوقات هذه الرؤى.

تلك هي الرموز التي استطاع يوسف بقوة حدسه وصدق فراسته أن يدرك مدلولاتها، وأن يقرن بينها وبين سني الرخاء وسني الجدب في أرض مصر؛ وهي ظاهرة كانت مألوفة خلال العصور القديمة قبل أن توجد مشروعات التخزين وضبط مياه النيل. فأول الرموز تأويلاً ينطوي على حدس ثاقب وبصيرة نافذة... وشاء ربك ألا يخلف ظنه وهو على كل شيء قدير.

وتبدو "الحتمية" في رؤى فرعون في دوافع الحلم ورموزه وزمانه ومكانه. وتبدو "الاحتمالية" في الأحداث الخارجية كسني الرخاء والجدب في أرض مصر، التي كانت تتوقف على حالة النيل، قبل زيادة التحكم فيه وضبط مياهه.

* * *

وبذلك تلقي مبادئ التحليل النفسي فيضاً من الضوء على دوافع رؤى يوسف وفرعون ودلالات رموزها. وفي هذه الدوافع تلك الدلالات تبدو "الحتمية" وجذورها في الماضي. وتفسير هذه الرؤى على ضوء دوافعها الماضية ودلالات رموزها التي كشف عنها التحليل النفسي، يتمشى مع تأويلها الديني الذي اهتم بالعبرة والعظة من تحقيقها في المستقبل. ونعتقد أن محاولة فهم هذه الرؤى على هذا الضوء الجديد، تزيد في تقديرنا لما في قصة يوسف من عظة بليغة، وحكمة سامية، وعبرة خالدة على وجه الزمان.

الفصل التاسع عشر

دلالة الأرقام في الأحلام

كثيراً ما يصادف المفسر في الحلم رقماً يحار في فهم مدلوله. ولا يمكن أن يكون ظهور الرقم في الحلم من محض المصادفة. فاختيار الحالم لرقم بالذات يتمشى مع موضوع الحلم، لا بد وأن ينطوي على نوع من الحتمية. والرقم في الحلم عادة هو أصعب جزء فيه وأكثره غموضاً، ولكنه ولا شك أهم أجزاء الحلم. ومهما اكتنف الرقم في الحلم الغموض، ومهما استعصى على التأويل، فلا بد أن له مغزى. وقد يكون تأويل مدلول الرقم مفتاح تأويل الحلم كله.

وقد يدل الرقم في الحلم على نفسه فيشير إلى تاريخ ميلاد الحالم أو عمره أو عدد أفراد عائلته أو إلى مرحلة هامة في حياته، أو إلى تاريخ معين أو حادثة هامة ذات مغزى خاص عند الحالم. وقد يدل الرقم على دين كبير أو خسارة أو ضريبة. وقد يكون للرقم في الحلم دلالة رمزية متخفية أو مقنعة بحيث يحتاج إلى تأويل لمعرفة مغزاه اللاشعوري. وعلى ذلك فالرقم في الحلم إما أن يدل على نفسه أو يرمز إلى معنى آخر. فما هي المعاني أو الدلالات الرمزية التي تقترن بالأرقام؟

ذهب بعض المفسرين إلى الاعتماد في تفسير الأرقام على شكلها، فجاءت أقوالهم غاية في الطرافة والعجب. ومن ذلك قولهم أن رقم ٨ في الحلم رمز للمرأة، لأن هذا الرقم له خصر نحيل، والانبعاج يقابل

الصدر والردفين. وقالوا إن رقم ٣ إذا نظرنا إليه في وضع أفقي، بدا وكأنه نهدين بارزين. وأن رقم ٦٩ يرمز إلى أحد الأوضاع الجنسية! أما رقم ١٨٠ فله دلالة لا تخطر على البال، وهي أن الحالم لم يأكل شيئاً. (ate nothing ١ =١٨٠) للتشابه في نطق ate مع ٨، والصفر لا شيء. ولا يمكن أن تكون دلالات هذه الأرقام ثابتة، لأن أشكال الأرقام تختلف في مختلف اللغات، بحيث تفقد هذه الدلالات قيمتها في لغة أخرى لا تكتب حروفها بهذا الشكل. ولذلك لا يمكن الاعتماد على الشكل وحده في تأويل مدلول الأرقام. ويجب أن نفرق بين شكل الأرقام ووظيفتها.

ليس شكل الأرقام هو المعول عليه في تفسير دلالتها في الأحلام، بل وظيفة الأرقام بالنسبة للحالم، ووظيفتها في الميراث الثقافي والميثولوجي. وتتضح وظيفة الأرقام بالنسبة للحالم من التداعي الحر، ومما يقترن بالأرقام في ذهن الحالم من الخواطر والأفكار، ومما يثيره من معان بحسب ظروف الحالم الخاصة. وبذلك تختلف دلالة الأرقام من حالم إلى حالم. أي أن دلالتها ذاتية وليست عامة، متغيرة وليست ثابتة. ومهما يكن من أمر فإن دلالة الأرقام في الأحلام لا يمكن أن تكون مسألة فردية فحسب، بل ينبغي الرجوع إلى الأساس الثقافي والطابع الحضاري والتراث الميثولوجي. ولا غنى للمفسر عن الاسترشاد بالمدلولات القديمة للأرقام؛ وفيما يلي بعض هذه المدلولات:

رقم ١– يرمز "للأنا" أو الذات– أي لصاحب الحلم. وهو غالباً

رمز مذكر. وقد يرمز لرئيس العمل: للمدير أو الكبير... وقد يرمز لله الأحد الصمد.

رقم ٢- يعني أن الإنسان ليس وحيداً، وأن هناك شخصاً آخر. وهو يشير إلى مراحل الاتصال بالشخص الآخر أو الانفصال عنه كالزواج والطلاق والميلاد. وهو غالباً رمز مؤنث. ومن معانيه كذلك الازدواج والثنائية والتناقض.

رقم ٣- قد يكون له مغزى جنسي، فهو رمز لعضو التذكير، وهو مكون من ثلاثة أجزاء. وقد يكون له مغزى ديني، هو الثالوث: الأب والابن الروح القدس. وقد يكون له مغزى تحليلي، هو الأب والأم والطفل. وهذا الرقم من الأرقام المفضلة التي ورد ذكرها في الأساطير والأديان.. المعبودات الثلاثة إيزيس وأوزيريس وحورس.. الآباء الثلاثة إبراهيم وإسحق ويعقوب.

رقم ٤- رمز التكامل مثله كمثل المربع. وقد يشير إلى أربعة أركان العالم أي إلى الجهات الأصلية. وقد يشير إلى الفصول الأربعة، أو إلى العناصر الأربعة وهي: النار والهواء والأرض والماء. وقد يكون رمزاً دينياً يشير إلى أطراف الصليب.

رقم ٥- أول ما يتبادر إلى الذهن هو أصابع اليد الخمسة. وعلى ذلك فقد يرمز من طرف خفي إلى العادة السرية. واليد المخضبة بالحناء أو بالدماء على الحائط هي "خمسة وخميسة" وهي تعويذة ضد الحسد. ولها علاقات قديمة بالخلق وبالخصوبة وبالخلود.

رقم ٦- يرمز لأيام الخلق. واعتبر الفيثاغوريون هذا الرقم مقدساً وقالوا إنه يرمز للصحة. ولفظ Six في اللغة الانجليزية قد يقابل في الأحلام معنى الجنس Sex وقد يرمز للزواج لأنه حاصل ضرب ٣ (المذكر)× ٢ (المؤنث).

رقم ٧- رمز قديم في الأساطير والأديان. له علاقة بالأزمنة والأوقات. فالأسبوع سبعة أيام. وخلق الله العالم في سبعة أيام. ويتحكم في حياة الإنسان دورات من سبع: فقد يولد الطفل بعد سبعة أشهر، ويعطى له اسم في السبوع، وتظهر أسنانه في الشهر السابع، وتتجدد في السنة السابعة.. وله دلالات أخرى قديمة منها: الكواكب السبع، والسماوات السبع، والسواقي السبع والبقرات السبع، والسنابل السبع في قصة يوسف.. وهو من الأرقام الميمونة التي يستبشر بها الناس ويتفاءلون.

رقم ٨- من الأرقام التي يحوطها الغموض والإبهام. ولا يصح أن نأخذ دلالتها من شكلها بل من وظيفتها. تروي بعض العقائد القديمة كاليهودية أن الجنة لها ثمانية أبواب. وقد يكون لذلك علاقة بعادة اليهود إجراء عملية الختان للطفل في اليوم الثامن. الحق أن مغزاها في الأحلام غير واضح.

رقم ٩- قد يكون رمزاً للميلاد، فالجنين يولد بعد تسعة أشهر. وقد يكون رمزاً للموت لأنه نهاية الأعداد، ولأن شكلها الذي يشبه الجنين في الرحم يذكرنا بالوضع "المقرفص" الذي يوضع عليه الميت في طقوس الدفن في عصور ما قبل التاريخ، وهذا الوضع نفسه رمز للبعث.

رقم ١٠– رمز مقدس للإله أو للكمال. وقد يرمز للوصايا العشر. وقد يكون الواحد الصحيح ذكر، والصفر أنثى.

وهناك وحدات أكبر يسهل ترجيح معناها: رقم ١١ وهو من الأرقام الميمونة التي يتفاءل بها الناس.. رقم ١٢ ويشير إلى شهور السنة أو إلى تلاميذ السيد المسيح.. رقم ١٣ وهو من الأرقام التي تبعث على التطير، ولذلك فهو مكروه، ويحذف عادة من أرقام حجر الفنادق. ويقال في تعليل التشاؤم منه أنه يرمز إلى يهوذا. رقم ٢٠ ويرمز عند بعض الجماعات البدائية للرجل بحسب عدد أصابع اليدين والرجلين.. رقم ٢٤ لساعات اليوم.. رقم ٣٠ لأيام الشهر.. رقم ٤٠ لمدة الصيام، أو لمدة الطوفان، أو لمدة بقاء سيدنا موسى في البرية.. رقم ٦٠ قد يكون ساعة.. وهكذا.

وهذه الدلالات كلها تقريبية، ولا يمكن الجزم بصحتها في الأحلام، ولا التقيد بحرفيتها في التفسير. فبعضها يبدو غريباً ومفتعلاً، وبعضها الآخر يبدو منطقياً ومعقولاً، بحيث يمكن أن يسترشد بها المفسر ويختار من بينها. وإذا كان ترجيح المعنى المحتمل مرجعه إلى المفسر؛ فلا غنى عن التداعي الحر الذي يسهم به الحالم، والذي يقرن الرقم في الحلم بظروف الحالم وحياته الخاصة. فمهما تكن فطنة المفسر وفراسته، لا يمكنه تفسير دلالة الرقم في الحلم في غياب الحالم، لأن ذلك لا يتفق مع أصول التعبير. ومثل المفسر الذي يعتمد على دلالات ثابتة للأرقام، كمثل الخرافيين من العامة الذين يلتمسون معرفة البخت من ورق الكتشينة. فلكل رقم عند العرافين في الورق

دلالة. ولكن هذه الدلالات تنصب على المستقبل. أما دلالات الأرقام في الأحلام فلا تبنى عن المستقبل وإنما تسري على الحاضر والماضي.

والمثال التالي يبين كيف اتضح مغزى الرقم في الحلم بفضل التداعي الحر. تاجر عنين في الثالثة والأربعين من عمره حلم وكأن صوتاً يقول له: "شيء واحد يحقق لك الشفاء هو واحد وعشرين." فسأله المحلل: "من الذي يبلغ الحادية والعشرين؟" فأجاب على الفور "ابنتي" وبذلك كشف المريض عن تثبيت حبه على ابنته، وهو مصدر علته وعنته.

وقد يكون للرقم أكثر من دلالة بفضل "التكثيف" الذي يدمج أشتاتاً من الأفكار الكامنة في رقم واحد. ففي المثال السابق يقبل رقم ٢١ تأويلاً آخر هو أنه رمز لعضو التذكير لأن ٢١ عبارة عن ١+٢= ٣ وهو عضو التذكير، وهو مصدر علته. كما أن الواحد قد يكون رمزاً للتاجر صاحب الحلم نفسه، والاثنين رمزاً لابنته.. وقد تنزع بعض الأرقام إلى التكرار في أحلام الشخص الواحد، فيكون تكرارها من قبيل التأكيد.

ومن الناس من يضفي على الأرقام دلالات ميمونة أو دلالات مشئومة. فيقال مثلاً إن الأرقام الفردية أرقام سعد، والأرقام الزوجية أرقام نحس. وأحياناً يقال العكس. ويختلف المتطيرون بشأن الرقم الواحد: فالبعض منهم يتخذه بشير خير ويتفاءل به، والبعض الآخر يتخذ نفس هذا الرقم نذير سوء ويتشاءم منه؛ الأمر الذي يدل على أن التطير من الأرقام مسألة نسبية، وأن دلالة الأرقام عند المتطيرين ليست ثابتة. ويوضح ذلك المثال التالي:

حكى أن هرون الرشيد رأى ملك الموت عليه السلام، فقال له: "يا ملك الموت كم بقي من عمري؟" فأشار إليه بخمس أصابع كفه مبسوطة. فانتبه مذعوراً باكياً من رؤياه. ثم قصها على حجام موصوف بالتعبير، فقال: "يا أمير المؤمنين قد أخبرك أن خمسة أشياء علمها عند الله تجمعها هذه الآية: إن الله عنده علم الساعة..." فضحك هرون وفرح بذلك– ابن سيرين ص ٦٩.

ويرى ابن سيرين أن دلالة الأعداد والأرقام في الأحلام تختلف باختلاف المعدود، فليس للأعداد دلالات في ذاتها بل تتوقف على جوهر المعدود. ويتضح ذلك بوضوح من دلالة رقم ٥ في المثال السابق ومن دلالته في المثالين التاليين:

حكى أن رجلاً حضر ابن سيرين فقال: "رأيت كأنني أعطيت خمس إبر ليس فيها خروق"، فقال ابن سيرين: "الإبر الخمس التي لا ثقب فيهن أولاد." ص ٢٦٣.

وفي تأويله الكواكب التي كانت معروفة في وقته يقول: "وأما الخمسة السيارة فزحل صاحب عذاب الملك، والمشتري صاحب مال الملك، والمريخ صاحب حرب الملك، والزهرة امرأة الملك، وعطارد كاتب الملك." ص ١٧٣ وفي زمانه لم تكن قد عرفت بعد الكواكب الأخرى: أورانوس، ونبتون، وبلوتو.

الفصل العشرون

دلالة الألوان في الأحلام

معظم الناس لا يذكرون ألواناً في أحلامهم، فتبدو أحلامهم كالأفلام غير الملونة. وقليل من الناس من يستطيع أن يميز الألوان في أحلامه، وهؤلاء لا تكون أحلامهم كلها ملونة (تكنيكلور) وإنما يكون لون بعض الأشياء -كألوان الثياب في أحلام النساء- عنصراً هاماً في الحلم يستلفت نظر الحالم ويتذكره. ولا يكون اللون في الحلم شيئاً ثانوياً أو عارضاً، وإنما تكون له دلالة ويحتاج إلى تأويل. وغالباً ما تكون دلالة اللون متمشية مع سياق الحلم ومتفقة مع موضوعه.

وقد تكون للألوان في الحلم دلالات عامة ثابتة متعارف عليها، كدلالة الثوب الأبيض في أحلام العذارى، على البراءة والطهر والعفاف، ودلالة اللون الأسود على الحداد أو الحزن أو الموت. وقد تكون للألوان دلالات فردية خاصة تختلف من حالم إلى حالم تبعاً لاختلاف الأمزجة والأذواق وما يفضله الحالم ويميل إليه من الألوان. ويتعذر الفصل في تفسير الألوان في الأحلام بين الدلالات العامة، والدلالات الفردية الخاصة؛ وبين الألوان التي لها دلالة موضوعية وتقترن بأشياء معينة، والألوان ذات الدلالة الذاتية التي تقترن بمشاعر خاصة.

وشأن الألوان في الأحلام كشأن الألوان في تعبير الفنان، منها ما له دلالة موضوعية تطابق الواقع، ومنها ما له دلالة ذاتية ترضي نزعة الفنان،

ومنها ما له دلالة ثابتة قديمة، ومنها ما يقبل التحوير والتغيير والابتكار. فالحمامة البيضاء التي تحمل غصنا أخضر وترمز للسلام؛ تستعصي على أية تغيير أو ابتكار. فالألوان في هذا الرمز ثابتة من أيام سيدنا نوح.. ولا يستطيع الفنان أن يغير فيها. وليس الأمر كذلك بالنسبة للفن الحديث– وبصفة خاصة بالنسبة للفن الانطباعي الذي لا يتقيد فيه الفنان بدلالات معينة ثابتة للألوان بل يتحرر من الواقع، ويرفض تقليد الحقيقة المادية الخارجية الملموسة، ولا يحاول محاكاة الطبيعة بألوانها وأشكالها وأبعادها.

وتختلف دلالات الألوان في الأحلام باختلاف البيئات وبتنوع الثقافات. ويتضح من الموازنة بين دلالات بعض الألوان في الأحلام في كتاب إميل جوثيل، وفي كتاب ابن سيرين، اختلاف دلالات الألوان باختلاف الزمان والمكان.

في كتاب إميل جوثيل (ص ٢٠٤)

يدل اللون الأخضر على الغيرة، والأصفر على الجبن، والأزرق على (عقدة ذي اللحية الزرقاء) وذو اللحية الزرقاء هو الجل الذي تزوج للمرة الثالثة بعد أن ماتت أو طلقت زوجتيه.

وفي كتاب ابن سيرين (ص ١٠٦)

يدل اللون الأخضر على الجنة، والأصفر على المرض، والأزرق على الهم والغم. أما عقدة ذي اللحية الزرقاء فغير ذات موضوع عند المسلمين، وذلك لأن إباحة تعدد الزوجات حل هذه العقدة!

والألوان أكثر ما تكون شيوعاً في أحلام العميان، وبصفة خاصة عند الذين وفد عليهم العمى في وقت متأخر من حياتهم. وكثيراً ما يحلم العميان بالألوان الزاهية والأزهار البهيجة اليانعة، والمناظر الطبيعية الساحرة، والأضواء الباهرة. وهذه الأحلام تعتبر تحقيقاً وهمياً للرغبات وتعويضاً عما يفتقدون. ويظهر في أحلام الجزع والحصر عند العميان رمز النار بلهيبها وحرارتها وضوئها والتدمير الناتج منها. وقد دل البحث على أن الذين فقدوا بصرهم قبل السابعة لا يروا في الأحلام. أما الذين وفد عليهم العمى بعد السابعة، فإنهم يبصرون في أحلامهم.

وأثبت البحث وجود علاقة بين الإحساس بالألوان في الأحلام، والاستجابة للألوان في اختبار رور شاخ، وهو أحد اختبارات الشخصية الذي يقوم على فكرة الإسقاط. والاختبار عبارة عن بطاقات عليها بقع حبر بعضها ملون بلونين، وبعضها الآخر ملون بأكثر من لون. ويطلب من المفحوص أن يعبر عما يراه في بقع الحبر. وحين يستجيب الفرد للأشكال التي تتخذها هذه البقع، يسقط عليها ما لديه من المعاني والمشاعر ويفصح عن مكنونات نفسه. وأهم ما يميز هذا الاختبار تقديره لسمات الشخصية بطريقة موضوعية، إذ أن هذه البطاقات ليست موضوعات قد قننها المجتمع أو مواقف ينبغي على الفرد أن يستجيب لها استجابة تفرضها أوضاع الثقافة أو الحضارة. وفي تقدير نتائج هذا الاختبار تدل كثرة الصفات اللونية على شدة الاندفاع والاهتمام بالذات وغلبة الانفعال. ولذلك تكثر الأوصاف التي يغلب عليها اللون في

استجابات الفنانين. وإذا صح أن هناك علاقة بين اللون والانفعال -وهو أحد الفروض الهامة التي يقوم عليها هذا الاختبار- فإن كثرة ظهور الألوان في الأحلام، قد تدل على شيوع العامل الوجداني في الشخصية. ويقال إن النساء أقدر على تمييز الألوان في الأحلام من الرجال.

وقد اكتسبت بعض الألوان دلالات رمزية خاصة منذ فجر التاريخ. فاللون الأحمر يرمز للحياة، وكانت له قيمة سحرية عند الإنسان في العصر الحجري القديم، وعند الجماعات البدائية كسكان استراليا الأصليين. فاستخدمت المغرة أو أكسيد الحديد الأحمر في تلوين نقوش الحيوانات التي صورت على جدران الكهوف في شمال أسبانيا وجنوب فرنسا، والتي ترجع للعصر الحجري القديم، لاعتقاد الإنسان القديم في القيمة السحرية لهذه النقوش وفي أنها تساعده على النجاح الفعلي في صيد هذه الحيوانات. وكذلك استخدم الأستراليون القدماء المغرة ذات اللون الأحمر في تلوين صور حيوان الطوطم التي نقشوها على الصخر كجزء من طقوسهم التي يقصد بها الإكثار من توالد هذا الحيوان. واستخدمت المغرة الحمراء كذلك في طقوس الدفن عند قدماء المصريين منذ عصور ما قبل التاريخ. باعتبار اللون الأحمر رمزاً للحياة ويتفق مع فكرة البعث والخلود.

كذلك اكتسب اللون الأخضر دلالة على الحيوية والخصوبة منذ أقدم العصور. وكان من عادة قدماء المصريين في عصر ما قبل الأسرات دهن وجوههم بالملاكيت أو خام النحاس الأخضر، وذلك لاعتقادهم في

أن اللون الأخضر يبعث فيهم الحيوية، ويحفظ عليهم صحتهم. واقترن اللون الأخضر بالحياة، لأن مياه النيل قبيل الفيضان يكون لونها مائلاً للخضرة بسبب المواد النباتية العالقة بها.. وبذلك اعتقد المصريون القدماء أن نمو الزرع الأخضر يرجع إلى مياه النيل الخضراء. فدهنوا وجوههم بالمادة الخضراء باعتبارها تبعث على الحياة والنضارة، وبمضي الوقت تكشفوا أن صهر هذه المادة ينتج عنه النحاس الذي صنعوا منه آلاتهم. وهذه النظرة الطريفة تقال[٣٧] في تعليل سبق المصريين إلى استخدام النحاس، قبل شعوب العالم طراً.

وما أجمل اجتماع اللون الأبيض واللون الأحمر في وصف السيد المسيح عليه السلام في "نشيد الإنشاد" فبعد النشيد الذي أوردنا نصه في الفصل الخاص بالمشي أثناء النوم ومطلعه "أنا نائمة وقلبي مستيقظ.." ونهايته "أحلفكن يا بنات أورشليم إن وجدتن حبيبي أن تخبرنه بأني مريضة حباً" يأتي النشيد الذي تسال فيه بنات أورشليم عمن يكون هذا الحبيب؟.

"ما حبيبك من حبيب أيتها الجميلة بين النساء، ما حبيبك من حبيب حتى تحلفينا هكذا* حبيبي أبيض وأحمر. معلم بين ربوة* رأسه ذهب إبريز، قصصه مسترسلة حالكة..." إلى أخر النشيد.

ووصف السيد المسيح بأنه "أبيض" علامة على طهارته وخلو حياته من أية شائبة أو غيب و"أحمر" إشارة إلى سفك دمائه وآلامه التي

---

(٣٧) W. J. Perry: "The Growth of Civilization"; Pelican, ١٩٣٧, p. ٤٩.

تحملها في موته. "أبيض" علامة على ضياء مجده، فإنه على جبل التجلي "أضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور" متى ١٧: ٢ "وأحمر" إشارة إلى أخذه طبيعة الإنسان. فإن معنى كلمة "آدم" أرض حمراء، وإشارة كذلك إلى خلوده وبعثه كما في الدلالة الرمزية للون الأحمر منذ فجر التاريخ.

وتعد مساهمة ابن سيرين في تفسير دلالة الألوان في الأحلام مساهمة أصيلة وليس لها نظير في كتب تفسير الأحلام. فلم يعرض لهذا الموضوع من الكتاب المحدثين في تفسير الأحلام سوى إميل جوثيل، ولكنه لم يبلغ مستوى فراسة ابن سيرين الذي تعد دلالات الألوان في تفسيره أشمل وأعمق من دلالاتها في كتاب إميل جوثيل، كما سيتضح للقارئ حين نجمل الدلالات التي تقترن بالألوان الأساسية في الأحلام، مع أمثلة واقعية مما تجمع لدينا من الألوان في الأحلام، فيما يلي:

اللون الأبيض:

يقول ابن سيرين إن البياض في الثياب جمال في الدنيا والدين. ويقول إميل جوثيل إن اللون الأبيض في الثياب يرمز للبراءة والطهارة. وتبين الأحلام التالية كيف ترمز الثياب البيض في أحلام العذارى للبراءة والطهر والعفاف.

الآنسة محاسن في نحو الثلاثين من عمرها. كان هناك مشروعاً لخطبتها إلى ابن الجيران الأستاذ علي المحامي الذي يسكن في نفس العمارة مع والدته. ولكن هذه الخطبة لم تتم لأن والدته تدخلت فحالت دون إتمامها، وشرعت تبحث له عن عروس أخرى.

حلمت الآنسة محاسن أنها ترتدي فستاناً أبيض طويلاً وجديداً ومحلى بالياقوت وصعدت إلى سطح العمارة التي تسكن فيها، فوجدت السيدة أم علي تجلس على الأرض وهي منهمكة في تفكيك قطن تنجيد، فتقدمت إليها وسلمت عليها. ولكن أم علي أشاحت عنها بوجهها وانصرفت إلى تفكيك القطن. فتضايقت محاسن لأن الفستان الجديد الجميل لم يسترع انتباه أم علي ولأنها لم تكلمها. فمشت إلى جهة أخرى من السطح وهي مستاءة."

والدافع إلى هذا الحلم هو الرغبة في الزواج من الأستاذ علي. والفستان الأبيض الطويل الجديد هو فستان الخطوبة. وكانت تتمنى أن تحوز إعجاب أم الأستاذ علي. ولكن هذه السيدة أشاحت عنها بوجهها، ولم يستلفت نظرها الفستان الجديد. ومعنى هذا أن الأم لا تعيرها التفاتاً ولا تنوي خطبتها لابنها، بل تستمر في تفكيك القطن الذي يرمز للاستعداد للفرح وتنجيد فرش عروس... أخرى.

ويروي إميل جوثيل الحلم التالي وهو لفتاة في مقتبل العمر:

"حلمت بأنها ترتدي ثوباً أبيض، وفجأة لاحظت أن به بللاً من الأمام".

والثوب الأبيض رمز للطهر. ولكن البلل يشير إلى بعض الخبرات الجنسية التي يؤنبها ضميرها عليها، والتي حاولت إخفاءها، فكشف الحلم عنها.

اللون الأسود:

من الألوان التي تبعث على التطير في الأحلام اللون الأسود. ودلالته الحداد أو الحزن أو الموت. وهو نذير سوء للمتشائمين وأصحاب المزاج السوداوي. وفي تفسير ابن سيرين: "الثياب السود لمن لا يعتاد لبسها إصابة مكروه... ولمن اعتاد لبسها صالحة، فهي سؤدد ومال وسلطان... وقيل هي للمريض دليل الموت، لأن أهل المريض يلبسونها."

والمثالان التاليان من أمثلة التطير من اللون الأسود في الحلم:

سيدة متزوجة، تغيب زوجها في سفر لبضعة أيام. وبينما هو غائب حلمت: "أنها تنشر ملاءة سرير سوداء ولحافاً أسود على الحبل في المنور." وقامت من نومها مكتئبة. وتطيرت من الحلم، وتوجست من أن يصيب زوجها مكروه في سفره. وقضت وقتاً عصيباً وهي تترقب بفارغ الصبر حضوره. فلما عاد إليها سالماً استقبلته استقبالاً غير عادي وبطريقة استلفتت نظره.

رجل طيب مثقف أعرفه معرفة وثيقة. وأعرف أنه متشائم وينظر إلى الدنيا بمنظار أسود. إذا تأملت ظروفه وجدتها في مجموعها حسنة سواء من حيث المال أو البنون أو الصحة. ولكنه لا يكف عن التذمر والشكوى، ولا يذكر أبداً الجوانب الطيبة المشرقة في أي موضوع يعرض له، بل يفتش عن الجوانب السيئة والنواحي التي يتوجس منها الشر حتى ولو كانت مجرد احتمالات بعيدة. روى لي حلماً قصيراً معبراً، اعتقد أنه يلخص أسلوب حياته في كلمتين، حلم: "بعسل أسود" فظروفه كلها عسل.. ولكن نظرته لها تجعلها عسلاً أسود.

اللون الأحمر:

من دلالات اللون الأحمر في الأحلام: الحياة– الحب– السرور والفرح– الشيطان– الشيوعة– الدم... ويكثر ظهور اللون الأحمر في أحلام النساء قبيل الحيض أو في أثنائه.

وفي تفسير ابن سيرين: "الحمرة في الثياب للنساء صالح، وتكره للرجال لأنها زينة الشيطان، إلا أن تكون الحمرة في إزار أو فراش أو لحاف وفيما لا يظهر الرجل، فيكون حينئذ سروراً وفرحاً."

"ورأى أبو مسلم الخراساني كأن رسول الله صلى الله عليه وسلم عممه بعمامة حمراء ولواها على رأسه اثنتين وعشرين ليلة فقص رؤياه على معبر فقال تلي اثنتين وعشرين سنة ولاية في بغي فكان كذلك" ص ١٠٦.

اللون الأخضر:

يقول إميل جوثيل إن اللون الأخضر يرمز للغيرة. ويقول ابن سيرين: "الخضرة في الثياب جيدة في الدين لأنها لباس أهل الجنة... والثياب الخضر قوة ودين وزيادة عبادة للأحياء والأموات وحسن حال عند الله تعالى، وهي ثياب أهل الجنة. ولبس الخضرة أيضاً للحي يدل على إصابة ميراث، وللميت يدل على أنه خرج من الدنيا شهيداً."

وقد لاحظت فيما جمعت من الأمثلة أن الأولياء والمشايخ في

الأحلام ترتدي عمامات خضراء[٣٨] والحلم التالي يبين إدراك أهل الريف بفطرتهم الصافية دلالة اللون الأخضر في الحلم.

سيدة ريفية حلمت حلماً جميلاً لشيخ بلدها بعد أن توفي بنحو أربعين يوماً، تقول: "رأيت أبويا مصطفى وهو يلبس عباءة خضراء زاهية اللون في لون الغلة الخضراء وفي كامل صحته، فاستبشرت له وقلت في نفسي أثناء الحلم إنه لابد أن يكون في الجنة."

اللون الأصفر:

يقول إميل جوثيل إن اللون الأصفر يرمز للجبن، ويقول ابن سيرين: "الصفرة في الثياب مرض وضعف.. وتكره للرجال." وفي موضع آخر يقول: "الثياب الصفراء صالحة للنساء وخاصة للغواني والزواني منهن وذلك أن من عادتهن لبسها." ص ١٠٩ ويلاحظ أن ابن سيرين يقرن دلالات الألوان بالثياب. ومن الطريف أنه يقول إن إرادة المسافر من سفره تكون حسب لون نعله في الحلم، فإن كانت سوداء كان طالب مال وسؤدد، وإن كانت حمراء كان لطلب سرور، وإن كانت خضراء كان لدين، وإن كانت صفراء كان لمرض وهم. ص ١١١.

---

(٣٨) انظر الحلم رقم ٤١ بعنوان "قطب الغوث المتولي" والحلم رقم ٤٢ بعنوان "لمسة اليد الشافية" في كتاب "الكابوس".

الفصل الحادي والعشرون

طريقة ابن سيرين في تفسير الأحلام

إن القارئ الذي تذوق في الأمثلة السالفة الذكر صدق فراسة ابن سيرين وقوة حدسه في تأويل الأحلام، يتوق ولا شك إلى معرفة المزيد عن طريقته ومنهجه. والحق أن ابن سيرين صاحب طريقة في تفسير الأحلام تضارع أحدث الطرق التي يتبعها رجال التحليل النفسي. فمنذ أكثر من ألف سنة عرف ابن سيرين كثيراً من المبادئ والأصول التي ينادي بها المشتغلون بتفسير الأحلام. وفي هذا الفصل سنحاول أن نوضح أهم الدعائم التي تقوم عليها طريقة ابن سيرين، كما وردت في كتابه "منتخب الكلام في تفسير الأحلام."

أصناف الرؤيا

يقول ابن سيرين في مقدمة كتابه: "جميع ما يرى في المنام على قسمين فقسم من الله تعالى، وقسم من الشيطان... فالرؤيا الصالحة بشرى من الله عز وجل. أما أباطيل الأحلام فتضاف إلى الشيطان... والرؤيا الصادقة قسمان قسم مفسر ظاهر لا يحتاج إلى تعبير ولا تفسير. وقسم مكني مضمر تودع فيه الحكمة والأنباء في جواهر مرئياته." ص ٤.

ويعني ابن سيرين بصفة خاصة بالرؤيا الصحيحة التي تنبئ عن المقبل من الحادثات، فيقول: "الرؤيا الصحيحة في الأصل منبئة عن حقائق الأعمال، منبهة على عواقب الأمور إذ منها الزاجرات الآمرات،

ومنها المبشرات والمنذرات..." ص ١٣ غير أنه لا يقصر اهتمامه على الدلالة المستقبلة للأحلام، بل يرى أن الأحلام قد تدل على الماضي أو على الحاضر أو على المستقبل، فيقول: "واعلم أن الرؤيا تأتي على ما مضى وخلا وفرط انقضى... وقد تأتي عما في الإنسان، وقد تأتي عن المستقبل فتخبر عما سيأتي من خير أو شر." ص ٤.

تأويل الرموز

وكان ابن سيرين يسترشد في تأويل رموز الأحلام بالمجالات الثقافية التي تظهر فيها نظائر لهذه الرموز، كالمعتقدات والعادات، والحكم والأمثال، والشعر والمعاني واشتقاق الأسماء، فهو يقول: "إن العابر يحتاج إلى اعتبار القرآن وأمثاله ومعانيه... ويحتاج أيضاً إلى معرفة أمثال الأنبياء والحكماء، ومعرفة اشتقاق اللغة ومعاني الأسماء..." ص ٤ "وقد يكون التأويل بالمثل السائر... أو بالضد والمقلوب..." ص ٨ "وقد يكون مرة في لفظ الاسم ومرة في معناه، ومرة في ضده، ومرة في كتاب الله تعالى، ومرة في الحديث، ومرة في المثل السائر والبيت المشهور." ص ٧. وهو لذلك يشترط في العابر أن يكون: "أديباً ذكياً فطناً تقياً نقياً عارفاً بحالات الناس وشمائلهم وأقدارهم وهيأتهم... عارفاً بالأزمنة وأمطارها ونفعها ومضارها، وبعادة البلدان وأهلها وخواصها..." ص ٥.

التداعي الحر

وقد تعجب إذ تعلم أن ابن سيرين لم يقتصر في طريقته على تأويل مدلول الرموز، بل استخدم كذلك طريقة التداعي الحر، فكان يتقصى

تاريخ الحالم، ويتعرف على ظروفه الخاصة وملابسات الحلم. وتوضح الفقرة التالية ذلك في جلاء: "وكان ابن سيرين إذا ما وردت عليه رؤيا مكث فيها ملياً من النهار يسأل صاحبها عن حاله ونفسه وصناعته وعن قومه ومعيشته وعن المعروف عنده من جميع ما يسأله عنه والمجهول منه، ولا يدع شيئاً يستدل منه ويستشهد به على المسئلة إلا طلب علمه... كما كان يستدل بكلام صاحب الرؤيا ومخارجه ومواضعه على تلخيصها وتحقيقها." ص ١٢.

الرموز الجنسية

وقبل فرويد بأكثر من ألف سنة تعرف ابن سيرين على الرموز الجنسية في الأحلام. وكتابه حافل بهذه الرموز ودلالاتها الجنسية الصريحة. وفيما يلي أمثلة قليلة منها:

القفل والمفتاح	: وأما من فتح قفلاً، فإن كان عزباً فهو يتزوج، وإن كان مصروفاً عن عروسه فإنه يفترعها. فالمفتاح ذكره والقفل زوجته. ص ٢٧٠.
القلم والمحبرة	: قال أكثر المعبرين إن القلم ذكر والدواة زوجة. ص ٢٥٢.
المرود والمكحلة	: وأما من أولج مروداً في مكحلة ليكحل عينيه، فإن كان عزباً تزوج. ص ٢٦٦.
الدلو والبئر	: فمن أدلى دلوه في بئر نظرت في حاله، فإن كان

طالب نكاح نكح... فالدلو ذكره، وماؤه نطفته، والبئر زوجته. ص ٢٢٦.

القدر والكانون	: يدل الكانون على الزوجة والقدر على الزوج فهي أبداً تحرقه بكلامها، وتقتضيه في رزقها، وهو يتقلى ويتقلب في غليانها داخلاً وخارجاً. ص ٢٦٢.

المرونة في التأويل

يكاد ينعقد إجماع المشتغلين بتفسير الأحلام على أن رموزها ليست لها دلالات ثابتة. فالرمز الواحد لا يحمل دائماً نفس المعنى، بل تختلف دلالته من شخص إلى آخر. ولم يكن ابن سيرين يتقيد بدلالات ثابتة للرموز، فيقول: "قد تتغير الرؤيا عن أصلها باختلاف هيئات الناس وصناعاتهم وأقدارهم وأديانهم وطبائعهم، فتكون لواحد رحمة وعلى آخر عذاباً" ص ٩.

وأدرك ابن سيرين أن دلالة الرمز تختلف عند مختلف الناس تبعاً لتباين ظروفهم وبيئاتهم وحرفهم. وهو يضرب لذلك مثلاً بالرمانة في الحلم، فيقول: "ربما كانت للسلطان كورة يملكها أو مدينة يلي عليها يكون قشرها جدارها أو سورها وحبها أهلها. وتكون للتاجر داره التي فيها أهله، أو حمامه أو فندقه أو سفينته الموقرة بالناس والأموال في وسط الماء، أو دكانه العامر بالناس، أو كتابه المملوء بالغلمان، أو كيسه الذي فيه دراهمه ودنانيره. وقد تكون للعالم أو للعابد الناسك كتابه ومصحفه وقشرها أوراقه وحبها كتابه الذي به صلاحه. وقد تكون للأعزب زوجة بمالها وجمالها. وقد تكون للحامل ابنة محجوبة في مشيمتها ورحمها ودمها..." ص ٥.

تبسيط الحلم

وكان ابن سيرين يجري على قاعدة تبسيط الحلم، والاقتصار على دوافعه الأساسية، واستبعاد تفاصيله الثانوية. فيقول: "إن العابر لا يضع يده من الرؤيا إلا ما تلقت أمثاله ببشارة أو نذارة أو تنبيه أو منفعة في الدنيا والآخرة ويطرح ما سوى ذلك لئلا يكون ضغثاً أو حشواً مضافاً إلى الشيطان." ص ٣.

أدب المعبر

كثير من آداب التعبير عند القدماء، كما أوردها ابن سيرين في مقدمة كتابه، لا تزل من الأصول المرعية والقواعد المقررة التي يتبعها المحدثون من أقطاب تفسير الأحلام. يقول: "وينبغي أن يكون في المعبر خصال محمودة الديانة والحفظ والسماحة وأدب النفس والتقي والحلم والصيانة والصمت عما لا يدري، وترك الهذر في كثرة الكلام، والكتمان على سائر الناس رؤياهم، وأن يستغرق السؤال بأجمعه من السائل، وأن يحسن الاستماع إلى الرؤيا، وأن يتأنى في التعبير ولا يتعجل به". ص ٨ ويقول: "واستر ما يرد عليك من الرؤيا في التأويل من أسرار المسلمين وعوراتهم، ولا تخبر بها إلا صاحبها، ولا تنطق بها عند غيره، ولا تحكها عنه ولا تسمه فيها إن ذكرتها، ولا تحك عن أحد مسئلة رؤيا إن كان فيها عورة يكرهها، فإنك إن فعلت ذلك اغتبت صاحبها... وإياك إياك أن تحرف مسألة عن وجه تأويلها المعروف في الأصول أو تجاوز بها حدها المعلوم رغبة منك أو رهبة فيحق عليك بالكذب ويعمى عليك سبيل

الحق فيه. بل يسعك السكوت إن كرهت الكلام به." ص ١١ وما تزال هذه التوجيهات كلها من الأصول والآداب المرعية في تفسير الأحلام.

وكان ابن سيرين إمام الناس في فن التعبير لا يأنف أن يقول لما يشكل عليه لا أعرفه. وروى عنه أنه كان يسأل عن الرؤيا فيعبر من كل أربعين واحدة. ص ٩. ومعنى ذلك أن ليست كل الأحلام– في رأيه قابلة للتأويل. وهو يتفق في هذا الرأي مع فرويد، الذي يرجع تعذر تفسير بعض الأحلام إلى شدة المقاومة أما شتيكل فيرى أن كل الأحلام مهمة وليس من بينها ما يمكن اعتباره علیماً عديم المعنى، فإذا ما بدا الحلم غير مهم فذلك لأننا لا نفهمه.

ويوصي ابن سيرين القاص لرؤياه بقوله لا تقص رؤياك إلا على عالم أو ناصح، ولا تقصها على حاسد أو عدو أو جاهل.

الرؤيا الظاهرة والرؤيا المرموزة

ذكرنا في مطلع هذا الفصل أن ابن سيرين يقسم الرؤيا الصادقة إلى قسمين: قسم مفسر ظاهر لا يحتاج إلى تعبير ولا تفسير، وقسم مكني مضمر تودع فيه الحكمة والأنباء في جواهر مرئياته. وفيما يلي مثالين لهذين مقسمين، ذكرهما ابن سيرين نقلاً عن أرطميدورس اليوناني الذي عاش في القرن الثاني للميلاد.

١– الرؤيا الظاهرة: "قال أنطاميدورس الرؤيا الظاهرة مثل ما يرى الإنسان كأنه في البحر. وكأن البحر قد هاج عليه وتموج. فلما انتبه أصاب ذلك بعينه، وذلك إنه سار في البحر، وهلكت سفينته، ولم يسلم من كان فيها إلا هو ونفر يسير."

ويذكرنا هذا الحلم التنبؤي بحلم تنبؤي آخر، وهو الحلم الذي سرده شيشرون عن الشاعر سيمونيدس: "قيل إن سيمونيدس وجد مرة جثة إنسان مجهول، ملقاة في عرض الطريق فعنى بتكفينها، ومواراتها التراب في حفل لائق. فحذره شبح ذلك الرجل بعد ذلك من سفرة في البحر كان الشاعر يعتزم القيام بها منبئاً إياه بأن اليم سوف يبتلعه إن قام بها، فتخلف سيمونيدس عن الارتحال، ولاقى جميع رفاقه حتفهم في تلك الرحلة."

وتفسير أدلر لهذا الحلم قد يسري كذلك على الحلم الذي سرده أرطميدورس فوجه الشبه كبير بينهما. يقول أدلر: "إن السفن في ذلك الحين كانت كثيرة التعرض لخطر الغرق، ولهذا كان القوم قبل ركوبهم متن البحر يواصلون التفكير فيه، ويشفقون مما سوف يتعرضون له من أهوال. وكثيراً ما كان يعرض مثل ذلك لهم في أحلامهم، فليس الحلم سيمونيدس من قيمة خاصة؛ إلا أن الصدفة التي أدت إلى تحققه، بلغت من الروعة حداً كبيراً.

ومن المحتمل أن هذا الشاعر لم يكن صادق الرغبة في القيام بتلك الرحلة خوفاً من أهوال البحر وأخطاره. فلما اقتربت ساعة الرحيل، كان يعتصر ذهنه لالتماس سبب يبرر تردده... فظهر له شبح هذا الرجل من نومه يحذره من القيام بتلك الرحلة، ويحدثه عن النبوءة التي كان سيمونيدس يتشوق لتلقي مثلها، كي يبرر تخلفه عن الرحيل دون أن يتهم بالقعود والجبن... ولو أن السفينة لم تغرق، لما سمعنا نبأ رؤياه، ولذهبت نسياً منسياً."[٣٩]

---

(٣٩) نقلاً عن كتاب: "علم النفس الفردي" تأليف الدكتور إسحق رمزي– دار المعارف، ١٩٤٦، ص ١٢٦.

٢- الرؤيا المرموزة: وهي من الأرواح. مثال ذلك ما حكاه انطامندورس إن إنساناً رأى كأن ملكاً من الملائكة قال له في المنام إن امرأتك تريد أن تسقيك السم على يد صديقك فلان. فعرض له من ذلك أن صديقه هذا زنى بامرأته. وإنما دلت رؤياه على ذلك لأن الزنا مستور، كما أن السم مستور.

ألا ترى في هذا الرؤيا نفس الفكرة الكامنة وراء قصة "هاملت" لشيكسبير، ونفس الدافع، ونفس الرموز تقريباً؟!

نماذج الشخصية

ويرى ابن سيرين أن الأحلام تختلف باختلاف الطباع والأمزجة. ولم يكن معروفاً من النماذج والأنماط في زمنه سوى تصنيف أبيقراط وجالينوس للشخصية إلى الأنماط الأربعة: السوداوي، والصفراوي، والبلغمي، والدموي. "وقد قالت القدماء من غلبت عليه السوداء رأى الأحداث والسواد والأهوال والأفزاع، وإن غلبت عليه الصفراء رأى النار والمصابيح والدم والمعصفر، وإن غلب عليه البلغم رأى البياض والمياه والأنواء والأمواج، وإن غلب عليه الدم رأى الشراب والرياحين والعزف والصفق والمزامير."

التفسيرات القديمة

وعلى الرغم من أن معظم تفسيرات ابن سيرين عربية أصيلة، وليست منقولة أو دخيلة، فإنه تأثر في تفسير الأحلام النموذجية المشهورة بالتفسيرات القديمة التي كانت موجودة في زمانه، والتي توارثتها الأجيال، حتى إنها لا تزال شائعة بين عامة الناس حتى وقتنا هذا.

فكثير من دلالات الأحلام النموذجية التي تناولنا تفسيرها بالتفصيل فيما سبق من فصول هذا الكتاب، والتي ودرت في كتاب ابن سيرين، لها نظائر في تفسير أرطميدورس اليوناني الذي عاش في القرن الثاني للميلاد. ويمكن تتبع نفس هذه الدلالات حتى أيام قدماء المصريين.

فمن دلالات الأحلام النموذجية التي وردت في كتاب ابن سيرين: "من يمت في الحلم فإن عمره يطول. ومن تسقط أسنانه في الحلم يموت له قريب. ولا خير في النظر في المرآة الفضة فدلالة النظر في المرآة المرض. وصعود شجرة أو ارتقاء سلم في الحلم من أسبابه العلو والرفعة. وأكل التين في الحلم ندامة وهم وغم."

وهذه الدلالات ذاتها نجدها في تفسير أرطميدورس، الذي يقول: "سقوط الأسنان في الحلم يدل على فقدان أحد أفراد الأسرة. ويدل هبوط السلالم على الهبوط إلى مستوى طغام الناس. ورؤية المرء نفسه في المرآة تنذر بموته. والتين في الحلم حزن وهم.."

ولهذه الدلالات نظائر في "الكتاب المصري الحقيقي للأحلام"[٤٠] الذي يرجع تاريخه إلى الدولة الحديثة الفرعونية. ونجد فيه نفس التفسيرات التي ذكرها أرطميدورس والتي انتقلت إلى ابن سيرين، والتي لا تزال شائعة بيننا حتى الآن. "فمن يرى نفسه ميتاً فهو يعيش حياة طويلة. ومن يحلم بسقوط أسنانه فإن قريباً له يموت. ورؤية المرء نفسه في المرآة فأل سيء ومعناه زوجة ثانية. ومن يحلم بقطة كبيرة فإنه ينال

---

(٤٠) "ديانة مصر القديمة" تأليف أدولف أرمان، وترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر ص ٣٤٨.

محصولاً وفيراً. ومن يتسلق سارية سفينة رفع الإله من شأنه. أما من يحلم بأنه يأكل تيناً أو عنباً، كان ذلك دلالة على المرض."

تلك هي أهم الدعائم التي تقوم عليها طريقة ابن سيرين في تفسير الأحلام. ولم يكن غرضنا دراسة هذه الطريقة دراسة نقدية، وإنما تعمدنا أن نختار من طريقته القواعد والأصول التي لا تزال محتفظة بقيمتها –إلى حد كبير– واستبعدنا عن قصد ما عداها. فغني عن القول أن في كتاب ابن سيرين كثير من التفسيرات العقيمة، والشطحات الجامحة. وهذه لم نحاول التعرض لها ولا نقدها. ولم يكن من الممكن أن نتذوق فراسة ابن سيرين سواء في تفسيراته أو في طريقته لو لم نضع هذه التفسيرات جنباً إلى جنب مع تفسيرات المحدثين من رجال التحليل النفسي، ولو لم نقارن طريقته القديمة بطرقهم الحديثة. ولقد كان غرضنا من الاقتصار على هذه الدعائم المنتقاة، أن نبرز ما في هذه الطريقة القديمة من مزايا، وأن ننبه الأذهان إلى ما في تراثنا الثقافي والميثولوجي من روائع لا يزال الكثير منها مطوياً، وينتظر الدراسة والفحص لاستخراج ما فيه من الدرر والكنوز.

الرجل الذي عاش في الأحلام، ومات بحلم

كان محمد بن سيرين إمام التعبير عند المسلمين. عاش في نهاية القرن الأول الهجري، ومات سنة ١٠٨هـ– ٧٢٨م. وقد بدأ حياته في تفسير الأحلام بحلم، وختم حياته بحلم. بدأ يفسر الأحلام عندما حلم بيوسف عليه السلام.

حكى عن ابن سيرين أنه قال: "رأيت في المنام كأني دخلت الجامع فإذا أنا بمشايخ ثلاثة وشاب حسن الوجه إلى جانبهم. فقلت للشاب من أنت

رحمك الله؟ قال أنا يوسف. قلت فهؤلاء المشيخة؟ قال آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب. فقلت علمني مما علمك الله. قال ففتح فاه وقال أنظر ماذا ترى؟ فقلت أرى لسانك. ثم فتح فاه فقال انظر ماذا ترى؟ فقلت لهاتك. ثم فتح فاه وقال انظر ماذا ترى؟ قلت أرى قلبك. فقال عبر ولا تخف. فأصبحت وما قصت عليّ رؤيا إلا وكأني انظر إليها في كفي." ص ٢٢.

وختم حياته بحلم! حكى أن امرأة جاءت إلى ابن سيرين وهو يتغذى فقالت: "رأيت كأن القمر دخل في الثريا، ومنادياً ينادي أن ائتي ابن سيرين فقصي عليه رؤياك." فقبض يده عن الطعام، وقال لها ويلك كيف رأيت؟ فأعادت عليه، فاربد لونه، وقام وهو آخذ ببطنه. فقالت أخته مالك. فقال زعمت هذه أني ميت إلى سبعة أيام، فمات في السابع! ص ١٧١.

ولا بد من توضيح مغزى الرموز التي جعلت ابن سيرين يتطير عند سماع الحلم الذي أوقف اللقمة في حلقه، وأورده حتفه.

القمر	يدل على العالم والفقيه وكل ما يهتدي به من الأدلة لأنه يهدي في الظلمات ويضيء في الحنادس ص ١٧٠. وهو في هذا الحلم يرمز إلى ابن سيرين نفسه. فالقمر والعالم بالرؤيا كلاهما يهتدي به فيما يرى في الظلمات.
الثريا	مشتقة من الثرى، وهي تدل على الموت لاسمها ص ١٧٣.

وعلى ذلك يرمز دخول القمر في الثريا إلى أفول نجم ابن سيرين.

ولست أدري لمّ يكون تحقيق هذا النذير بعد سبعة أيام؟ فليس في الحلم ما يشير إلى هذا الرقم ولا إلى دلالته.

وما دمنا ندرس الدلالات التنبؤية للأحلام، فقد يبدو لنا أن نتساءل هل لهذا الحلم قيمة تنبؤية؟

يبدو لأول وهلة أن هذا الحلم أنبأ بالمستقبل وتحقق، فمات ابن سيرين بعده بسبعة أيام– إذا صحت هذه الرواية. إني أعتقد أن تفسير القيمة التنبؤية لهذا الحلم هو ما يأتي: لو أن ابن سيرين نفسه هو الذي حلم بهذا الحلم، لكان تطيره منه له ما يبرره، باعتبار أنه قد يحتوي في هذه الحالة على شيء مخبأ في نفسه ينتمي إلى حياته العقلية اللاشعورية. ولكنه تطير لدى سماعه لحلم حلمته له امرأة. فهو حلم "غيري" وليس حلماً "ذاتياً" فلم يوسوس الهاتف لابن سيرين، ولكنه مع ذلك أدرك أنه هو القمر الذي يهدي في الظلمات والذي أفل نجمه ودفن في الثرى. وأدرك أنه هو المعني بالحلم لأن الهاتف قال للمرأة: "ائتي ابن سيرين فقصي عليه رؤياك" إني لا أبرئ هذه المرأة الساحرة!؟ فهي التي قضت على ابن سيرين سواء بعلم وقصد، أو بدون عمد أو قصد.. فهي التي أضمرت تمنيات لا شعورية شريرة حيال ابن سيرين. وأفصحت هذه الرغبات الشريرة عن نفسها في هذا الحلم المعبر، الذي كان له أثر إيحائي قوي على رجل صنعته تفسير الأحلام، ويدرك بفطرته دلالة رموزها.. فراح ضحية إيمانه بفنه. ولو أن هذا الحلم مقصود به رجل آخر غير ابن سيرين، رجل يجهل دلالة الرموز، لما تأثر به. ولو أن هذه المرأة لم تطع الهاتف، ولم تقص هذه الرؤيا على ابن سيرين، لما قتلته بسلاحه.

الفصل الثاني والعشرون

التحليل الوظيفي للأحلام النموذجية

للطريقة العلمية خطوات محددة، تبدأ بتحديد الظاهرة المراد دراستها لتعرف إلى أي حد هي وحدة محددة صالحة للعزل والدراسة. ويلي ذلك جمع المادة والمعلومات عن الظاهرة المراد دراستها، ثم تحليل هذه المعلومات ومقارنتها، ثم تصنيفها تمهيداً لاستخلاص النتائج منها في النهاية. وقد تختلف هذه الخطوات من موضوع إلى موضوع، ومن دراسة إلى أخرى اختلافاً يسيراً، ولكنها بوجه عام تتضمن هذه الخطوات، وبصفة خاصة في أبحاث العلوم الاجتماعية والنفسية.

وها نحن قد تعرفنا على الأحلام النموذجية ذات الدلالات التنبئية وأيقنا أنها وحدات محددة يمكن التثبت من ذاتيتها ومن صلاحيتها للعزل وللمناقشة. وقد جمعنا منها أكثر من عشرين مثالاً. وقمنا بتحليل كل مثال منها على حدة ثم صنفناها. والآن بقي أمامنا أن نقارن بينها تمهيداً لاستخلاص النتائج منها. ومعنى المقارنة بينها أنه إذا كانت أمثلة الأحلام مصفوفة جنباً إلى جنب "بالطول"، فعلينا أن نجوس خلالها "بالعرض" وأن نعمل فيها قطاعات تحت عناوين خاصة، ونستعرض العنوان الواحد أو الظاهرة الواحدة في كل الأمثلة.

الذات والضمير واللاشعور

والأحلام النموذجية التي وقع اختيارنا عليها أكثرها أحلام ذاتية

egoistic فالحالم نفسه هو الذي يسير عارياً أو حافياً، هو الذي يطير في الحلم أو يسقط في هوة سحيقة أو يرحل، هو الذي ينظر في المرآة أو يؤدي الامتحان هو الذي يضحك في الحلم أو يبكي، هو الذي يفقد شعره أو أسنانه في الحلم، هو الذي يخرج من الماء أو يدفن في الحلم حياً.

وعلى الرغم من أن هذه الأحلام تعبر عن "الأنا" أو الذات، فإن الضمير أو "الذات العليا" له أثر حاسم في كثير من هذه الأحلام وبصفة خاصة في الأحلام المزعجة. والضمير –كما تعلمنا من دراسة الكابوس– صارم شديد البأس. وهو يصنع العجائب مع الذات لدرجة أنه يمرضها أو يشفيها، ويسعدها أو يشقيها. وقد ينكل بها في الكابوس تنكيلاً ويذيقها من العذاب ألواناً. فإذا ما تخلى ضمير الحالم عن ذاته أثناء النوم، فإنها قد تعاني من السقوط في هوة سحيقة، أو تدفن حية في قبر أو في تابوت مغلق، أو تعاني من الغرق أو الاختناق. كما أن ضمير الحالم قد يحاسبه في الحلم حساباً عسيراً ويعاقبه فيه عقاباً جائراً فيخلع له سناً، أو يفقأ له عيناً، أو يقص في الحلم شعره أو يقطع لسانه. كما أن الضمير قد يعبر عن وطأته برموز تبعث في النفس الندم كالتين، أو تبعث في النفس الضيق كالكعك أو الفطير، أو تذكر الحالم بجهنم وعذاب الآخرة بحلم تشب فيه نار موقدة تملأه رعباً وفزعاً.

وإذا كانت هذه الأحلام ذاتية تخص صاحب الحلم، وإذا كان ضمير الحالم يقوم فيها بدور حاسم، وبصفة خاصة في الأحلام التي تثير الفزع والقلق، فإن الدوافع اللاشعورية والنزعات المكبوتة التي ينطوي

عليها "الهو Id" تكدح في سبيل الإفصاح عن نفسها في هذه الأحلام، والتعبير عن وجودها بطريقة رمزية. فالخوف الكامن من الإخصاء يفصح عن نفسه برموز منها سقوط السن أو قص الشعر في الحلم. وصدمة الميلاد أولى صدمات الحياة تفصح عن نفسها في الأحلام التي يمر فيها الحالم في نفق ضيق أو التي يخرج فيها من الماء، أو التي يدفن فيها حياً، أو يبتلعه وحش من وحوش الأعماق. والتثبيت عند المرحلة النرجسية أو النكوص والارتداد إليها يدل عليه الحلم بالنظر في المرآة. كما أن الرغبات الجنسية المكبوتة قد تكون هي الدافع لأحلام الطيران أو للحلم بصعود السلالم أو النزول عليها.

وعندما بحث أقطاب التحليل النفسي عن الدوافع اللاشعورية لهذه الأحلام، فسروها طبقاً لمبادئهم الموجهة، وطبقاً لأفكار ثابتة مسلم بها مقدماً ومن أمثلة هذه الأفكار الثابتة: الرغبات الجنسية الطفلية المكبوتة، عند فرويد. ودافع القصور والرغبة في التعويض والتطلع إلى السيطرة والقوة، عند أدلر. و"الصور الأولية البدائية" واللاشعور الجمعي، عند يونج. ودلالة الحلم على العصاب أو المرض النفسي، وموقف الحالم من المحلل ومن عملية التحليل النفسي، عند شتيكل. ومن هنا ظهرت للحلم الواحد تفسيرات كثيرة، كما رأينا فيما سبق تحليله من أحلام.

إن الاهتمام بالدوافع اللاشعورية لهذه الأحلام، ينبغي ألا يصرفنا عن الاهتمام بالمجال الاجتماعي الذي توجد فيه نظائر لرموز هذه الأحلام. فالميزة الهامة التي تنفرد بها الأحلام النموذجية ذات الدلالات

التنبئية هي أن لرموزها حتمية وعلاقات بالمجال اللاشعوري الداخلي، وحتمية وعلاقات بالمجال الاجتماعي الخارجي –مجال الأنثروبولوجيا والميثولوجيا والفولكلور– وهو المجال الذي تعني به أساساً طريقة التحليل الوظيفي.

المجال الاجتماعي

من أهم الدعائم التي تقوم عليها طريقة التحليل الوظيفي للأحلام النموذجية، إيجاد العلاقات بين رموز الأحلام ودلالاتها القديمة من ناحية، ومدلولات الرموز في الأديان والأساطير والطقوس والعادات البدائية والمعتقدات الشعبية والتطيرات والأفعال العرضية... من ناحية أخرى. وإيجاد هذه العلاقات يقوم مقام التداعي الحر في تأويل الأحلام الفردية. فبالتداعي الحر يمدنا صاحب الحلم بأفكار وخواطر من خبراته الخاصة، تستدعيها إلى ذهنه فقرات الحلم وصوره. أما في التحليل الوظيفي للحلم النموذجي. فنستمد من المعتقدات السائدة في المجتمع ومن خبرات الجنس والتراث الثقافي والميثولوجي ما يقوم مقام التداعي الحر، وما يلقي لنا ضوءاً على الحتمية في اختيار دلالة الرمز في التأويل القديم للحلم النموذجي.

فمن أمثلة العلاقة بين الحلم النموذجي والدين: العلاقة بين الحفاء في الحلم و(أقدام التمثال من طين) الواردة في التوراة في سفر دانيال. والعلاقة بين التين باعتباره رمزاً لمعصية آدم، وتأويل العامة لأكل التين في الحلم بأنه ندامة. والعلاقة بين نار جهنم وعذاب الآخرة، والحلم

بالنار الموقدة واعتقاد العامة أنه ينذر بمصيبة. والعلاقة بين قص الشعر في الحلم والاعتقاد بأنه ينذر بفقدان القوة، وقصة شمشون ودليلة.

وبين أمثلة العلاقة بين الحلم النموذجي والأسطورة: العلاقة بين البكاء في الحلم واعتباره بشيراً بالفرج، والأسطورة المصرية القديمة التي تنسب فيضان النيل للدموع التي تسكبها إيزيس حزناً على زوجها أوزيريس. والعلاقة بين النظر في المرآة في الحلم واعتباره نذيراً بالمرض. وأسطورة نرجس اليونانية. والعلاقة بين الخروج من الماء واعتباره رمزاً للميلاد، والأساطير القديمة التي تروي ميلاد الأبطال. وهذه الموازنة بين الأحلام والأساطير مسموح بها من الناحية المنهجية. وأخذ بها فرويد ويونج وشتيكل. فاستخدمها فرويد وأطلق عليها الأسطورة "حلم الشعب". وأكمل شتيكل هذه العلاقة بقوله إن الحلم كذلك هو "أسطورة الفرد". كما أن المقارنة بين الأحلام والأساطير دعامة هامة من الدعائم التي تقوم عليها طريقة يونج.

ومن أمثلة العلاقة بين الحلم النموذجي، وطقوس البدائيين، وتفكير العصابيين: العلاقة بين فقدان الأسنان في الأحلام، وتحطيم السن في طقوس تنصيب المراهقين، ووظيفة هذه العادة عند البدائيين. والعلاقة بين حلق الرأس في الحلم، والاعتقاد بأنه ينذر بفقدان القوة، وتطير البدائيين من قص الشعر، واعتقادهم من قيمته السحرية "للربط" أو إحداث العنه، وهو تفكير يشبه تفكير العصابيين الذين يعانون من عقدة الإخصاء. وإذا كانت الظواهر الأنثروبولوجية تفسر في ضوء التحليل

النفسي، فيجوز من الناحية المنهجية، أن تفسير الظواهر النفسية كالأحلام على ضوء الأنثروبولوجيا. وقد أسهمنا بتفسير جديد لحلم فقدان الأسنان، ودلالته التنبؤية بأنها وفاة قريب؛ وللحلم بقص الشعر ودلالته فقدان القوة على أساس الربط بين تفكير اللاشعور وطرائق تفكير البدائيين والعصابيين.

ومن أمثلة العلاقة بين الحلم النموذجي، والعادات والمعتقدات الشعبية: اعتبار الكعك في الحلم رمزاً للضيق، والضيق الذي تعانيه الطبقة الكادحة فعلاً من جراء عمل كعك العيد. والعلاقة بين الأمثلة العامية التي تقال في الضيف، والحلم بـ (الحرامي) الذي يعتقد العامة أنه يعلن عن حضور ضيف.

ومن أمثلة العلاقة بين الحلم النموذجي والتطير من الأفعال العرضية: العلاقة بين الحلم بكسر الخاتم، وفقدان الخاتم؛ ودلالتهما توقع الطلاق. والعلاقة بين الحلم بكسر الرجل، والعثرة العارضة التي تبعث على التطير؛ ودلالتهما التردد والإحجام والشك.

وقد يحتاج تحليل الحلم التنبؤي الواحد تحليلاً وظيفياً إلى البحث عن العلاقات في أكثر من مجال واحد من المجالات السالفة الذكر– كما فعلنا في تحليل أحلام الميلاد والموت والارتحال والسفر. وفي جميع هذه العلاقات الوظيفية كانت الدلالة الشعبية القديمة هي قطب الرحى وحلقة الاتصال. ومعنى ذلك أن من التأويلات القديمة ما لا يمكن استبعادها، إذا كانت لها وظيفة، وتمثل جزءاً لا غنى عنه في نظام من العلاقات.

ولا تصلح كل التأويلات القديمة لإخضاعها لطريقة التحليل الوظيفي. فكثير منها يشتمل على متناقضات. وقد يرد للرمز الواحد في الكتب القديمة لتفسير الأحلام، تفسيرات متعددة المعاني، وليست من الفراسة في شيء؛ ومن ثم يتعذر أن نتبين لها وظيفة. غير أن بعض التفسيرات تستوقف النظر وتستأهل العناية. فبعض النظر عن القيمة التنبؤية، كثيراً ما تبهرنا الفراسة في اختيار مدلول الرمز في بعض هذه التفسيرات؛ وبصفة خاصة تلك التفسيرات التي استرشدت بمدلولات الرموز في المجالات السالفة الذكر. وقد كان ابن سيرين يسترشد في تأويل رموز الأحلام، بمدلولات نظائر هذه الرموز في العقائد والعادات، والحكم والأمثال، والشعر والمعاني واشتقاق الأسماء... وبعض هذه المجالات أسهم التحليل النفسي فيها أو في نظائر لها بنصيب. وعلى ذلك يمكن القول بأن تكرار الرمز في مجالين مختلفين أو أكثر، الحلم أحدهما، هو الذي يستوقف نظرنا في هذا الحلم، ويحدد صلاحيته للتحليل تحليلاً وظيفياً. وهذا هو أساس الاختيار من بين التفسيرات القديمة.

الدلالة والقيمة

وعندما نسترشد في طريقة التحليل الوظيفي بالدلالة التنبؤية القديمة للأحلام، ونتخذ منها نقطة البدء؛ فإننا نفرق بين الدلالة التي تنسب للرمز، والقيمة التنبئية له. ونقصد بدلالة الرمز ماهيتها، وإلى أي شيء يشير الرمز في التأويل القديم. أما القيمة التنبؤية، فهي أن يتحقق المتوقع من دلالة الرمز في المستقبل أو لا يتحقق، أن يكون أو ألا يكون.

والقيمة التنبئية لرموز هذه الأحلام لا تعنينا، بقدر ما تعنينا دلالاتها. وإذا كنا لا نعول على القيمة التنبئية لهذه الأحلام، فإننا لا نستطيع إغفال دلالات رموزها. وذلك لأن التوزيع الجغرافي لمدى انتشار هذه الدلالات. والتتبع التاريخي لمدى قدمها، والعلاقات الوظيفية بين رموزها ودلالاتها معاً من ناحية ودلالات نظائر هذه الرموز في العقائد والأساطير والطقوس والعادات البدائية والأمثال العامية، والتطيرات والأفعال العرضية... من ناحية أخرى؛ كل ذلك يحول بيننا وبين استبعادها بدعوى أنها خرافات. ولذلك فإن التفرقة بين الدلالة الشعبية القديمة للحلم، والقيمة التنبئية له من الأهمية بمكان.

الدلالة التنبئية هي ذاتها الدلالة اللاشعورية

وإذا ما وضعنا النتائج التي استخلصناها من تحليل الأحلام التنبئية السالفة الذكر جنباً إلى جنب، بدت كلها في صيغة واحدة على النحو الآتي:

١- الحفاء في الحلم... عوز وفاقة.

لا يحدث العوز والفاقة لمن حفى في الحلم،

وإنما حفى في الحلم لشعوره بالنقص أو لخوفه من العوز والفاقة.

٢- النظر في المرآة... مرض.

لا يمرض من نظر في المرآة في الحلم،

وإنما نظر في المرآة في الحلم لأنه مريض.

٣- إذا حلمت بـ (حرامي)... فسيحضر لك ضيف.

لا يحضر الضيف لأنك حلمت باللص،

وإنما حلمت باللص لأنه حضر لك ضيف.

٤- الحلم بالكعك... ضيق.

لا يحدث الضيق لأنك حلمت بالكعك،

وإنما حلمت بالكعك لأنك في ضيق.

٥- أكل التين في الحلم... ندامة وهم وغم.

لا تأتي الندامة لأنك أكلت التين في الحلم،

وإنما أكلت التين في الحلم من وطأة الندم.

٦- الحلم بالنار الموقدة... مصيبة.

لا تحدث مصيبة لم يحلم بنار موقدة،

وإنما يحلم بنار موقدة من توجس من الشر أو خاف من العقاب على إثم أو ذنب.

٧- فقدان السن في الحلم... وفاة قريب

لا يموت قريب لأنك حلمت بسقوط السن،

وإنما حلمت بسقوط السن لتمنياتك اللاشعورية لقريب بالموت.

٨- حلق الرأس في الحلم... فقدان القوة

لن تفقد قوتك لأنك حلقت رأسك في الحلم،

وإنما حلقت رأسك في الحلم لأنك وهنت.

٩- "العثرة" أو كسر الرجل في الحلم... نذير سوء.

لن يصيبك في سفرك سوء لأنك تعثرت أو انكسرت رجلك في الحلم.

وإنما تعثرت أو انكسرت رجلك في الحلم لتوجسك الشر من السفر.

١٠- ضياع الخاتم أو انكساره في الحلم... الطلاق

لن تطلق زوجتك لأن خاتمك ضاع أو انكسر في الحلم،

وإنما ضاع خاتمك أو انكسر في الحلم لرغبتك في الطلاق.

١١- الضحك في الحلم... بكاء وحزن

لن تبكي أو تحزن لأنك ضحكت في الحلم،

وإنما ضحكت في الحلم من شر ما أنت فيه من بلاء.

١٢- البكاء في الحلم... فرج

لن يأتي الفرج لأنك بكيت في الحلم،

وإنما بكيت في الحلم لتطلعك إلى الفرج.

١٣- الصعود في الحلم... ارتقاء ورفعة

لن ترتقي أو ترتفع لأنك صعدت في الحلم،

وإنما صعدت في الحلم لتطلعك إلى العلا والرفعة.

١٤- السقوط في الحلم... تغير الحال وتعذر المراد

لا يتغير الحال ويتعذر المراد لمن سقط في الحلم،

وإنما سقط في الحلم لخوفه من الفشل في الحياة.

١٥- من يرى أنه مات في الحلم... عمره يطول

لا يكتب لمن مات في الحلم عمراً جديداً،

وإنما موته في الحلم تعبير عن الميلاد.

لم تأت هذه التفسيرات وفقاً لفكرة سابقة. ولم تصب في قالب صيغ لها مقدماً كالقالب الذي صيغت فيه نظرية جيمس- لانج المعروفة! وإنما هي وليدة التحليل، تحليل كل مثال على حدة، في وقته.

واتفاق نتائج تحليل هذه الأمثلة في صيغة واحدة، يستخلص منه قاعدة عامة من حيث الطريقة هي: إن الدلالة التنبؤية -في بعض التفسيرات الشعبية القديمة للأحلام- هي ذاتها الدلالة اللاشعورية. فالمخبأ في الغيب في الخارج لا يهبط على النفس في الحلم من الخارج، وإنما دوافع الحلم اللاشعور في الداخل. وهذه الدوافع اللاشعورية معظمها إما رغبات أو مخاوف. فدوافع الأحلام التي تبعث على الضيق، وتؤول بدلالة رديئة في الخارج- دوافعها المخاوف. ودوافع أحلام الفرج هي الرغبات. أما ما يبدو من تحقق التوقعات في الخارج، فغالباً ما يرجع للمصادفة. وأما بقاء التأويل الشعبي، قدمه وتأصله في التاريخ، وذيوعه وانتشاره؛ فيرجع للارتباط الشرطي بين رموز هذه الأحلام ودلالاتها، وحوادث المصادفة الخارجية.

وتحليل هذه الأحلام ذات الرموز الأسطورية، واستخلاص القاعدة السالفة الذكر، يكفل الاستقرار لمشكلة هامة تتعلق بحيرة الرمز في الحلقة المفرغة بين النظرة الغيبية والنظرة السيكو تحليلية، حيرة الرمز بين الشرطية والدوافع اللاشعورية، حيرة الرمز بين المصادفة والحتمية، حيرته بين الخارج والداخل بين المستقبل والماضي. النظرة الغيبية في التأويلات الشعبية، تضفي على الرمز دلالة تنبؤ بالمستقبل. والنظرة السيكو تحليلية تقضي بأن الحتمية في الدوافع اللاشعورية الداخلية، وهذه جذورها في الماضي.

القيمة التنبئية للأحلام

والنظرة الغيبية القائلة بأن للأحلام قيمة تنبئية تستند إلى أساس في التفكير الصوفي الذي يرى إمكان وقوع العلم بالغيب في الحلم. وتوضح الفقرات المقتبسة التالية هذا الاتجاه الصوفي في تصور الرؤيا وتعليلها. وهي منقولة من كتاب الدكتور توفيق الطويل: "التنبؤ بالغيب عند مفكري الإسلام".

"يذهب ابن سينا إلى القول بأن الأحداث منقوشة في لوح محفوظ في العالم العلوي، وفي وسع بعض الناس الاتصال به عن طريق مخيلتهم القوية، فيقع لهم هذا أثناء نومهم". ص ٧٧ "... واللوح المحفوظ مرآة نقشت عليها المقادير بغير حروف، ولو ظهرت تجاهها مرآة أخرى، لانكشفت فيها صور الأولى، إلا إذا قام بينهما حجاب، وليست المرآة الثانية إلا القلب، والحجاب هو الشهوات والحواس، ويتجلى هذا في اليقظة، أما النوم ففيه يرتفع الحجاب ويزول، وبذلك تظهر في مرآة

القلب صور اللوح المحفوظ، وتتكشف للنفس آفاق العالم المجهول، فإذا سلمنا بأن النفس تكون عند النوم في أعظم حالاتها، زال العجب من وقوع العلم بالغيب إبانه" ص ٧٣.

وهذا التصور الصوفي لكيفية وقوع العلم بالغيب في الحلم، على عكس طبوغرافية فرويد وعلى عكس نظرية التحليل النفسي عن الأحلام التي ترى أن الأحلام لا تهبط من عل، وإنما دوافعها لاشعورية؛ لا تسقط على النفس من الخارج، وإنما تنبعث من الداخل؛ لا تشير إلى المستقبل، وإنما جذورها في الماضي. وقد كان لهذا التفكير الصوفي القديم صداه في التأويلات الشعبية للأحلام، تأويلات تجعل الحتمية في القيمة التنبئية في الخارج، وتجهل الدوافع الداخلية. أما التحليل النفسي والتأويل العلمي فيظهرنا على أن الحتمية سيكولوجية، هي في الدوافع اللاشعورية الداخلية، وجذورها في الماضي. أما المصادفة الحقيقية فتبدو في الخارج وفيما عساه يحدث أو لا يحدث في المستقبل.

ولعل أغرب النتائج التي أسفر عنها هذا البحث هو أن هناك أحلاماً تنبئية يمكن أن تكون لها دلالة على المستقبل. ومن هذه الأحلام: الحلم بالنظر في المرآة، والحلم بحلق الرأس، والحلم بكسر الرجل، والحلم بضياع الدبلة أو خاتم الزواج. ومن هذه الأحلام ما له قيمة تشخيصية. فدلالة الحلم بالنظر في المرآة. المرض بوجه عام، والنرجسية بصفة خاصة. ودلالة حلق الرأس في الحلم، الوهن أو فقدان القوة بوجه عام، والخوف الكامن من الإخصاء بصفة خاصة. ومن هذه الأحلام ما يدعو

إلى التطير، ويصح اعتباره تحذيراً ونذيراً. فدلالة الحلم بكسر الرجل، التردد وتوجس الشر من السفر. ويحسن الحالم بمثل هذا الحلم صنعاً، إذا هو امتنع عن السفر، خوفاً من أن يسهم بنفسه في جلب النتيجة المتوقعة في حادث يقول الناس عنه إنه قضاء وقدر، مع أنه محتم أو مقدر لا شعورياً. ودلالة ضياع خاتم الزواج من أحد الزوجين في الحلم – أو في الواقع كذلك– هو الرغبة في الانفصال. أما حدوث الطلاق فعلاً فيتوقف على عوامل كثيرة.. قد تحول دون تحقيقه ولكن الحلم –في حد ذاته– يدل على أن الرغبة في الطلاق متوفرة.

هذه الأحلام يمكن أن تكون تنبئية لأن دلالاتها ذاتية تنم عن دوافع لا شعورية تخص صاحب الحلم وحده. وقد يؤدي استمرار وجود الدافع –كما عبر عن نفسه الحلم– إلى أن يسهم الحالم بنفسه لا شعورياً في جلب النتيجة المتوقعة من حلمه. ولا يعني هذا بحال أنه لا بد للنتيجة المتوقعة من أن تحدث. فيجوز ألا تحدث. ولكنها إذا حدثت حق لنا أن نوجد علاقة بين ما أنبأ به الحلم وما حدث، باعتبارهما مظهرين لدافع لا شعوري ذاتي يخص صاحب الحلم وحده.

أما الأحلام التي تكون دلالتها غيرية خارجية، فلا يمكن أن تنبئ عن شيء سيحدث في العالم الخارجي في المستقبل. وإذا تحققت فيرجع أمر تحقيقها للمصادفة. فلا يصح القول بأن سقوط السن في الحلم ينبئ بوفاة قريب، لأن وفاة الأقارب أمر خارجي، لا يخضع لقوانين الحياة النفسية للحالم، ولا دخل لرغباته أو لمخاوفه فيه، فلا يمكن

التنبؤ بحدوثه. كذلك لا يجوز توقع حضور ضيف بعد الحلم بـ (الحرامي)، فحضور ضيف حادث خارجي لا يمكن التحكم فيه ولا التنبؤ به. وكذلك لا يجوز توقع الافتضاح بعد الحلم بالعري، ولا العوز والفاقة بعد حلم الحفاء، ولا الضيق بعد أكل الكعك أو الفطير في الحلم، ولا الندامة بعد أكل التين في الحلم... فهذه الأحلام دوافعها داخلية لا شعورية، وجذورها في الماضي. ولا تدل على معاني خارجية غيبية مخبأة في المستقبل.

وغالباً ما يرجع صدق المتوقع من الحلم وتحقيقه للمصادفة. فظروف الموقف لا تحتمل إلا واحداً من اثنين: أن يتحقق المتوقع من الحلم أو لا يتحقق، أن يكون أو ألا يكون. فنسبة المصادفة ٥٠%.

ومما قد يضفي على الحلم قيمة تنبئية الارتباط الشرطي بين رمز الحلم ودلالته، وحوادث المصادفة الخارجية. وكلما تكرر اتفاق المصادفة، وتحقق المتوقع من دلالة الحلم، أضيفت بواعث إيجابية هي بمثابة الجزاء، تؤدي إلى تثبيت الاستجابة المكتسبة الشرطية.

التفسيرات الشعبية القديمة للأحلام

إن إيجاد العلاقات بين رموز الأحلام النموذجية، ودلالات الرموز في العقائد والأساطير والطقوس... وغيرها من المجالات الأنثروبولوجية والميثولوجية طريقة معروفة أخذ بها المشتغلون بالتحليل النفسي. لذلك يبدو لنا أن نتساءل كيف فات رجال التحليل النفسي مراجعة التفسيرات الشعبية القديمة للأحلام؟ وإذا كانت مبادئ التحليل النفسي قد طبقت

على الأساطير والعقائد والطقوس فألقت عليها فيضامن الضوء أزال ما أحاط بها من الغموض؛ فلم لم تعالج التأويلات الأسطورية القديمة للأحلام بالمثل، وتطبق عليها مبادئ التحليل النفسي وطرقه؟

من المرجح أن هذه التأويلات الشعبية تراث شرقي قديم، وليس له في الغرب نظير. ونعتقد أن هذه التأويلات القديمة لم تكن معروفة لدى كتاب العرب، لأن كتاب ابن سيرين الذي أخذنا عنه أغلب التفسيرات لم يترجم -فيما نعلم- إلى لغة أجنبية. هذا بالإضافة إلى أن التفسيرات التي اخترناها من هذا الكتاب، وقع اختيارنا عليها على أساس أنها تنطوي على فراسة. ومعنى الفراسة أن لها وظيفة. ومعنى الوظيفة أن لها علاقات في المجال الاجتماعي بالأديان أو الأساطير أو الطقوس أو العادات والمعتقدات أو التطيرات.. الخ فلا تصلح كل التأويلات الشعبية للمعالجة بطريقة التحليل الوظيفي. ومن المرجح أن استبعاد القيمة التنبؤية في التأويلات القديمة باعتبارها خرافة، أدى إلى إغفال دلالات الرموز كذلك. ونحن نفرق في طريقتنا بين الدلالة التي تنسب للرمز، والقيمة التنبؤية له. والذي يعنينا في طريقة التحليل الوظيفي هو دلالة الرمز فحسب. ويلوح أن العقبة الأخيرة التي حالت دون فحص التفسيرات الشعبية القديمة للأحلام، هي عدم إدراك اثر الشرطية في القيمة التنبؤية لهذه الأحلام. ومجمل القول أغفلت التفسيرات الشعبية القديمة للأحلام إما للجهل بها، أو لاستبعادها لأنها تشير إلى المستقبل أو بدعوى خرافات.

الرموز المادية والرموز الوظيفية

تناولنا فيما سبق تحليله من الأحلام النموذجية أمثلة كثيرة للرموز المادية والرموز الوظيفية. والرموز المادية هي الرموز الجنسية التي عنى بها فرويد وتلاميذه من أنصار مدرسة التحليل النفسي. أما الرموز الوظيفية فمعانيها بريئة لا تخدش الحياء. وأغلب تفسيرات ابن سيرين التي استرشدنا بها تفسير الأحلام النموذجية تنتمي للنوع الأخير. ومن أمثلة هذين النوعين: الدلالة المادية لصعود السلالم في الحلم هي أنه يرمز للعملية الجنسية. أما الدلالة الوظيفية صعود السلالم فهي أنه يرمز للطموح. الدلالة المادية للثعبان هي أنه رمز لعضو التركيز. أما الدلالة الوظيفية للثعبان فهي أنه قد يرمز للمعرفة أو للشفاء أو للعدو. الدلالة المادية للديك أنه رمز جنسي مذكر. أما دلالته الوظيفية فهي أنه يرمز للخيانة. الدلالة المادية لرقم ٥ في الحلم هي أنه يرمز لليد التي تمارس العادة السرية. أما الدلالة الوظيفية لهذا الرقم فهي أنه يرمز للحسد، الدلالة مأخوذة من "خمسة وخميسة".

ويختلف استخدامنا للدلالة الوظيفية للرمز في الحلم، عن استخدام شتيكل لهذه الدلالة. فهو يقصد بالدلالة الوظيفية للرمز علاقة رمز الحلم بالعصاب. ويجد لكل مرض نفسي أحلاماً ذات طابع خاص تنم عليه. أما نحن فنقصد بالدلالة الوظيفية للرمز علاقته بالتأويلات الشعبية، والموازنة بين دلالته في الحلم، ودلالته في المجالات الثقافية والميثولوجية القديمة. "الوظيفة" عند شتيكل هي العلاقة بالعصاب أما "الوظيفة" عندنا فهي العلاقة بالتراث الميثولوجي.

ومن أحسن الدراسات لمشكلة الرموز المادية والرموز الوظيفية مقال إرنست جونز بعنوان "نظرية الرمزية"[٤١] ويقول فيه إن الدلالة الوظيفية للرمز من طبقة ما قبل الشعور، وإنها عبارة عن تعبير مجازي. أما الدلالة المادية –في نظره– فهي أبعد غوراً وأصدق دلالة لأنها تعبر عن مادة لا شعورية. فالرمز الحقيقي هو الرمز المادي الذي يعبر عن فكرة كامنة تكون محرجة أو مخجلة ولذلك تكبت في اللاشعور، ويشار إليها برمز حقيقي تعبيره مادي. وقد لاحظ إرنست جونز في مقالة المشار إليه أن العصابي يرحب عادة بالتأويل الوظيفي "البريء" لأحلامه، ويعتبر ذلك التفضيل منه نوعاً من المقاومة، لتفادي الحرج الذي يؤدي إليه التعرف على المغزى المادي.

وينبغي أن نشير إلى أننا وجدنا ما يؤيد صدق هذه الملاحظة في كثير من الأحلام النموذجية مثل حلم الطيران، وحلم العري، وحلم الحفاء، وحلم السفر، والحلم بقص الشعر، والأحلام بوفاة الأهل. فالدلالات الوظيفية لهذه الأحلام من طبقة ما قبل الشعور، بدليل إدراك الحالم لحاله أثناء الحلم سواء أكان طائراً أم عارياً أم حافياً أم راحلاً...، أو إدراكه أثناء الحلم أنه يحلم، أو إدراكه دلالة الحلم أثناء الحلم. ولأن هذه الأحلام، لا ترد على الذهن أثناء النوم العميق، بل تحدث قبيل الاستغراق في النوم أو قبيل الاستيقاظ ولذلك تكون واضحة ويسهل تذكرها. والتفسير المادي لقص الشعر في الحلم هو أنه يرمز للإخصاء

---

(٤١) **Ernest Jones: Papers on Psycho- Analysis, ١٩٥٠, Gh. III.**

أما التفسير الوظيفي له فهو أنه يرمز لفقدان القوة. والتفسير المادي يصل إلى أعماق اللاشعور. أما التفسير الوظيفي فمن طبقة ما قبل الشعور. والتفسير المادي لوفاة الأهل في الأحلام يصل إلى العقد المكبوتة وإلى الرغبات اللاشعورية الشريرة في وفاة الأهل. أما التفسير الوظيفي لهذا النوع من الأحلام فيرى أنها تعبر عن الطمع في المغنم الثانوي الذي يعود على الحالم من وفاة قريبه. وهذا التفسير يصل إلى طبقة ما قبل الشعور.

العلاقة بين رموز الأحلام ودلالاتها القديمة

حاولنا أن نحدد في الأمثلة التي قمنا بتحليلها– نوع العلاقة بين رموز هذه الأحلام ودلالاتها الشعبية القديمة، فأمكننا أن نتعرف على ثلاثة أنواع من العلاقات هي: التشابه، والاقتران، والتضاد.

١– فمن أمثلة علاقة التشابه بين رمز الحلم ودلالته: العري في الحلم، ودلالته الافتضاح. والحفاء في الحلم، ودلالته العوز والفاقة. والحلم بالنار الموقدة، واعتقاد العامة أنه ينذر بمصيبة. والصعود في الحلم، وتعبيره العلو والرفعة. والسقوط في الحلم، ودلالته تغير الحال وتعذر المراد.

٢– ومن أمثلة علاقة الاقتران بين رمز الحلم ودلالته: الحلم بأكل الكعك، ودلالته الضيق. والحلم بأكل التين، ودلالته الندامة. والحلم بسقوط السن، ودلالته وفاة قريب. والحلم بقص الشعر، ودلالته فقدان القوة والحلم بكسر الخاتم أو بضياعه، ودلالته توقع الطلاق.

٣- ومن أمثلة علاقة التضاد بين رمز الحلم ودلالته: الضحك في الحلم، وتأويله بالضد بكاء وحزن. والبكاء في الحلم، واعتباره بشيراً بالفرج. والموت في الحلم، ودلالته الميلاد أو البعث أو العمر الطويل.

الحيل اللاشعورية

من المعروف أن عمل الحلم (Dream- Work) هو أن يحول الأفكار الكامنة إلى المضمون الصريح للحلم بواسطة حيل لا شعورية تعرف بالميكانيزمات مثل الإبدال والإسقاط والتمثيل المسرحي، والقلب... الخ. وهذه الميكانيزمات أدوات أساسية لا غنى عنها في فهم كثير من الظواهر اللاشعورية سواء أكانت أحلاماً، أو أعراضاً عصابية أو أمراضاً نفسية أو غير ذلك. وهي من الأمور الثابتة في التحليل النفسي، حتى إن علماء النفس الذين لا ينتمون إلى مدارس التحليل النفسي، يعترفون بها ويستخدمونها في كتاباتهم. وقد استخدمنا في تحليل الأحلام التنبئية كثيراً من هذه الميكانيزمات مما ذكرناه وشرحناه في حينه. وقد كانت هذه الميكانيزمات أكبر عون لنا، إذ أنها دلتنا على أننا نسير في التأويل في الاتجاه الصحيح، ولا سيما أننا تعرفنا على هذه الميكانيزمات، مع اتخاذ الدلالة القديمة نقطة البدء. غير أننا لا نعتبر هذه الميكانيزمات أبسط الوقائع من نوعها بل إنها تنطوي على عناصر أدق وأبسط منها هي: التشابه والاقتران والتضاد.

والرمز في الحلم ، في كلا المجالين الاجتماعي واللاشعوري هو الجزء من الموقف الذي يرمز للموقف كله؛ أو هو الجزء الذي يقترن

بدلالة أعم وأشمل منه. والرمز في المجال الاجتماعي سابق على الدلالة؛ أما في المجال اللاشعوري فالدلالة سابقة على الرمز. دلالة الرمز في الخارج تعتبر ضرباً من الاستجابة والامتثال له. أما في المجال اللاشعوري فإذا ما توفرت هذه الدلالة نفسها كمضمون كامن برز منها جزء كرمز.

وبذلك يمكن القول بأن رمز الحلم التنبؤي يقترن في كلا المجالين الاجتماعي واللاشعوري بدلالة واحدة. وأن هناك تطابقاً بين القالب الخارجي الذي يتضمن الرمز ودلالته في المجال الاجتماعي، والقالب السيكولوجي الذي يتضمن الرمز ودلالته في المجال اللاشعوري. ولذلك فإننا نستطيع أن نتعرف على الدلالة اللاشعورية للرمز من دلالته التنبئية الخارجية في المجال الاجتماعي.

والتحليل الوظيفي مكمل للتحليل النفسي للاعتبارات التالية:

أولاً : لأن الدلالة التنبؤية التي يعني بها التحليل الوظيفي، هي ذاتها الدلالة اللاشعورية التي يعني بها التحليل النفسي.

ثانياً : لأن التحليل الوظيفي يعني بالمضمون الصريح للحلم، في مقابل اهتمام التحليل النفسي بالمضمون الكامن له.

ثالثاً : لأن التفسير الوظيفي يصل إلى الدلالة الواقعة فيما قبل الشعور، أما التفسير المادي فيصل إلى الدلالة اللاشعورية.

رابعاً: : لأن الرمز في المجال الاجتماعي يقترن بدلالة معينة، فإذا

ما توفرت هذه الدلالة في المجال للاشعوري أو في مجال ما قبل الشعور، ظهر الرمز في المضمون الصريح للحلم.

خامساً : لمطابقة القالب الخارجي الذي يتضمن الرمز ودلالته في المجال الاجتماعي- الذي يعني به التحليل الوظيفي، للقالب السيكولوجي الذي يتضمن الرمز ودلالته في المجال اللاشعوري الذي يعني به التحليل النفسي.

سادساً : لإمكان "الاستدعاء المتبادل" للرموز ودلالاتها بين المجالين الاجتماعي واللاشعوري فيما يشبه الحلقة المفرغة (شكل ٤) عن طريق التشابه والاقتران والتضاد- كما اتضح من التحليل الوظيفي- أي عن طريق العناصر الأولية الجوهرية التي تنطوي عليها الميكانيزمات أو الحيل اللاشعورية التي يعني بها التحليل النفسي.

سابعاً : لإمكان "تكثيف" الدلالتين المادية والوظيفية.

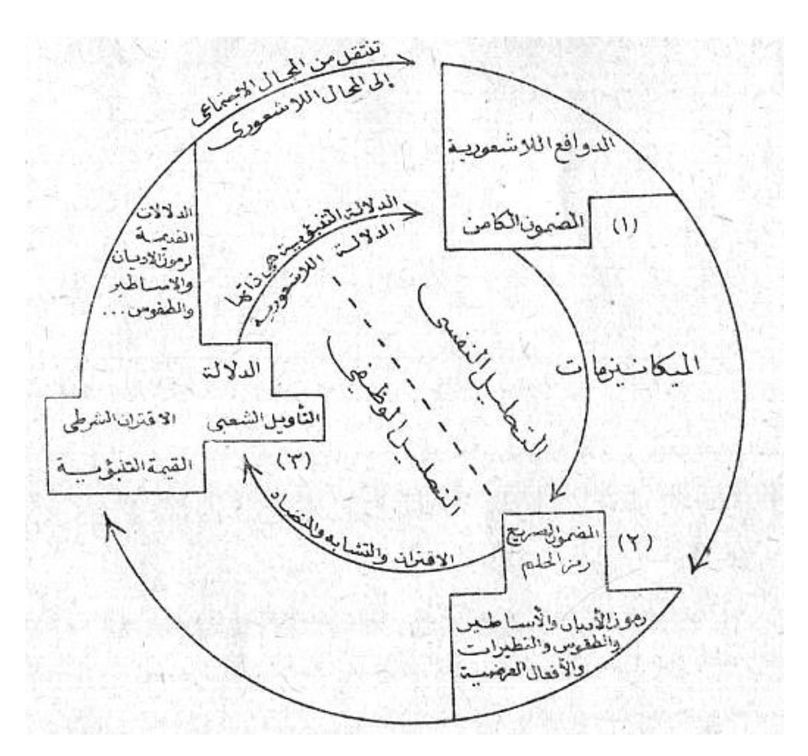
الاستدعاء المتبادل

وقد يساعد الرسم التالي القارئ على تتبع العلاقات السالفة الذكر. والرسم (شكل ٤) شطرين يفصلهما الخط المنقوط، شطر للتحليل النفسي الذي يعني بالمجال اللاشعوري، وشطر للتحليل الوظيفي الذي يعني بالمجال الاجتماعي، والحلقة الداخلية تتناول الحلم في مراحله الثلاث: في المضمون الكامن، وفي المضمون الصريح، وفي التأويل

الشعبي. أما الحلقة الخارجية فتتناول علاقات الحلم في هذه المراحل الثلاث بالمجالات الأخرى في التراث الثقافي والميثولوجي الذي توجد فيه نظائر لرموز الأحلام. ودلالات معينة لها. ولكي نفهم العلاقات الديناميكية في داخل هذه الحلقة المفرغة يحسن أن نتتبع الأرقام:

١- الدافع اللاشعوري الواحد يفصح عن نفسه برمز واحد في مجالين أو أكثر، الحلم أحدهما. ومن المجالات الأخرى التي تظهر فيها نظائر لرموز الأحلام التنبئية الأديان والأساطير والطقوس والتطيرات والأفعال العرضية...

٢- تعني طريقة التحليل الوظيفي بالمضمون الصريح للحلم- في مقابل اهتمام التحليل النفسي بالمضمون الكامن له. وتتحول الأفكار الكامنة إلى رموز وصور في المضمون الصريح بواسطة الميكانيزمات. ويلاحظ التحليل



(شكل ٤) التحليل النفسي والتحليل الوظيفي للأحلام النموذجية

الوظيفي أن العلاقة بين المضمون الصريح للأحلام التنبئية وتأويلاتها الشعبية لا تنطوي إلا على التشابه والاقتران والتضاد.

٣- تعني طريقة التحليل الوظيفي بالتأويل الشعبي القديم للحلم. وتفرق بين الدلالة التي تنسب للرمز، والقيمة التنبئية له. وقد وجدنا في أكثر من عشرين مثالاً أن الدلالة التنبئية هي ذاتها الدلالة اللاشعورية، أما القيمة التنبؤية فغالباً ما ترجع للارتباط الشرطي بين الرمز ودلالته من ناحية، وحوادث المصادفة الخارجية من ناحية أخرى.

ويمكن أن نفترض أن هذه الارتباطات الشرطية تكتسب قيمة، وتصبح

جزءاً من التراث الثقافي والميثولوجي. ويمكن أن تنتقل من المجال الاجتماعي الخارجي إلى المجال اللاشعوري الداخلي بطرق كثيرة: (أ) فقد تتضمنها أو تمتصها "الذات العليا" ويكون مثلها في ذلك كمثل النواحي والمحرمات والقيم التي نستودعها الذات العليا، وتكون قابلة لأن تغرس وتنتقل من جيل إلى جيل، إما بالإيحاء (وبالمحاكاة) عن الوالدين وعن البيئة بوجه عام، أو عن طريق تقمص الذات العليا للطفل لخصائص الذات العليا للوالدين. (ب) وقد تنتقل مباشرة من المجال الاجتماعي إلى المجال اللاشعوري عن طريق الإسقاط الداخلي. (ج) وقد تتوفر دلالة معينة – وبصفة خاصة الدلالة الوظيفية– في طبقة ما قبل الشعور، فيبرز رمز مؤات لها ومتفق معها في المضمون الصريح للحلم. فإذا كان الحالم يدرك أن دلالة السمك في الحلم رزق، وإن دلالة التين هي الندم، ودلالة النار هي جهنم وعذاب الآخرة... فإن أية دلالة من هذه الدلالات إذا ما توفرت في مجال ما قبل الشعور برز من هذا المجال رمز مؤات لهذه الدلالة في المضمون الصريح للحلم. وهذه وسيلة أخرى لانتقال الرموز ودلالاتها من المجال الاجتماعي إلى مجال ما قبل الشعور. وقد تعرفت التأويلات الشعبية القديمة على هذه الدلالات التي تنتمي إلى طبقة ما قبل الشعور، فكانت عاملاً من عوامل ثبوت هذه الرموز ودلالاتها من ناحية، واستمرارها وخلودها من ناحية أخرى.

والدلالات الاسطورية القديمة للرموز سواء في التفسيرات الشعبية للأحلام، أو في التراث الثقافي والميثولوجي، لم تبق خالدة على وجه الزمان

وتناقلتها الأجيال إلا لأن لها حتمية ودوافع لا شعورية. ويؤدي ثبوت هذه الدلالات من ناحية، ووجود دوافع لا شعورية لها من ناحية أخرى إلى إمكان حدوث ما نسميه "بالاستدعاء المتبادل" للرموز ودلالاتها بين المجالين الاجتماعي واللاشعوري بما يشبه الحلقة المفرغة. ووسيلة هذا "الاستدعاء المتبادل" هي التشابه والاقتران والتضاد. سواء في الانتقال من المجال الاجتماعي إلى المجال اللاشعوري، أو في الانتقال من المجال اللاشعوري إلى المجال الاجتماعي. ومن المعروف أن الانتقال من المجال اللاشعوري إلى المجال الاجتماعي يكون عن طريق الميكانيزمات أو الحيل اللاشعورية. ولكننا أثبتنا بطريقة لا تقبل الشك أن الميكانيزمات التي تدخل في تكوين رموز الأحلام النموذجية ليست أبسط الوقائع من نوعها، بل تشتمل على عناصر أدق وأبسط منها هي التشابه والاقتران والتضاد وهي عناصر جوهرية وأكثر أولية من هذه الميكانيزمات.

والمجال الرئيسي لهذه العلاقات الثلاث –وهي التشابه والاقتران والتضاد– هو طبقة ما قبل الشعور. وهي تدخل في تكوين رموز الأحلام وفي تفسيرها. أي أنها تعمل في عقل المفسر كما تعمل في عقل الحالم. فمن هذه العلاقات الثلاث يحال الاستبصار والتأويل الصادق الملهم.

هذه هي أهم النتائج التي أسفر عنها اصطناع طريقة التحليل الوظيفي للأحلام النموذجية ذات الدلالات التنبئية. وأعتقد أن الفضل في الوصول إلى هذه النتائج يرجع أساساً إلى الجمع بين الطريقة المقارنة والطريقة الوظيفية. فقد بينت المقارنة بين التفسيرات القديمة ممثلة في

تفسير ابن سيرين، والتفسيرات الحديثة لرجال التحليل النفسي، أن التفسيرات القائمة على الحدس والبصيرة، لا تقل أصالة وعمقاً عن التفسيرات النائمة على التجربة والملاحظة. كما بينت أن التحليل الوظيفي مكمل للتحليل النفسي.

أصول طريقة التحليل الوظيفي

لطريقة التحليل الوظيفي تاريخ. فقد استخدمها علماء النفس التحليليين من أقطاب "مدرسة زيورخ" وهم سيلبرر ويونج وشتيكل، لبيان أن لرموز الأحلام دلالات وظيفية؛ في مقابل دلالاتها المادية أو الجنسية التي عنى بها فرويد وأصحاب التحليل النفسي من أنصار "مدرسة فيينا".

يعتبر هربرت سيلبرر أول من كشف عن الرموز الوظيفية. أراد أن يلاحظ بطريقة مباشرة عمل الحلم أثناء عمله ليرى كيف يترجم الأفكار المجردة الكامنة إلى صور. فحاول قبيل النوم أن يفرض على نفسه – وهو في شدة الإعياء والنعاس– أن يتدبر مشكلة فلسفية. فكانت الفكرة الأصلية التي اعتزم التأمل فيها تهرب من ذهنه، وتحل محلها صورة تعبر عن حالته الذاتية. مثال ذلك: الفكرة التي أراد أن يتأمل فيها تتناول فقرة من مقال يرغب في تنقيحها. فغابت عن ذهنه هذه الفكرة، وحلت محلها صورته وهو يحاول تشذيب قطعة من الخشب. وبذلك حلت محل الفكرة التي أراد أن يشغل بها ذهنه، صورة رمزية تعبر عن حالته الذاتية. ومثال آخر من تجاربه: أراد قبيل النوم أن يتذكر فكرة قطعت من بين سلسلة أفكاره، وبذل جهداً في استرجاعها دون جدوى. حلت محل

ذلك صورة ورقة مطبوعة، السطور الأخيرة فيها ناقصة. وترمز هذه الصورة إلى حالته الذاتية، لا إلى الموضوع الذي حاول التأمل فيه. ويسمى سيلبرر صورة هذه الحالة الذاتية بالظاهرة الوظيفية.

أخذ يونج فكرة الرموز الوظيفية من سيلبرر ووجد فيها ذريعة للتخلص من فكرة فرويد الخاصة بالرغبات الجنسية المكبوتة. فأخذ يبحث عن "التمثيل الرمزي للاتجاهات العقلية العامة" واعتبر الرموز الوظيفية معبرة عن سمات ثابتة مجردة للنفس: كقوة اللبيدو أو الطاقة النفسية، وقوة الوازع الخلقي، والميل إلى النكوص... وغير ذلك من الآثار و"الصور الأولية" التي ترسبت في نفوسنا وتخلفت عن ماضي البشرية كله، وتوارثناها على مر الأجيال.

أما شتيكل فيرى أن للرموز الوظيفية دلالة على الصراع النفسي. وتظهر هذه الدلالة بشكل واضح في أحلام العصابيين. فلكل مرض نفسي أحلام ذات طابع خاص ينم عليه. كما أن لكل شخص رمزية خاصة به تظهر في أحلامه. وليس للرموز دلالة ثابتة بل تختلف دلالالتها من حالة إلى أخرى، لأن مصدرها في النهاية هو نوع المشكلة النفسية وطبيعة الصراع النفسي.

من ذلك نرى أن الرموز الوظيفية لدى رجال "مدرسة زيورخ" تفصح عن حالات أو عمليات نفسية. وقد تكون هذه الحالات أو العمليات مؤقتة عابرة، كما في تجارب سيلبرر. وقد تعبر عن سمات عامة ثابتة في النفس، كما يرى يونج. وقد تكون فردية خاصة تختلف من عصابي إلى آخر، كما هي لدى شتيكل.

وهؤلاء العلماء اهتموا بالرموز الوظيفية في المجال اللاشعوري. ولم يلتفتوا إلى الدلالة الاجتماعية للرموز. وهنا تظهر أهمية مساهمة مالينوفسكي صاحب المدرسة الوظيفية في الأنثروبولوجيا الاجتماعية الذي يرى أن رموز الأساطير والعقائد والطقوس لا بقاء لها في أي حضارة ما لم تكن لها وظيفة بالنسبة للمجتمع وما لم تكن مرتبطة بمختلف مظاهر الحضارة. وينادي بألا قيمة للرمز إلا في التأثير الذي يحدثه في المجال الاجتماعي. ومثال ذلك النجمة التي على كتف الضابط كرمز، يمتثل لها الجندي بأخذ التعظيم. وكلمة نار (**Fire**) إذ نادى بها الضابط بلهجة الأمر، يستجيب ويمتثل لها الجند بإطلاق النار. فقيمة الرمز كامنة في الاستجابة والامتثال له. غير أنه يذهب في الاهتمام بالمجال الاجتماعي إلى حد القول بأن "مناقشة الرمزية بدون النظر في مجالها الاجتماعي لا طائل تحتها[٤٢]".

وعلى ذلك نرى من ناحية علماء النفس التحليليين وقد اهتموا بدلالات الرموز في مجالها اللاشعوري، وأغفلوا دلالاتها الاجتماعية. ومن ناحية أخرى نرى مالينوفسكي يهتم بدلالات الرموز في المجال الاجتماعي وحده، دون أن يلق بالاً إلى دلالاتها اللاشعورية.

ونحن لا نستخدم التحليل الوظيفي معرضين إعراضاً كلياً عن التحليل النفسي، وإنما نعتبر الأول مكملاً للثاني. أي أننا نعني بدلالة الرموز والصور في كلا المجالين الاجتماعي واللاشعوري. ونحن إذ نتخذ

---

(٤٢) B. Malinowski: A Scientific Theory of Gulture; Chapel Hill, ١٩٤٤.

نقطة البدء المجال الاجتماعي، واقتران الرموز فيه بدلالات معينة، فإنما نستخدم في الواقع التحليل الوظيفي، على طريقة مالينوفسكي، على الرغم من أن الأحلام ميدان لم يطرقه مالينوفسكي ولا أنصار مدرسته الوظيفية ونحن نأخذ بقوله "إن مناقشة الرمزية من غير اعتبار مجالها الاجتماعي لا طائل تحتها" وقد وجدنا أن دلالة الرموز الاجتماعية قد تكون هي ذاتها الدلالة اللاشعورية. كما نوافق على قوله إن الرموز لم تبق في الحضارة التي اشتملت عليها ما لم تكن لها وظيفة. وإن وظيفة الرمز كامنة في الاستجابة والامتثال له. ونعتبر دلالة الرمز في التأويل القديم ضرباً من الاستجابة والامتثال للرمز. وأن بعض الدلالات الشعبية القديمة للأحلام لم تبق خالدة في تراثنا الثقافي والميثولوجي إلا لأن لها وظيفة.

أهم المراجع

١. S. Freud: The Interpretation of Dreams; Allen & Unwin, ١٩٥٠.

٢.S. Freud: Introductory Lectures On Psycho-Analysis; Allen & Unwin, ١٩٤٩.

٣.S. Freud: New Introductory Lectures on Psycho-Analysis: Allen & Unwin, ١٩٤٩.

٤.W. Stekel: The Interpretation of Dreams; Live right, ١٩٤٣, ٢ Vols.

٥. Emil A. Gutheil: The Handbook of Dream Analysis; Live right, ١٩٥١.

٦. Samuel Lowy: Foundations of Dream Interpretation: Kegan Paul, ١٩٤٦.

٧. Nandor Fodor: New Approaches to Dream Interpretation, New York, ١٩٥١.

٨. J. A. Hadfield: Dreams and Nightmares; Pelican, ١٩٥٤.

٩.Ella Freeman Sharpe: Dream Analysis; Hogarth Press, ١٩٣٧.

١٠. Mary Arnold- Forster: Studies In Dreams; Allen & Unwin, ١٩٢١.

١١. W. H. R. Rivers: Conflict and Dream; Kegan Paul, ١٩٣٢.

١٢. C. G. Jung: Psychological Types; London, Kegan Paul, ١٩٣٣.

١٣. C. G. Jung: Modern Man In Search of a Soul; Kegan paul, ١٩٤٠.

١٤. Frieda Fordham: An Introduction to Jung's Psychology; Pelican, ١٩٥٥.

١٥. Alfred Adler: What Life Should Mean to You; Allen & Unwin, ١٩٤٢.

١٦. Clara Thompson: An Outline of Psychoanalysis; The Modern Library, ١٩٥٥.

١٧. W. Mc Dougall: An Outline of Abnormal Psychology; Methuen, ١٩٤٨.

١٨. Ernest Jones: On The Nightmare; Hogarth Press, ١٩٣١.

١٩. Ernest Jones: Papers on Psycho- Analysis; Tindal & Cox; ١٩٥٠.

٢٠. J. G. Frazer: The Golden Bough; Macmilian, ١٩٥٠.

٢١. القرآن الكريم– جزء عم، تفسير الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده.

٢٢. التوراة– سفر الأمثال، ونشيد الإنشاد.

٢٣. "منتخب الكلام في تفسير الأحلام" لمحمد بن سيرين– دار الطباعة الخديوية ببولاق– سنة ١٢٨٤هـ.

٢٤. "الكابوس" تأليف نجيب يوسف بدوي، مجموعة الثقافة السيكولوجية، مطبعة مصر ,١٩٥٧

٢٥. "الأحلام" تأليف الدكتور توفيق الطويل- الناشر مكتبة الآداب بدرب الجماميز سنة ,١٩٤٥

٢٦. "التنبؤ بالغيب عند مفكري الإسلام" تأليف الدكتور توفيق الطويل- مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية سنة ,١٩٤٥

٢٧. "ديانة مصر القديمة" تأليف أدولف إرمان، وترجمة الدكتور عبد المنعم أبو بكر.

الفهرس